مصر تاريخ وتاريخ

حسن عبد الغفار

مكتبة النافذة

مصر

تاريخ وتاريخ

تأليف

حسن عبد الغفار

الناشر

مكتبة النافذة

مصر تاريخ وتاريخ

تأليف: حسن عبد الغفار

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

رقم الإيداع ٢١١٤٧/٢٠٠٦

الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢ شارع الشهيد أحمد حمدى - الثلاثينى - فيصل

تليفون وفاكس: ٧٢٤١٨٠٣



بسم الله الرحمن الرحيم

(رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً)

صدق الله العظيم



مقدمة

التاريخ جذر كل أمة، دليل قوتها وعزتها، هو قصة الخلق وتعمير الكون من خلال مسيرة حياة الإنسان خليفة الله في الأرض.

منذ بدء الخليقة قبل إدريس أول من خط بالقلم من الأنبياء ، وإبراهيم الخليل وهاجر أم إسماعيل الذبيح ويوسف الصديق بن يعقوب وموسى الكليم وعيسى الكلمة ومحمد الحبيب النبي الخاتم."عليهم جميعا أفضل صلاة وأتم سلام"، وعبر التاريخ المنقول والمنحوت والمكتوب والمصور، حظيت مصر بمكانة دينية وأدبية وتاريخية وثقافية لا تليق إلا بها.

هي النور حين كان الكون حالكاً، والعلم حين كان الكل جاهلاً، ملاذ كل هاجع وأمان كل فازع، واحة كل شارد وغاية كل قاصد ومطمع كل حاقد.

مصر صرح الحضارة، تراث متراكم من القيم والمثل والعادات والأخلاق النبيلة، شعب راسخ العقيدة الإيمانية سمح، احتفظ بنسيجه الاجتماعي عبر القرون الطويلة رغم ما تعرض له من فتن واستعمار واستغلال، يستمد قوته من اتحاد عناصره الوطنية. على اختلاف العقائد، وعزيمة رجاله على اختلاف الطوائف، وعفه نسائه وفتوة شبابه.

هذا الشعب في ظل قيادة واعية لمتطلبات العصر نجده يسعى لأن ينفض عن كاهله غبار الزمن وسنين القهر، ليتخلص من طوق التبعية وينهض بمجتمعه ليلحق بركب التقدم، يستجمع قواه لدفع عجلة التنمية في جميع المجالات.

ولما كان العلم هو سلاح كل عصر، والانتماء هو المحرك لقوى الشعب، فقد

رأينا كغيرنا أن المدرسة في مرحلة التعليم الأساسي هي البداية الحقيقة لإصلاح المجتمع وتهيئته لمواجهة تحديات هذا العصر.

في هذا الكتاب التربوي حاولنا إبراز قيمة العلم ودور المجتمع المدرسي من خلال المدير القيم الراعي، والمعلم الفاضل القدوة، وتأكيد ضرورة استقرار الأسرة لرعاية النشء، وإيجابية تضافر كل الجهود في تأصيل وترسيخ العقيدة السليمة والآداب الرفيعة والقيم النبيلة، بحيث تطبع النفوس على حب الخير والبعد عن الرذائل، ذلك من خلال مجتمع مدرسي ورحلة في ربوع مصر، نتعرف على حضارة مصر الضاربة في أعماق التاريخ، نمزج الماضي بالحاضر ونعمق الشعور بالانتماء لهذا الوطن العزيز، نقلب صفحات التاريخ ليتضح لنا أن لمصر تاريخاً يقرأ ويرى ويقص، وتاريخا يفهم ويؤثر ويحس، وهما الهيكل والدعامة للشخصية المصرية.

وضع الكتاب بأسلوب الحوار والنقاش بين الطالب والمجتمع المحيط به وتركنا بعض الأسئلة دون إجابة ليُعمل الطالب فكره ويسعى للقراءة والاطلاع.

والله أسأل أن يوفق كل الجهود لتمهيد الأرض الطيبة واستغلال السماوات المفتوحة الغنية بالعلوم والثقافة والمعرفة، ورعاية النبتة الطيبة الطاهرة وإبعادها عن كل غث وقبيح لتجد لها مكانة في عصر العلم والتكنولوجيا.

مصر التاريخ والحضارة

بيتنا

غدا يبدأ العام الدراسي .. انتهت الإجازة الصيفية، سأفتقد اللعب واللهو مع الأصدقاء والخروج إلى المتنزهات مع الأسرة، الزيارات العائلية ستكون للضرورة، مشاهدة التلفاز بميعاد وترددي على مكتبة الحي في حدود.

كم كنت أتمنى أن تمتد الإجازة قليلا، رغم اشتياقي للمدرسة، خاصة وأنا على أبواب المرحلة الإعدادية.

حركة غير عادية بالمنزل وأشعر أن اليوم سينتهي بأمسية يدور الحديث فيها عني. هكذا اعتادت الأسرة عندما يطرأ حدث يهمها، وكما حدث الأسبوع الماضي مع أختي(ولاء) في السنة الرابعة من المرحلة الابتدائية، تناولنا طعام العشاء وأخذ والدي يداعبنا بينما كانت والدتي تحضر بعضا من الفاكهة. حياتنا الأسرية هادئة ومنظمة، أبي ودود إلينا يقضي معظم أوقات فراغه معنا، يلاطف ويوجه، يساعدنا في مراجعة الدروس ويحاول إسعادنا قدر استطاعته، يبذل الجهد ليزنر لنا حياة كريمة، يصحبني منذ الصغر إلى المسجد فأصبحت مواظباً على الصلاة، والدتي عطوفة علينا، هادئة الطبع لينة الحديث، تحثنا على النظافة وترتيب ملابسنا وأدواتنا، عرفنا قيمة الوقت، وعلمتني كيف أختار أصدقائي وكيف أتعامل معهم بالود والتسامح، فأصبحت محبوبا بين العائلة والأصدقاء..

هما لي قدوة، يعطفان على المسكين ويرحما الضعيف ويعينا المحتاج.

قدم لي والدي ثمرة فاكهة وهو يقول:

ما رأيك يا أحمد في ملابسك المدرسية الجديدة؟

إنها جميلة وأنيقة وكم كانت سعادتي بالحقيبة المدرسية التي أحضرتها والدتي.. شكرا لكما وإن شاء الله أكون عند حسن ظنكما.

قربني والدي إليه برفق..

لقد انتهت الإجازة وقضينا أوقاتٍ سعيدةً بين زيارات ومصيف ونزهات، وبإذن الله ستبدأ غدا مرحلة دراسية جديدة، ستقابل فيها زملاء جددا ومجتمعاً مدرسياً مختلفاً عن المرحلة الابتدائية، من حيث المواد الدراسية والأنشطة المدرسية. هل أنت مستعد لهذه المرحلة الهامة من حياتك؟ نعم يا والدي. لقد تعلمت منك الكثير للمحافظة على تفوقي بين زملائي، والالتزام والطاعة فيما يرضي الله ومعلمي.

عليك أن تستمر في اجتهادك وتنظيم وقتك بين المذاكرة والراحة والاستفادة من وقت الفراغ في القراءة والاطلاع وبإذن الله سيكتب لك النجاح.

كم حلمت أن أراك يا بني جنديا في ميدان الحق تذود عنه، ورائدا في ميدان العلم يشار إليه وعالما في زمرة الفقهاء لتكون للمتقين إماما.

كانت والدتي تنظر تجاهي ، وعندما انتهى والدي من حديثه قالت.. وأختي بين ذراعيها، ما شاء الله لقد كبرت يا أحمد وأصبحت في طور الفتوة وعلى أعتاب الشباب، وكما قال والدك فهذه مرحلة هامة في بناء الفرد خلقيا وأدبيا وعلميا وبدنيا، عليك أن تعمل على تنمية ما وهبك الله من ملكات فكرية وقدرات بدنية من خلال الأنشطة الثقافية والعلمية والرياضية التي ستوفرها لك المدرسة، عليك أن تحدد هدفاً يلائم قدراتك، لأن بداية المستقبل المشرق والمكانة الاجتماعية والعلمية المرموقة، حلم يسعى الإنسان لتحقيقه ويبذل في سبيله الجهد والعرق.

تملكني شعور غريب، مزيج من السعادة والرهبة والزهو، لقد كبرت ولم أعد طفلا، انصرفت إلى غرفتي بعد أن قبلتهما.

رتبت ملابسي الجديدة وأخذت أنظر إليهـا، تـارة أراهـا رداء طبيـب تنتصـها السماعة، وتارة أراها حلة ضابط تزينها النجوم، وأتخيلها ملابس مهنـدس وفوقهـا خوذة، ومرة أخرى أراها رداء قاض أو عباءة فقيه بعمامتـه، وأتخيـل نفسـي ربّـانَ سفينة تجوب البحار أو طياراً يحلق في السماء. وسبحت بخيالي في المرحلة الثانوية والجامعية.. ترى من سأكون من هؤلاء؟ جلست أفكر حتى غلبني النعـاس، فـإذا بشعاع الشمس يداعب جفوني ونور الصبح يتلألأ في غرفتي وصوت والدتي لـه رنين جميل ويدها تمسح شعري ووجهي في حنان.

صباح الخير يا أحمد، إنه يوم مشرق. اليوم بداية مرحلة التفوق والامتياز.

اعتدلت في جلستي واقتربت منها.. طوقتني بذراعيها.. فقبلتها.

والدي يجلس في مكانه المعتاد يتصفح الجريدة.. دخلت عليه مسـلما وقبلـت يده، لاقاني بابتسامة وقبل جبيني وهَمَسَ: الوضوء والصلاة.

كنت قد توضأت فأقمت الصـلاة وتناولنـا جميعـا طعـام الإفطـار. وارتـديت ملابسي.

ودَّعتنا والدتي بالدعاء.

مدرستي

المدرسة قريبة من المنزل، اصطحبنا والدي أنا وأختي وهو في طريقه إلى العمل.

تذكرت كلماته وأنا أنظر إلى المدرسة من الخارج، أخذتني الرهبة وأنـا أدخـل من الباب، تحول هذا الشعور إلى إحساس بالسعادة عندما بدأت أتجول داخلها.

المباني حديثة واسعة تحيط بها حديقة جميلة أشجارها وارفة وزهورها مختلفـة الألوان زاهية، بها مسجد ومكتبة وملاعب كرة وورشة ومعمل وصالة مجهزة بعدد كبير من أجهزة الكمبيوتر، هذا ما وضحته صورة مجسمة (ماكيت) وضع في البهو الرئيسي للمدرسة، وجوه الطلاب باسمة نضرة تدل على موفور الصحة، تحركاتهم جادة تنم عن الالتزام والوعي، المدرسون والمدرسات في ملابس أنيقة تزيدهم وقاراً وإجلالاً، العاملون والعاملات في نشـاط متقـد، جميـع العـاملين بالمدرسـة علـى

اختلاف تخصصاتهم في سعي متناسق لهدف يعرفه وعمل يتقنه.

كيف ستسير الأمور في هذه المدرسة؟ وكيف سأجتاز هذه المرحلة؟

اصطف طلاب السنة الثانية والثالثة في هدوء وبينهم المدرسون والمدرسات وكأنهم زهور متناثرة بين براعم نابتة وأنظار الجميع معلقة بباب البهو.

وقفتُ مع زملائي طلاب الصف الأول نرقُب معهم، وبعد فترة غير طويلة خرج علينا رجل ذو هيبة، كسا رأسه الشيب يمشي في سكينة واطمئنان. إنه الأستاذ إبراهيم مدير المدرسة وأبو الجميع.

وجه التحية مهنئا بالعام الدراسي الجديد، وفي كلمة تجمع بين حنان الأب وحزم المعلم وخبرة المربي قال:

أيها الأبناء....

أهلا بكم في مدرستكم، دار الأخلاق ومحراب العلم ومنارة المعرفة مفرزة الرجال، والتي تمثل نموذجا مصغرا للمجتمع بفئاته وطوائفه، فينا الغني والفقير، وبيننا الصحيح والمعتل، ومنا الصالح ودون ذلك. قد تختلفوا في الميول والطباع والعقيدة، ولكن هدفنا واحد وهو تهذيب النفس وهدايتها لطاعة الله، وتنمية العقل وإرشاده لإعمار الكون، وبناء الجسم وتحصينه لدرء المخاطر، وتحصيل العلم والعمل به للتطور والبناء. وهذا لن يتحقق إلا بالجهود المخلصة والتعاون المستمر والآراء البناءة والشعور بالانتماء وتقديم مصلحة الأمة على مصلحة الفرد، لنكن جميعاً على قلب رجل واحد للمحافظة على مدرستنا والدفع بمجتمعنا للأمام.

مدرستنا نواة، إذا صلحت صلح المجتمع وازدهر وإذا فسدت "وبإذن الله لن يحدث" فسد المجتمع، وكما أرى فإن الجميع على استعداد لتحمل المسئولية تجاه المدرسة ومجتمعها الصغير لنكون عناصر فعالة في الوطن الكبير ونعيد سيرته الأولى.

أيها المعلمون ..

عهدي بكم خير، لقد أودع الله بين أيديكم أمانة تنشئه هذه الأجيال على

الآداب الرفيعة والقيم النبيلة وصحيح الدين وعلوم الدنيا، وبما لها من أمانة تعلمون أنها عظيمة. أنتم حملة مشاعل العلم لتنيروا لهم الدروب، أنتم لهم القدوة لتهدوهم سبل الرشاد. عليكم أن تقوموهم بالحسنى وتسلحوهم بالإيمان والعقيدة السليمة الخالية من الشوائب المادية التي سادت بعض المجتمعات وتزحف نحو مجتمعنا. لقد خلفكم الله فيهم وولاكم عليهم، افتحوا لهم القلوب واصغوا لهم الآذان، ناقشوهم بلين وعقول متفتحة وصدور رحبة، لا تتأخروا عنهم في النصح والتوجيه وكونوا لهم خير قدوة ونعم المُعين، لا تفترضوا فيهم قصور الفهم وعدم الإدراك، خاطبوهم عقلا بعقل واقنعوهم بحجة سليمة.

وأنتم أيها الأحباب ...

في هذا المجتمع المدرسي لم نعتاد على تقديم النصائح المجردة، نحن لكم القدوة في السلوك والأفعال والأقوال، أنتم في مرحلة لا تعتمد على الحفظ والتلقين وإنما مرحلة تعتمد على أعمال الفكر، التأمل فيها ضرورة والتدبر وسيلة، آداب الحديث التزام خلقي والمحافظة على النظافة والنظام سلوك حضاري، الاجتهاد في تحصيل العلم واجب، والإعتماد على الذات والبحث عن المعلومة ثقافة، وكل ذلك من صفات الطالب النابغة.

أنتم رجال الغد ومستقبل هذه الأمة وقادتها، عليكم عهد أن تحافظوا على ما خلفه الأجداد وأن تعيدوا اكتشاف كنوزهم من العلوم والفنون والآداب، نحن أبناء حضارة ضاربة في أعماق التاريخ ذات قيم راسخة وسلوك رصين قوامه الدين القيم والعمل الصالح ومدنية قادرة على الإبداع والابتكار والتطور.

لن نكتفي بالوقوف على أسوار التاريخ نفخر بالماضي التليد والأمجاد الضائعة، لقد تعرضت بلادنا لكل أنواع الغزو والاستعمار على مر العصور طمعاً فيما حبانا الله من خيرات ، زال الأستعمار وبقيت مصر.

إنها مصر أرض الأمن والأمان ، قال السيد المسيح عليه السلام في شعبنا " بورك شعب مصر" وقال عنها الذي لا ينطق عن الهوى(صلى الله عليه وسلم) إن مصر آمنة، وأهلها في رباط إلى يوم الدين، وإن جندها خير أجناد الأرض، لقد

أمدنا الله بالعون والقوة للحفاظ على هويتنا وتراثنا الحضاري ومواردنا الطبيعية.. وعلينا أن نكون أهلاً لتلك العطايا، وأن تكون لنا قوة ممثلة في طالب مجد وجندي شجاع وأستاذ قدوة وعالم نابغة وأب راع وأم مربية وقيادة حكيمة وإمام عادل ، فليكن كل منكم لبنة طيبة في صرح هذه الأمة.

نحن شعب لا يميل لعدوان ولا يعين طغيان،لا يستكين لجبار ولا يرضخ إلا للعزيز القهار، نحن خلف للأمة الوسط التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

أبنائي ...

عليكم الابتعاد عن البدع المبتذلة والتقليد الأعمى ومظاهر الانحلال في الملبس والسلوك، لا تخرجوا عن المألوف من عاداتنا وتقاليدنا المتفقة مع ديننا باسم التحضر والمدنية..فان التحضر والمدنية سلوك يعتمد على النظام وتقدير قيمة الوقت والدقة في العمل وإتقانه وحسن الإدارة وبذل الجهد والمال في البحث والتنقيب والارتقاء بالفكر والابتكار والإنتاج، والتحضر والمدنية ليس تغيرا في أسلوب الحياة وازدراء قيمك وعاداتك وأن تتسلق أسوار المجتمع مرتديا(الجينز) لأن لكل بيئة ما يناسب مجتمعها من ملبس وطعام وأسلوب حياة، وكما قلت لكم هذه ليست نصائح وإنما هي أسس وقواعد أخلاقية تلتزم بها مدرستنا، يستوي في ذلك جميع العاملين من المدير إلى حارس الباب.

لقد اعتادت المدرسة أن يكون لها هدف اجتماعي وتربوي، ونشاط رياضي وثقافي ودور بارز في تنمية المجتمع ،مثل فصول محو الأمية وتعليم الكبار،ونظافة البيئة والقضاء على مظاهر التلوث بأنواعه، وإعداد بحوث علمية أو تاريخية أو اجتماعية، والاشتراك في المسابقات الدينية والرياضية والثقافية وتنشيط دور مجموعات الإدارة الذاتية من الطلاب، مثل جماعة الصحافة وفرق الكشافة والرحلات.

إننا جميعا أسرة واحدة، نأخذ بالمشورة للصالح العام، ونسعى بجد وعلى أسس علمية لتحقيق الهدف ما دام نبيلا ووسائله مشروعة وغايته خدمة المجتمع، يشترك في ذلك المدرسون والمدرسات وموظفو الإدارة والطلاب. وأنا معكم نشد

على يد المجد نهنئه ونكافئه، نعين كل محتاج ونساعده، نقّوم كل معوج ونرشده، نلغظ كل متخاذل كسول حتى يعود لجادة الصواب.

مكتبي مفتوح وقلبي متسع للجميع وعيني عليكم وأتمنى لكم جميعا التوفيق.

كلمات هادفة ومن القلب صادقة فأصبحت في العقل راسخة وصارت نبراساً لنا.

مرت عدة أسابيع تعرفت فيها على زملائي وأساتذتي.

مجتمع مدرسي منظم يسوده الود وتجمعه المحبة والاحترام، الصدق والأمانة لغة الحوار، لا جدال في فكر ولا تسفيه لرأي، الفصول غير مكتظة على رحابتها، نوافذ تحمل إلينا أريج الحديقة المنعش، جدران الفصل زينت بوسائل إيضاح لجميع المواد الدراسية.

تعاقبَ على الفصل مدرسو المواد المقررة لكل منهم هدف واضح وسمة تميزه وأسلوب يناسب مادته، لكنهم جميعا يعاملوننا كآباء ويسيرون على نهج واحد يهدف إلى التدرج بهذا المجتمع الصغير والارتقاء به، "خلقا وعلما" إلى أسمى مراتب الإنسانية، وسيلتهم لينة وحديثهم مقنع وقدرتهم رائعة وحجتهم واضحة في إرشاد العقول لمنهج الله وتقويم الطالب بما يتفق وقدراته الذهنية والنفسية.

تبددت مخاوفي وزالت بمرور الأيام واتسعت دائرة معارفي وأصدقائي.. أقبلت على الثقافة والعلوم وتنامت لدي القدرة على الاستيعاب وزاد نشاطي الاجتماعي وتنامت شخصيتي.

بداية العلم والمعرفة..

لكل مجتمع بشري كبير كان أو صغير خصائص تميزه، وأدوات لتطويره وأهداف يسعى لإدراكها ومقومات تعينه على البقاء وتحفظه من الاندثار، وأهم هذه المقومات "العنصر البشرى" لذا فإن تطور أي مجتمع وثبات خصائصه والمحافظة عليه، يبدأ بإصلاح الفرد وتقويمه واستخلاصه لخدمة المجتمع وتعميق شعوره بالانتماء ومعاونته في تمكسه بالقيم الأخلاقية وعادته وتقاليده التي تحفظ له هويته وتبعده عن منحدر التردي والاندثار.. وهذا لا يحدث على مستوى الجماعة إلا بالأسوة الحسنة والقيادة الرشيدة، وفي إطار من العدالة الاجتماعية والمساواة في الحقوق والواجبات وحرية الرأي والقدرة على التعبير، من خلال قوانين منظمة تستمد قوانها من التشريعات السماوية.

هكذا بدأ معنا الحديث الأستاذ "عبد الله" مدرس مادة الدراسات، باسم الوجه متقد الذكاء واسع المعرفة، ـ لا تعوقه لعثمة لسان في الحديث ـ تاريخ الإنسان وتطور الحضارات محل اهتمامه، خريطة العالم في ثنايا عقله وتضاريسها بين أنامله،ومصر أحب إليه من نفسه وولده.

دخل الأستاذ عبد الله الفصل وعلى وجهه علامة الجد والاهتمام، ذكرني بوالدي عندما يريد أن يتحدث في أمر هام.

السلام عليكم ورحمة الله..

أبنائي: الآن وبعد أن راجعنا منهج الدراسات للمرحلة الابتدائية، سنبدأ أولى

فصول المرحلة الإعدادية، وقبل أن نسترسل في الحديث أود أن أتحدث إليكم في أحد أهم خصال الإنسان وهو الانتماء.

كل كائن حي ينتمي إلى فصيلة "نباتية أو حيوانية أو فطرية" وكل فصيل له خصائصه الحياتية ومقومات بقائه وخص الله الإنسان بين مخلوقاته بنعمة إعمال العقل واستخلفه في الأرض، وسخر له ما عليها لإعمارها، وجعلنا.. بني الإنسان شعوبا وقبائل لنتعارف ونتعاون لتحمُّل تلك الأمانة. وهي نعمة إعمال العقل، أي توظيفه فيما ينفع الناس ويهتدي به لطريق الخير، وبعلمه الأزلي يعرف طبيعة النفس الدونية الأمارة بالسوء، فأظلنا بشرائعه وبعث أنبياءه ورسله الهداة وأمدنا بالفقهاء والتقاة والحكماء والعلماء والمفسرين ووهب بعض علمه للمفكرين، ذلك لتستقيم الحياة ويتطور الإنسان. قال تعالى: "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض"٢٥١ "البقرة

الحضارة

مر الإنسان بكثير من مراحل التطور في أزمنة متتابعة، وظهرت عدة حضارات في أماكن متفرقة من العالم ساهمت في هذا التطور بنسب مختلفة، بعضها واسع الانتشار وبعضها محدود، منها قوية التأثير فعالة أو ضعيفة الأثر هامشية، بعضها طويلة الأمد ضربت جذورها في الأرض ومنها القصيرة الهشة التي ذرتها الرياح، وتخلل هذه الأزمنة قوى ظالمة وامبراطوريات باطشة عاثت في الأرض فسادا فكانت سببا في اضمحلال بعض الحضارات وزوالها. وبنعمة من الله بعثٍ رسالات هاديةٌ إلى سبيل الله بالتقوى والعمل الصالح وأبعدت من هداهم الله عن رجس الوثنية والشرك والانحلال وكانت هذه الرسالات عونا لبعض الحضارات بأن أمدتها بقيم أخلاقية توافق طبيعتها وبعثت فيها الحياة بعد أن كادت تضمر وتنزوي، والحضارة المصرية من أهم الحضارات وأقواها وأعمقها تأثيرا وفاعلية وأطولها أمدا وأكثرها قدرة على التجديد والاستيعاب والتطور.

لماذا؟

نظر الأستاذ إلى مصدر الصوت.

وقف يوسف وقد شعر أنه ارتكب خطأً.

نبهه الأستاذ لضرورة الاستئذان قبل الحديث.

اعتذر يوسف عما بدر منه.

ماذا تعني بهذا السؤال؟

لماذا كانت الحضارة المصرية من أهم الحضارات وتحمل هذه الصفات؟

لكي نعرف أهمية الحضارة المصرية بالنسبة لتطور الإنسان، علينا أن نعرف أولا ما هي الحضارة؟

الحضارة يا أبنائي نتاج سلوك إيجابي وأسلوب راق من القيم والعادات والتقاليد والحكم والأمثال والعقائد، تراكمت لدى شعب بدائي أدت إلى رقيه وتحوله من مجتمع قبلي إلى مجتمع مدني ثم إلى مجتمع متحضر.

نظر كل منا إلى الآخر.. فشعر الأستاذ أن في هذا الكلام تركيبة غريبة على أذهاننا.

أردف الأستاذ عبد الله.

قلت لكم إن الإنسان قد مر بمراحل تطور على مدى آلاف السنين، وهو بطبعه كائن اجتماعي يميل إلى الاستقرار وتكوين أسرة إذا تمكن من توفير الظروف الملائمة، ويشكل بعلاقاته الأسرية نسيجاً لأي مجتمع بدائيا كان أو منظما، ونعرف المجتمع البدائي بأنه مجتمع فوضوي، السلطة فيه للأقوى والقانون يفرض بحد السيف، مجتمع جاهلي. أما المجتمع المنظم له دستور وقانون و سلطة تحكم أفراده بالعدل وفق القانون والدستور وتساوي بينهم في الحقوق والواجبات. والمجتمع البدائي الجاهلي إذا تسلح بالعقيدة السليمة وتأصلت فيه القيم وارتقت به العادات وسيرته الشرائع السماوية وسن من القوانين الأخلاقية ما يقوم به الإنسان _ كما حدث في المجتمع البدوي بعد ظهور الإسلام _ فإذا به يتحول إلى مجتمع مدني قوي متماسك، تنهار أمامه حضارات مثل حضارة الفرس والرومان، وإذا ما أخذ بأسباب التطور وفتح باب الاجتهاد وقضى على الجهل، وحلق في

سماء العلوم والفنون والآداب، تحـول إلى مجتمـع حضـاري قـادر علـى أن يتطـور ليصبح شعبا ذو حضارة قوية ومؤثرة كما فعل الأسلاف.

الحضارة يا أبنائي: كيان يعتمد على توافر الموارد البشرية والطبيعيـة مجتمعـة، ومقومات الحياة الثقافية مكتملة، ونحن نعرف أن الموقع الجغـرافي هـو جـزء مـن سطح الأرض وتضاريسها تنقسم إلى بيئات منها الساحلية والصحراوية والزراعية، وكل بيئة يقطنها كائنات حية منها البشر، وتختلف كثافة الأحيـاء فيهـا حسـب توفر مقومات الحياة (المناخ - التربة - الماء) وهذه البيئات التي ذكرتها قارية أي.. موزعة على سطح كل قارة مـن قـارات العـالم الـتي تعرفونهـا وينـدر أن تكـون مجتمعة في بلد واحد، لذا فإن معظم الحضارات التي قامت اعتمدت في بناء كيانها على الحروب والتوسع والاستعمار واستغلال مقدرات وموارد الشعوب الـتي يـتم غزوها، فكان قوامها الظلم والطغيان والاستعباد والقهر، ولكن سرعان ما تتعرض مثل هذه الكيانات الإمبراطوريـة للتفسـخ والانقسـام ثـم التحلـل والانـدثار ولا يكتب لها البقاء مهمـا طـال بهـا الزمـان، تلـك نـواميس كونيـة لا تتبـدل مثـل الإمبراطوريات (الرومانية والفارسـية والإغريقيـة) وغيرهـا، ذلـك يرجـع إلى عـدم قدرتها على الصمود أمام الثورات من قبل سكان البلد الأصليين مهما امتد بهـم زمن القهر والاستعباد لإيمان الشعوب بحقهم في الحرية.أين انجلـترا الإمبراطوريـة التي كانت لاتغيب عنها الشمس؟؟

ولكن عندما نتحدث عن الحضارة المصرية، فإننا نتحدث عن حضـارة قامـت في بلد واحد تتوافر فيه الموارد البشرية والطبيعية ومقومات الحياة، لم تغـزو أرضـاً لتنهب خيراتها وتسخر شعبها، لذا فهي لم تتعرض للقلاقل والانقسامات منـذ أن وحدها (مينا) فطال أمدها وكتب لها الخلود.

لقد عرفت مصر الصـيد فتجمـع أهلـها، وعرفـت الزراعـة فاسـتقر شـعبها وعرفت الهندسة فارتفع بناؤها وعرفت التوحيد فـزاد عطاؤهـا، وتقـدمت في كـل مجالات العلوم الراقية وصارت من أهم روافد العلم والمعرفة لشعوب العالم، فكان لها الأثر العظيم في حركة التاريخ.

استأذن جرجس للسؤال .. تفضل..

كيف انتقلت العلوم المصرية إلى العالم رغم أنها لم تقم بغزوات كما تفضلت؟

انظر يا بني إلى خريطة العالم التي أمامك تجد أن مصر تقع في متوسط العالم القديم والحديث. ذلك الموقع جعلها من أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب، وقد هيأ لها هذا الموقع المتميز الفريد مكانة عظيمة بين الأمم وأصبحت ملتقى الحضارات سلما وحربا، وجعلها أيضا مطمعاً لقوى الشر ومعبراً لطلائع النور. مصر يا بني هي البلد الوحيد في العالم التي بين ربوعها وعلى ترابها وتحت ثراها وفي أعماق مياهها آثار الحضارة الفرعونية واليونانية والرومانية والمسيحية والإسلامية فأصبحت بذلك أكبر مرجع لتاريخ الحضارات ومراحل تطور الإنسان في العالم.

قام عليّ يسأل.

كيف حافظ المصريون على هويتهم في ظل تصارع هذه الحضارات على أرضهم؟

لقد حملت الحضارات الإمبراطورية الوافدة والمستعمرة لمصر كثيراً من المعتقدات والعادات والتقاليد ولكن مصر كانت ولازالت بوتقة تنصهر فيها كل الكيانات بما تحمله، تأخذ منها ما يلائم طبيعتها البشرية ويوافق عقيدتها الروحية وتنبذ ما دون ذلك، لم يَذُب المصري في أي من تلك الكيانات ولم تؤثر فيه إلا بما أراد، فظل متمسكا بهويته، تزيده الشدائد صلابة، فأصبح صلدا كآثاره، ويزيده الإيمان رسوخا فصار لينا معطاء كنيله.

لقد عرف المصري التوحيد في زمن التيه والضلال فكان نورا واعتنق المسيحية في عصر الشهداء فكان قبسا، وفتح للإسلام قلبه وانشرح صدره لنور الإيمان طواعية فزاد بريقه، ودخل الإسلام رغبة لا رهبة فصار شمساً لا يغيب ضياؤها ولا يفتر دفؤها.

طلب غريب الإذن بالسؤال.

من خلال دراستنا وكلام حضرتك الآن عرفنا أن مصر معتدى عليها منذ أن

تسلل إليها الهكسوس وحتى الآن، فعلام يدل ذلك وهل هذا دليل ضعفها؟

اسمع يا غريب

لم يذكر التاريخ المكتوب أو المنقول أن المصري خرج من أرضه غازيا أو معتديا أو مغتصبا، ذلك يرجع إلى رسوخ عقيدته الإيمانية واعتقاده في البعث والخلود والثواب والعقاب، والجنة والنار، منذ فجر التاريخ عرف الزراعة فركن إلى الاستقرار وانصرف لبناء حضارته مكتفيا بما وهبه الله من خيرات وموارد وبيئة مكنته من إقامة أقوى حضارة عرفتها البشرية، ولكنّ هناك سننا كونية ظاهرة كالشمس ثابتة كالنجوم، تدور دوران القمر وتتعاقب كالليل والنهار.

أي حضارة مهما أوتيت من قوة ومنعة لابد أن تدخل المثلث الأزلي وتمر بمراحله الثلاث، والتي تبدأ على شكل ظواهر تنمو صاعدة حتى تصل إلى ذروتها في القوة والجاه والسلطان، وتصاب بآفات الزهو والتّرف والانحلال، فيختل الميزان الفطري الذي أحله الله وتنبذ قيمها الأخلاقية وتلك أفاعيل الشيطان فتضعف وتنحدر وتندثر.

وإذا نظرنا إلى كل الحضارات القديمة والإمبراطوريات الحديثة، نجدها على اختلاف تأثيرها وشيوعها وقوتها قد مرت بهذا المثلث(النمو والصعود/الثبات والتّرف/الانحلال والتّردي) وقد مرت الحضارة المصرية القديمة كغيرها بهذه المراحل وأصابها الوهن والضعف وتعرض شعبها لكثير من الغزوات المتعاقبة، ولكنها لم تندثر كباقي الحضارات وتمكنت من الصمود وظل الشعب المصري بأصالته وعراقته يحوي ولا يحتوي، يترفع في غير مذلة ويبذل دون حاجة، يدفع بالتي هي أحسن ويردع بما هو أقوم، وظلت مصر ومازالت كالهرم تقاوم رياح التغير وعوامل التعرية، أرض خصبة إذا أصابها طَلٌّ نمت وترعرت وجادت بخيرها، وإذا حل عليها الجفاف تحورت وحفظت كنوزها.

يا أبنائي كم من حضارة قامت وزالت وطويت صفحاتها أو محيت من سجل التاريخ ولكننا جميعا نفخر بعروبتنا ونعتز بمصريتنا، ونعيش إخوة وإن اختلفت عقائدنا، وآثارنا خير شاهد على ذلك، لم يهدم معبد ولم تخرب كنيسة ولم يهجر

مسجد، أما هذه الغزوات الاستعمارية فمنها ما كان طمعا في خيراتنا الوفيرة أو استغلالاً لموقعنا الجغرافي أو هدما لأسس وقواعد يمكن أن يقام عليها بنيان قوي.

وللحديث بقية في الحصة القادمة إن شاء الله.

تركنا الأستاذ في حالة من الحيرة، ولم نعرف هل تعرض دولة لغزوات متتالية ومنظمة ومحاولة حصارها دليل ضعفها أم خوفا من تنامي قدراتها وبعثها من جديد وعلو شأنها؟!!

ارتفعت حدة النقاش بين طلاب الفصل، ولأول مرة أسمع كلاما لم أعهده من زملائي ويخرج على لساني، خاصة في هذا السن المبكر.

قال ناصر: إن عدم وجود قوة تحمي الموارد التي حباها الله لنا، دليل ضعف وتجعلنا مطمعاً، فيجب أن تكون لنا قوة اقتصادية وعسكرية يجتمع تحت لوائها كل العرب كما فعل صلاح الدين وسيف الدين قطز والظاهر بيبرس وكما فعل محمد عليّ عندما فكر في بناء مصر الحديثة.

قال أنور: عندما فكر محمد عليّ في الخروج بهذه القوة خارج حدود مصر تكالبت عليه الدول الغربية وكانت نهايته، وكذلك أحمد عرابي لم يسلم من يد الإنجليز وخيانة القصر وعندما فكر عبد الناصر في توحيد الأمة لاقى حصاراً اقتصادياً وسلوكاً عدوانياً انتهى بحرب ١٩٦٧ م ونتائجها ،لذا يجب أن تكون لنا قوة لحماية حدودنا واستغلال خيراتنا في بناء المجتمع المصري كما فعلنا في عام ١٩٧٣م، ثم نركن إلى نشر السلام بين الشعوب، ونحذوا حذو اليابان التي خرجت من الحرب العالمية الثانية مهزومة وهي الآن أكبر قوة اقتصادية في العالم وغزت بإنتاجها أسواق العالم حتى أسواق أمريكا كما يقول والدي.

قال مبارك : القوة التي لا تساندها قيم وأعراف تكون غاشمة وسريعاً ما تنهار، فيجب أن ننهض بالمجتمع المصري، نهتم بالمدرسة كما هو حال مدرستنا، نعمل على استقرار الأسرة وتوفير حياة كريمة لها ، نعظم الشعور بالانتماء ونعمل على رفعة الوطن كما قال الأستاذ إبراهيم ونحن نرى من خلال المؤتمرات العربية والإسلامية وحتى في زيارة زعماء العرب والعالم ومناقشات مشكلة فلسطين

والتوفيق بين فصائله، واحتلال العراق والمحافظة على وحدة السودان ورأب الصدع بين سوريا ولبنان ومساعدة البوسنة والصومال .

مصر محور تدور حوله شعوب المنطقة، يحتكمون إليها ويأخذون بمشورتها وينفذون وصاياها. مصر التي يلجأ إليها العرب وغيرهم عند الخطوب والملمات، تلك الريادة توجب علينا ألا نعيش في معزل عن العالم وهذا هو قدرنا، المهم أن نعمل حتى نكون على قدر هذه الريادة اقتصاديا وعلميا وعسكريا وثقافياً.

انتهى اليوم الدراسي ولم يفارق ذهني هذا النقاش الذي دار بين الزملاء.

من هو القوي ؟؟ من مصر الضعيفة انطلق صلاح الدين وحرر بيت المقدس، من مصر الضعيفة عبأ وجهز قطز قواته لوقف الزحف المغولي الذي كان يهدد العالم ومستقبل البشرية كلها، من مصر الضعيفة انطلقت شرارة التحرير في رمضان١٣٩٠ هـ - أكتوبر١٩٧٣م لتحرير الأرض المغتصبة وردع المعتدي وتحطيم أسطورة إسرائيل التي لا تقهر، والقضاء على صلف وغرور الكيان اليهودي الذي زرع في أرض غير أرضه بمساعدة قوى الطغيان!!

أرض الكنانة لم تكن يوما ضعيفة، كيف وهي ملاذ كل شريد وأمان كل خائف وسنبلة كل جائع ونهر كل ظمآن ودرع كل مظلوم ولسان كل مقهور ومقبرة كل غازٍ ومنهل كل عالم، ألم نعرف كل هذا خلال المرحلة الابتدائية وانحصر السؤال في "من هو القوي" ؟

في المساء لم يحضر والدي في موعده، استأذنتُ والدتي في الذهاب إلى المسجد لصلاة المغرب وأعلمتها بأنني سأنتظر صلاة العشاء.. فأذنت لي بعد أن عرفت بأنني سأطرح سؤالاً على شيخ الجامع.

بعد أداء الصلاة توجهت إلى الشيخ "سيد" الذي يعرفني جيدا.

رحب بي مربتا على كتفي.

قلت له عندي سؤال.

قال : وأنا إن شاء الله مجيب.

قال: في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما يعني أن القوة ليست بالغلبة والمال والسلطان، وإنما القوي الذي يملك نفسه عند الغضب، وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة وآيات عديدة.

قلت: وإذا أصبحت دولة أو أمة مطمعاً لكل ظالم ومتجبر.

قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم"."الأنفال،٦"

وإرهاب أعداء الله بمعنى ردعهم وإظهار قوة المسلمين ،لا ترويع الآمنين وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق.

ما بالك يا بني ولماذا أراك شارد الفكر؟ ما الذي يشغلك؟

يا شيخنا: إن عقلي لا يقبل فكرة أن تكون دولة قوية وفي نفس الوقت تتعرض للغزو والاحتلال وما يتبع ذلك من قهر واستعباد.

قال : إذا كنت قد استأذنت والديك تعالى نحضر مجلس علم بين المغرب والعشاء وإن شاء الله أريح فكرك وأثلج صدرك.

تصدر الشيخ حلقة اجتمع إليها نفر كثير، كهول وشباب وأطفال وبعض النساء والفتيات خلف ساتر، بدأ حديثه قائلاً: أيها الأخوة لدينا سؤال.

من هو القوي؟ هل هو الذي تفزع منه الناس خوفا من ظلمه وطغيانه، أم الذي تفزع إليه الناس مستجيرين به طلبا لحماه ومشورته.

قال رجل بجانبي: التاريخ هو الذي يجيب وكما علمنا ديننا الحنيف، فإن الظالم إلى زوال وإن طال به الزمان وانتصر، والمجير الكريم هو الباقي مهما تعثر وانهزم، لأن دولة الظلم ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة.

لنتحدث قليلا عن مصر وأعتقد أن هذا ما يعنيه ابننا أحمد.

إن مصر هي الدولة التي شُرِّفت بذكرها في الكتب السماوية أكثر من مرة وخصها القرآن الكريم بأنها أرض الخير والنماء ،أرض السلام والأنبياء من دخلها

كان آمنا على ماله وعرضه وولده ودينه، هي أرض إدريس عليه السلام أول من خط من الأنبياء بالقلم، ووهبه الله من لدنه علم النجوم وأسرار الفلك وعدد السنين والحساب، فكانت له الحكمة وشريعة التوحيد، مصر التي جاءها الخليل إبراهيم فارًا في زمن الجدب ووهبه ملك مصر السيدة هاجر حافرة بئر زمزم وأم إسماعيل جد رسولنا الكريم عليهم جميعاً الصلاة والسلام، مصر التي سيق إليها يوسف الصديق طفلا أسيرا وعاش فيها عزيزاً كريما فصار وزيرا، وقد مكنه الله من خزائنها فَأُتُمِن عليها حفيظا عليما. واستقدم أباه يعقوب وبنيه وأهله وعشيرته وعاشوا فيها بسلام، في مصر ولد موسى الكليم وأخوه هارون وعلى جبل موسى (الطور) بسيناء تلقى شريعته وخرج منها نبيًا ورسولا، مصر حصن الأمان التي لجأت إليها العذراء مريم بولدها المسيح عليه السلام والعائلة المقدسة هربا من القتل والظلم واستظلوا بشجرتها وطافوا بربوعها آمنين حتى عادوا إلى فلسطين.

مصر التي أكرم ملكها المقوقس وفادة بعثة الدعوة الإسلامية وأهدى النبي (صلى الله عليه وسلم) "مارية أم إبراهيم" وقال عليه السلام في أهلها "إنهم في رباط إلى يوم الدين" وأوصى خلفاءه أن يتخذوا منهم جندا كثيفا لأنهم خير أجناد الأرض فصارت مصر ومازالت درع الأمة العربية والإسلامية، فكيف يكون هذا الشعب ضعيفا وهو خير أجناد الأرض كما قال الذي لا ينطق عن الهوى.

كان بين الجالسين شاب يضيء وجهه بنور التقوى والإيمان، استأذن الشيخ في الحديث قائلاً: عندما أراد الله بمصر خيرا دخلت الإسلام، وكما أنعم عليها بالمكانة الرفيعة التي ذكرها شيخنا كموطن للأنبياء، أفاض عليها بأن جعلها الجسر الذي عبر عليه الإسلام إلى سائر أفريقيا ومنها إلى الأندلس، وحمل علماء الأزهر الشريف الذي أنتمي إليه مشاعل النور ليضيئوا مجاهل أفريقيا ويطهروها من دنس الوثنية، وصار الأزهر منذ القرون الأولى للإسلام قبلة كل طالب علم في أرجاء الدنيا من آسيا وأفريقيا وأوروبا وحتى الآن.

توجه إليَّ الشيخ بالحديث. ما رأيك يا أحمد؟. هل تعتقد بعد ذلك أن مصر دولة ضعيفة ؟ قوة مصر يا بني تكمن في قدرتها على التصدي لكل غزو

وتحطيمه واحتوائه والمحافظة على هويتها، وعليك أن تعرف أن الجهاد في سبيل رفعة الإسلام والاجتهاد في العمل من صفات المسلم الحق، والمؤمن القوي خير عند الله من المؤمن الضعيف، لأن المؤمن القوي عزيز النفس يأبى المهانة والمذلة ويترفع عن السؤال قال تعالى: "إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد" (سورة غافر)٥١

مصر يا بني هي بلد العطاء والخير، لم ينضب معينها وستظل شامخة طالما فيها أبناء مثلك يبحثون عن الحق ليتبعوه ويمسكوا بحبل الله المتين، ويحبون وطنهم ويسعون للذود عنه.

حضر والدي إلى المسجد وخرجنا معا بعد صلاة العشاء، وفي طريق عودتنا سألني عما دار في الحديث فأخبرته.

فقال: يا ليتني كنت معكم، المهم أنت وجدت إجابة لسؤالك فقلت نعم، وقد حصلت على كثير من المعلومات لم أكن أعرفها، جلست أنا ووالدي نسترجع بعضا من كلمات اللغة الإنجليزية وبعض الجمل قبل ذهابي إلى النوم.



كاد المعلم أن يكون رسولا..

كيف أكون معلمًا ؟ سؤال تردد في ذهني كثيراً عندما جلست وحدي أستعرض كل مدرس وهو يؤدي واجبه نحو جميع الطلاب دون تمييز، لا يتذمر من سؤال ولا يمل من التكرار ويبذل في سبيل توصيل المعلومة الجهد بسعادة واضحة وصبر جميل. أكن للأستاذ / يحيى مدرس اللغة الإنجليزية محبة واحتراما، فهو أنيق المظهر في غير تكلف، عذب الصوت هادئ الطبع رغم حدة ملامحه، تتحرك يداه مع شفاهه ويكرر الكلمة والجملة لنجيد نطقها

من مبادئه نشر المحبة بين الناس وأنه كلما تعلم الإنسان لغة جديدة صار إنسانا جديدا، خاصة في عالم تحول إلى قرية صغيرة بفعل التقدم في عالم الاتصالات، واتساع حركة السياحة العالمية، حفزنا على الاهتمام باللغات الأجنبية لمواكبة التغيرات السريعة التي تجتاح العالم، والتعامل مع الأجهزة الحديثة مثل الكمبيوتر واستخدام الإنترنت.

تجمعت حوله التلاميذ لدماثة خلقه ولين منطقه وقدرته على إحياء وتنشيط الملكات الفطرية لدى الطلاب، بذل جهداً كبيرا لتكوين جماعة الثقافة اللغوية ونشر هذه الثقافة بين طلاب المدرسة. وآتت جهود هذه الجماعة ثمارها مع طلاب الصف الثاني والثالث.

تعددت لديَّ مصادر المعلومات وزاد ترددي على مكتبة المدرسة ومكتبة الحي العامرتين بكتب كثيرة وقيمة في جميع المجالات، اشتركت في الرحلات الترفيهية والثقافية وأصبحت المدرسة بكل ما فيها عالمي الذي أسبح فيه وأغوص، وأحلق حوله وأطير بحثا عن كنوز المعرفة والثقافة والأدب. لم يعترض والدي وإن

حذرني بألا تطغى هذه الأنشطة على دراستي أو تحيد بي عن طريق التفوق.

كانت تماثيل ولوحات الأستاذ (مروان) متناثرة في الطرقات والحديقة والبهو فتحولت المدرسة إلى معرض خاص به، رسام يتنفس الألوان ويتكلم بالفرشاة، نحات يزهو متفاخراً بما صنعت أنامله، حياته لوحة كبيرة يتحرك داخلها، تعرفنا منه على المدارس الفنية في الرسم والنحت على مر العصور، كان يهتم بتنمية حاسة اللمس لدينا وتجانس الألوان وخطوطها الانسيابية، اشترك مع بعض الطلاب في نحت عدد من التماثيل ،زين بها الحديقة وساعد بعضهم في رسم اللوحات وعرضها في المسابقات بين المدارس، وعلقت اللوحات الفائزة على الجدران فأضافت لمسة جمالية ساحرة على المدرسة.

أحب الرسم وتبهرني الألوان وجمالها، ولكني لا أملك القدرة على رسم لوحة أو نحت تمثال كالأستاذ مراون، أهتم باللغة الإنجليزية وأسعى لتعلمها وأتمنى إتقانها، وأقدر ثقافة الأستاذ عبد الله الذي جعلنا نطرق أبواب التاريخ، ولكن اللغة العربية لها مكانة خاصة في نفسي وتستحوذ على اهتماماتي فهي لغة القرآن الكريم وتكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه لقرآنه الكريم واللغة العربية، أحب الشعر دون أن أعرف له وزنا ولا قافية،أستعذب النثر وتطربني موسيقى الكلمات، إنها لغتي ولغة أجدادي وأبجديتها على ما أعلم أصل اللغات السامية كما قال والدي، ولكني لا أعلم لماذا يطلق عليها لغة الضاد؟

لقد ميز الله الإنسان عن جميع مخلوقاته ووهبه نعمة التدبير والتفكير ليبتعد عن كل غث وقبيح وضار، ويُقْبِل على كل طيب وجميل ونافع، وإذا منَّ على عبد بفضله اصطفاه وطهره، يجلي بصيرته فيضيء وجهه، يفقهه فينير عقله، ويعلمه فتسمو روحه، يؤدبه فيكفيه وينجيه، ويرشده ويهديه فيصير الإمام والقدوة والأمل، عندما تراه أو تسمع سيرته ينشرح صدرك ويهفو إليه قلبك وتتمنى أن يكون والدك أو جدك أو أخاك أو معلمك، هذا هو الأستاذ (محمد) معلم اللغة العربية والدين، سمته على وجهه كالهلال من أثر السجود، كريم الخصال، لا ينطق إلا حقا، ولا يتكلم إلا صدقا، يرعى الكبير ويعطف على الصغير.. اجتمعت المدرسة على حبه واحترام كلمته وتقدير سعيه في الخيرات

والأخذ بمشورته في السراء والضراء، قريب الشبه من الأستاذ إبراهيم، عفيف اللسان سديد الرأي، يسعى لتأليف القلوب في طاعة الله، ينتصر لكل ضعيف ويعين الفقير والمسكين، فيه صفات الإنسان الفاضل ولا يخشى في الحق لومة لائم.

في حصته الأولى تلا علينا سورة "العلق" وفسرها شارحا معانيها وبين أن أول كلمات الوحي لنبينا الكريم "اقرأ" فعل أمر ليصبح العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، تدارسنا معه بعضا من السيرة العطرة والسنة المطهرة فزادنا يقينا أن الإسلام دين الفطرة السليمة والعقيدة القويمة والشريعة الرحيمة، دين المحبة والسلام، دين الأخلاق والعلم والاجتهاد والجهاد والعمل الصالح، لا تواكل فيه ولا كسل، لا استعلاء فيه ولا كبر، دين كل عصر ونور كل فكر وعين كل رأي، وكما قال الأستاذ إبراهيم وعبد الله ويحيى إنه من خيرة المدرسين بالمدرسة.

كانت الحصة الثالثة في اليوم الدراسي "دين" وكان الدرس عن سماحة الإسلام.

سأل أبو بكر الأستاذ محمدا :

لماذا يتعرض الإسلام والمسلمون لحملة تهدف إلى تشويه الدين وإضعاف حال المسلمين؟

قال: يا أبنائي عندما انطلق نور الهداية من باطن مكة أم القرى يبدد الظلمات ويقشع الغيوم، وتخلق المسلم بالسماحة والتقوى، وتحلى بالصبر والشجاعة، وتسلح بالعقيدة الإيمانية السليمة..عندها سال كالنهر يروي عطش القلوب ونزل كالمطر يحيي موتى الضمير، وجال كالنسيم يشفي مرضى النفوس، وطاف كالريح يطوي كل جبار يجوس ، عبر الجبال وخاض البحار واخترق الحضارات، لم يعمد لهدمها وإنما كان هدفه تصحيح الفكر الإنساني وإعادته إلى حظيرة الإيمان والتوحيد، استقطب العقول النيرة والقلوب النقية والنفوس المهيأة لطاعة الله ، دين قوامه الإيمان المطلق بقدرة الله وهيمنته على مقدرات الإنسان وتوازن الكون، ودفع الباطل بالحق وحرية الاختيار والعدالة الاجتماعية والمساواة وتكريم المرأة وإعلاء مكانتها، " لا إكراه في الدين " ولا رفعة لعربي على أعجم

إلا بالتقوى والعمل الصالح، لا فرق بين مسلم وغيره فالناس في القضاء سواء، فكان أثر سطوع نور الحق انهيار دولة الظلم في البقاع التي وصل إليها فجر الإسلام.

وسنة الله في خلقه نافذة، خلق كل شيء بقدر وبحكمة لا يعلمها إلا هو، ومن نواميس الكون الليل والنهار، ومن طبائع البشر الهداية والرشاد والكفر والعناد، وعاقبة الحياة الجنة أو النار، والإنسان أكثر المخلوقات ظلماً لنفسه.

قام نادر في حركة انفعالية وطلب الحديث.

وقبل أن يأذن له الأستاذ قال: ولكننا نرى أن قوى الشر تزداد ويعم الظلم أرجاء الأرض ونشاهد في التليفزيون وتطالعنا الصحف كل يوم بأنباء الحرب بين الدول وبعضها، وبين أبناء الشعب الواحد، وتُخلف وراءها الدمار والتشريد والمجاعات، وفي بعض الأحوال الإبادة الجماعية كما حدث في البوسنة وكوسوفا وما يدور في أفريقيا وفلسطين والعراق وغيرهما.

هل انتهيت من حديثك. آسف يا أستاذ ولكن ما أراه من موت لطفلة رضيعة برصاص الغدر أو مقتل شاب وانتهاك حرمة المقدسات الدينية، ونحن لا حول لنا ولا قوة، كل ذلك يشعل غيرتي على ديني ووطني وأمتي.

قال تعالى: "ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون" (الروم) ٤١

قلت لكم إن الخير والشر من نواميس الحياة، الخير هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأما الشر فهو من أفاعيل الشيطان الذي يزين لضعاف النفوس أعمالهم وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعا، ويغرهم بسلطان القوة وعظمة الجاه ونعيم الثراء، فنرى أتباعه وقد عاثوا في الأرض فسادا، يروعون الآمنين دون وازع ديني، ويهلكون الحرث والنسل دون رادع أخلاقي، لا تحدهم قيم ولا ينصاعون لأمر الله، ونعلم جميعا أن الشرائع السماوية وحتى القوانين الوضعية، ترعى حرمات الإنسان "وما ربك بظلام للعبيد" فالإنسان لا يحصد إلا ثمار ما زرع ولا يجني إلا نتاج ما بذر، الفساد يعم عندما نبتعد عن منهج الله وننبذ الفطرة الإلهية

السليمة وتغيب العدالة الاجتماعية، ويتحلل المجتمع من قيمه ومثله العليا، فنرى المجتمع وقد انقسم على نفسه بين رافض بجهل ومؤيد عن ضلالة، فيزداد العنف وتشيع الفوضى، فيصاب المجتمع بالوهن ويتخلف وتتداعى عليه الأكلة، ويصبح فريسة سهلة لكل طامع ومغتصب كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- .

سأل جلال.. منذ فترة وأنا أسمع بعض الكلمات مثل(المُثل العُليا والإيثار) وأعرف أنها خصال حميدة تقرب الإنسان من الله وترفع مكانته بين الناس، وتُسهم في تقدم المجتمعات فما هي تلك القيم والمُثل وما معنى الإيثار، وهل العودة إليها تبعد عنا الأكلة ولا تجعلنا فريسة سهلة.

يا أبنائي: المُثل العُليا والقيم النبيلة هي الفطرة التي ذكرناها منذُ قليل، وقد خلق الله الإنسان بفضيلة روحية تناسب الملائكة، بصفتها وطهارتها وطبيعتها النورانية التي تلائم الحياة في السماوات العُلا بجوار الرحمن عز وجل، وفضيلة جسدية من طين الأرض بمادياتها وغرائزها وتكالُبها على الحياة لتلبية متطلباتها والتي تلائم وجوده على الأرض مع الأنعام. وهدى الإنسان النجدين، فإذا أعمل الإنسان عقله وتغلب على غرائزه، هدأت نفسه الأمارة بالسوء ويسمو بروحهِ إلى الطبيعة النورانية ويكون عند الله خيرا من الملائكة لأنه جاهد النفس وتخلص من رذائلها. أما إذا تغلبت عليه نفسه وهوت به وانغمس في حب الدنيا وسيّرته غرائزه الدونية، كان عند الله أشر من البهائم لأنه أغفل نعمة العقل الذي شرفه بها الله. دعونا نفكر قليلا ونستعرض معاً بعض النماذج ذات القيم والمثل العليا والتي تسمو بصاحبها وتعود على المجتمع بالخير.

ما قولكم في الحاكم العادل، المشاور في الأمر، الصارم الحازم في الحق، المتزن القوي عند العفو، المُعرض عن الجاهلين وبطانة السوء، الذي يُفشى السلام ويسعى والناس نيام ويقيم شرع الله في الأنام.

ما قولكم في الرجل، صاحب المروءة والشهامة، لا يكتم الشهادة، القانع برزقه الراضي عن ربه، حسن الخلق في بيته، المحسن الكريم في أهله، الذي يعظم الحرمات ويأكل من الطيبات، الحافظ لحقوق الجار الواصل للأرحام.

ما قولكم في إمرأة كريمة الأصل راضية، عفيفة اللسان مؤنسة، لطيفة العشرة هادئة، لا تفشي سرا ولا تخوض في عرض، لا ترمي محصنة ولا تلمز مؤمنة، باسمة عطوف حليمة، ساجدة رءوفة رحيمة، أمينة على بيتها وزوجها وولدها، لا تحسد ولا تغل، لا تكره ولا تذم أو تنم، لا تتبرج سافرة ولا تتذمر ناقمة

ما قولكم في الفتى البار بوالديه، الورع في دينه، المستقيم في خلقه، الغاض لبصره، الذي يعُرض عن لغو الحديث وأصدقاء السوء ويتجنب محارم الله، يكف عن الأذى ويدرأ السيئة بالحسنة ويتعاون على البر والتقوى، لا يتفاخر ولا يمن، لا يستكبر ولا يضل، ولا يغوي صديق ولا يهمل شقيق، يحب في الله ويكره في الله، ويكون ممن يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله.

ما قولكم في فتاة تخفت الصوت في أدب، تمشي على استحياء ساترة، تسكن في خدرها ناعمة، طاهرة القلب ندية، راشدة العقل ذكية، طيبة النفس عزيزة أبية.

ما قولكم في التاجر الأمين، الموفي بالعهد الحافظ للودّ، الذي لا يأكل أموال الناس بالباطل، لا يكذب ولا يضل، سمح إذا باع وإذا اشترى، لين إذا قضى وإذا اقتضى، لا يُرابي ولا يغش، لا يحتكر بضاعة ولا يضيم جماعة، ولا يرد سائلاً ولا يذل فقيراً، ويؤدي زكاة ماله.

ما قولكم في الصانع الماهر في حرفته المتقن لعمله، المكد في سعيه، الصادق في وعده الشاكر لربه، الذي لا يخون ولا يسرق،ولا يفسد ولا يمحق، ويرعى حدود الله.

ما قولكم في الجندي الشجاع، الثابت على الحق ويوم الزحف، الذي يذود عن وطنه وعرضه في فداء وتضحية، يحمي الحمى ويدفع البلاء، يرفع الراية بجسارة ولا يهاب الموت في بسالة، ويكون العين التي باتت تحرص في سبيل الله.

تلك يا أبنائي بعض المثل والقيم النبيلة، فما رأيكم إذا سادت في مجتمع أو غلبت عليه، وإذا تعامل أفراد هذا المجتمع في إطار هذه القيم وتلك المبادئ.

عندها تستقر الأمور في مجتمع لا أحقاد فيه ولا أطماع، لا فُرقة ولا شحناء ويسوده الأمن والأمان وتنتشر الألفة والوئام، ويعيش المجتمع في سلام.

يا أبنائي إنها شريعة الله التي سنها لخلقه أولي الألباب وأوصى بها رسله أولي العزم، هذه الخصال تقوي المجتمع وتسمو به، فيهابه الطامع ويخشاه المعتدي ويتملقهُ الحاقد.

أما الإيثار فهو أحد فضائل السخاء، كالكرم والنجدة والنبل والمواساة والسماحة، وجميعها تحتاج إلى مجاهدة النفس، فأنت عندما تجود بما تملك لإرضاء فقير أو إطعام مسكين، تكون قد جاهدت غريزة حب المال، وعندما تكفل يتيماً تكون قد انتصرت على غريزة حب الأبناء وعندما تقدم مصلحة المجتمع على مصلحتك فيكون الفداء والتضحية والتطوع، وتكون قد تغلّبت على حب النفس وتخلصت من الأنانية.

الإيثار يا أبنائي أعلى مراتب الإيمان بالله والثقة في وعده بأنك ستنال الخير العظيم في الدنيا والآخرة.

طُرِق باب الفصل وكان الطارق الأستاذ إبراهيم.

لقد سمعت بعض حديثك ولولا ضيق الوقت لجلست بين التلاميذ، ننهل من نهرك الريان الذي يفيض بخيره على من حوله في جود وكرم وإيثار، لأن ميعاد الحصة قد انتهى منذ فترة وقد حان موعد انصراف سيارة المدرسة.

محمد المعلم لا يتحدث من فراغ ، فنحن نراه قدوة في التمسك بالمثل العليا والقيم النبيلة والتي يحاول أن يغرسها فينا دون كلل أو ملل ليجعل من هيئتنا وخصالنا، مثالا للمسلم الحق والمواطن الصالح الذي يحمي دينه وعقيدته ووطنه دون مغالاة أو تعصب، تعلمت منه ما هي واجبات المسلم نحو دينه ووطنه ونفسه.

النفس أمارة بالسوء، كما قال لنا الأستاذ محمد، واللهو أحد غوايات الشيطان لإبعاد الإنسان عن ذكر الله، ولكن الأستاذة سعاد مدرسة الموسيقى إنسانة رقيقة المشاعر، جعلت الموسيقى فنا راقيا غير لاهٍ، علمتنا أن الموسيقى من أقدم وسائل التعبير عن النفس وما يجيش بها، هناك من يستخدم الموسيقى في الحفلات الماجنة ولكن مدرسة الموسيقى جعلتنا نستمتع بالموسيقى دون ابتذال وأظهرت بعض

المواهب في الغناء والعزف وكونت فرقة موسيقية اشتركت في الحفلات الترفيهية والأعياد الاجتماعية والاحتفالات والمناسبات القومية لإشاعة البهجة والسرور وشحذ الهمم بالأناشيد الوطنية والدينية.

عالم المعرفة وطريق التقدم والمدنية والتطور الحضاري، لا يمكن أن يكون له أساس إن لم يكن علم الرياضيات أحد قوائمهُ الأساسية، ذلك العلم الذي عرفه المصريون، فبرعوا في الهندسة والفلك وبنوا الأهرامات وأقاموا المعابد، ونصبوا المسلات ووضعوا أسس التقويم الزمني.

هذا هوالأستاذ/ شهدي مدرس الرياضيات يحب عمله ويتقنه، أسلوبه في الشرح سهل وبسيط يقدم حلولاً عديدة لمثال واحد، ويجيب على السؤال بسؤال يدفع إلى التفكير والاستنباط والتطبيق، حتى يعتمد الطالب على قدراته في إيجاد الحل المناسب، جميع الطلاب ينتظرون اختبار الشهر للدخول في تنافس شريف والحصول على الهدايا الرمزية التي يقدمها الأستاذ للجميع حسب درجات كل اختبار...

الشرق مهد الحضارة وله عظيم الأثر في مسيرة العلم وتطور العلوم، تلك رؤية الأستاذ/ سمير مدرس العلوم ، فيه من صفات الأستاذ يحيى الكثير، إلا أنه دقيق الملاحظة بطيء الحركة قليل الكلام(تغلف عينيه نظارة طبية)، جعلنا نعيش عصر التكنولوجيا والفضاء والأقمار الصناعية.

في أولى الحصص أوضح لنا أن التطور العلمي سريع وتزداد سرعته بمرور الأيام واللحاق به يتطلب جهدا عظيما وعملا متصلاً، وفي القرن الواحد والعشرين لابد أن نكون تحت مظلة العلم والعلماء، ويجب توسيع قواعد البيانات والاهتمام بالبحث العلمي والأخذ بأسباب التقدم في مجال التكنولوجيا الحديثة.

دخل الأستاذ سمير الفصل وألقى التحية، كان الدرس عن تطور الآلة؟

هل قرأ أحدكم الدرس؟

ارتفعت أياد كثيرة "تفضل يا وليد" ماذا تعرف عن تطور الآلة؟

لقد عاش الإنسان عصوراً طويلة يستخدم الموارد الطبيعية في الغذاء والكساء

دون أن يدخل عليها أي تعديل أو تطوير وهي المرحلة التي عرفت "بالجمع والالتقاط" فقد كان يجمع جذور النباتات، ويلتقط ثمار الأشجار، وعندما عرف النار وتحول إلى القنص والصيد، بدأ في استخدام بعض الآلات البسيطة التي تعينه وتحميه، وبمرور الوقت احترف الزراعة، وعندما استقر على ضفاف الأنهار، بدأ البحث عن مصادر أخرى للطاقة بعد أن ظل معتمدا على قدرته الذاتية ، ذلك لتوفير الجهد والوقت، وكان للمصري القديم السبق باستخدام المحراث والشادوف والساقية في الزراعة، وعرف الرصافة والرافعة والعجلة التي استخدمها في نقل الأحجار والتماثيل وبناء المعابد والأهرامات، وعرف الكيمياء فاستخدم المواد الطبيعية والأعشاب في الرسم والتحنيط والنقش على جدران المعابد وتلوين هذه النقوش والكتابة على ورق البردي فسطروا لنا التاريخ.

أحسنت يا وليد.

وهذا ما كنت أعنيه عندما قلت أن الشرق مهد الحضارات، فما قاله زميلكم وليد هو بداية المدنية والتطور وبإضافة القيم الاجتماعية والأعراف والتقاليد تكون الحضارة.

استأذن أيمن .. تفضل

حضرتك تقول إن الشرق مهد الحضارات والأستاذ عبد الله قال ذلك أيضا، ووصلت الحضارة المصرية إلى القمة وكذلك بعض الحضارات الأخرى مثل الحضارة الفينيقية والبابلية في الشرق وانتقلت هذه الحضارة إلى الغرب فظهرت الحضارة الإغريقية والرومانية ثم انتقلت الحضارة مرة أخرى إلى الشرق بظهور الإسلام ووصلت إلى القمة، هذا بخلاف حضارات شرق أسيا وجنوب أمريكا. التي لا نعرف عنها شيئا؛ المهم أننا الآن نرى الحضارة الغربية فوق القمة والمخترعات تتدفق فيها ومنها، والتقدم التكنولوجي يسير بسرعة الصاروخ. فهل هذا تكامل للحضارات أم أن كل حضارة منفصلة عن الأخرى؟

أولا: علينا أن نحييك على هذا السؤال، لأنك حاولت ربط المواد الدراسية بعضها البعض، وهذا في ذاته جزء من الإجابة على سؤالك.

ثانيا: عليك أن تعرف أن الفكر لا يعمل من فراغ، ودائما ينشط مستجيبا لحاجات الإنسان الأساسية.

ثالثا: أثبتت التجارب العلمية أن الطاقة لا تأتي من العدم، وإنما هي كامنة تنتظر من يستخدمها، وعلى سبيل المثال لا الحصر، نحن لا نرى المجال المغناطيسي رغم وجوده، ولا نرى الذرة وقدرتها الهائلة، وقد أمكن استغلال المجال المغناطيسي والتحكم في قدرات الذرة واستخدامها في توليد الطاقة وتلك هي المعرفة.

رابعا: إذا انطلقت هذه المعارف فإنها لا تنحصر في حدود مكانية، تطير كالسحب تنتقل من سماء إلى أخرى، وكالماء ينساب من أرض إلى أرض، الأمر بعد ذلك يرجع إلى الإنسان الذي يمثل التربة المستقبلة لهذا الخير.

خامسا: الحضارة الإنسانية نسيج واحد لأمم مختلفة والعلم ليس له موطن، والعقل البشري ليس له حدود استيعابية وكلما وجدت فكرة علمية جاء من يطورها، وكلما تم اختراع جاء من يضيف إليه.

قال واصف :

للأسف يا أستاذ..فإنه رغم ما تشهده مصر من تقدم في جميع المجالات،السيارات التي تزدحم بها الشوارع وناطحات السحاب والكباري والجسور ومترو الأنفاق ، والكثير من مظاهر الرقي والتحضر، وكذا التقدم الهائل في كل الدول العربية والإسلامية، إلا أن الفكرة السائدة في المجتمعات الغربية أن العرب والمسلمين يعيشون في الصحراء، يرعون الأغنام ويبيتون في الخيام ويتنقلون بالحمير والبغال ويمتطون النوق والجمال.

هذا ما قاله لي ابن عمي العائد من إحدى الدول الأوربية وأخبرتنا به خالتي التي تعيش في أمريكا. ولا يعرفون عن المسلم او العربي إلا أنه إنسان همجي متخلف وإرهابي، ألا يعتبر هذا تقصيرا منا ونقطة ضعف للشرق فيما يسمى صراع الحضارات؟؟

توجه الأستاذ نحو واصف

أولا..دعنا من الصراع..وليكن حوار الحضارات

ثانيا..نعم الصورة التي انطبعت في ذهن الإنسان في الغرب عن الشرقي كما وصفتها تماما.. هذا في الماضي إلا أنه في الآونة الأخيرة، ومع زيادة حركة السياحة تجاه الشرق الأوسط وقيام المهرجانات العالمية والمؤتمرات الدولية، وهذا الكم الكبير من المحطات الفضائية، والمنتديات العلمية والوفود الثقافية ..كل ذلك أدى إلى تغير صورة الشرقي إلا أنه هناك قوى عدائية داخلية وخارجية تسعى جاهدة لترسيخ صورة مشوشة وغير حقيقية عن شعوب الشرق الأوسط وعن الدين الإسلامي وعلاقة المسلمين والأقباط لزعزعة الأمن والاستقرار.

لذا فهم يتحدثون عن صراع الحضارات ونحن نتحدث عن حوار الحضارات، وكما قال الأستاذ محمد لقد خلقنا الله شعوبا وقبائل لنتلاقى ونتعارف ونتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، وهنا يتضح أن لكل منا دورا، بأن يكون نموذجا للرجل الكريم والمرأة الصالحة والتاجر الأمين والشاب الورع والفتاة النقية والطفل المطيع ،وهناك دور مهم لكل مثقف وحامل قلم ومفكر أينما كان موقعه، وكل معلم ومعلمة ،وراعي الكنيسة وشيخ المسجد.علينا أن نمسك بتلابيب العلم ونعمل العقل كما أراد الله له أن يكون..

ووجدتني أقوم لأسأل؟؟

إذا كان العلم ليس له موطن والعقل البشري ليس له حدود، فأين علومنا الآن وأين المفكرون والمثقفون ورجال الدين، لإظهارحقيقة المجتمعات الشرقية وتحضرها، والذين يقع على عاتقهم النهوض بالمجتمع لنصل إلى إحدى القمم، ونكون قادرين على الصمود أمام الفتن.

يا أبنائي: إذا تحرر الإنسان وصلح إيمانه ،استقر وجدانه ونشط عقله وانطلقت ملكاته لتلبية احتياجاته فيحلم ويتخيل، يؤلف ويبدع، يصنع ويفكر، ثم يطور إبداعاته وتكون له قمته ويصبح نموذجا للإنسان المتحضر.

(جرس الحصة يعلن انتهائها.)

مصر الحضارة.. أين قمتنا وكيف نصل إليها؟ هذا هو السؤال الذي خرجت به من هذه الحصة؟



مصر التاريخ وطوق النجاة

أين قمتنا وكيف نصل اليها؟ كعادتي دونت هذا السؤال في مفكرتي الصغيرة الت أكتب فيها ما يخطر بذهني حتى لا أنساه، سؤالاً كان أو معلومةً جديدة، هذه الفكرة أخذتها من والدتي، فقد كانت تدون كل شيء تريده قبل أن تذهب إلى السوق، المهم لمن أوجه هذا السؤال؟ وهل أنتظر ميعاد الحصة القادمة؟؟ تذكرت (اليوم الخميس)، والأسرة في يوم الجمعة من كل أسبوع تجتمع في بيت جدي، نصلي في الجامع الأزهر ثم تلتقي العائلة على مائدة الغداء وبعدها يدور الحديث بين الكبار، ويعلو الصخب بين الصغار، عمي محمود أستاذ في الجامعة ويمكن أن يجيبني على هذا السؤال.

منزل جدي كبير ويقع في منطقة من أعرق مناطق القاهرة القديمة (حي الجمالية)، يختلف هذا الحي عن الحي الذي نسكن فيه على أطراف المدينة، الشوارع ضيقة والحارات مكتظة بالسكان، ولكن البيوت رحبة يتوسطها حوش كبير، الحجرات منفصلة واسعة ،في هذا البيت أشعر بالراحة، أنا وأبناء عمي نجري دون خوف ونلعب دون وجل، نصعد إلى سطح البيت نعبث في عشة الفراخ ونداعب الحمام، هذا هو السبب الذي يجعل جدي لا يطيق البقاء معنا في بيتنا مدة طويلة وأسمعه يردد، لماذا أعيش وسط غابات الأسمنت وفي علب الصفيح؟! ويعود مسرعا إلى منزله.

جلس أعمامي الثلاثة مع والدي وجدي، يتناولون الشاي بعد الغذاء، وأبناء عمومتي ـ أولاد وبنات ـ في مراحل مختلفة من التعليم الثانوي والجامعى ومنهم من انتهى من دراسته يجلسون معا، ونحن الصغار منتشرون في أنحاء المنزل،

والنساء ومعهن والدتي يقمن بنظافة ما بعد الوليمة.

تسللت نحو الغرفة الكبيرة أبحث عن عمي محمود

دخلت إليهم مستئذنا، اقتربت من عمي وناولته ورقة صغيرة

قال جدي: ماذا تريد يا أحمد؟

قال عمي: إنه يسأل أين قمتنا الحضارية؟

قال جدي: تعالى يا أحمد. أي قمة تعني؟

يا جدي لدي معلومات كثيرة ولكنها غير مرتبة، الحضارة الفرعونية متداخلة مع بعض الحضارات الأخرى مثل الفينيقية والبابلية والبيزنطية وغيرها، والحضارة الإسلامية مختلطة مع الحضارة الأوروبية، وأمريكا التي لا يزيد عمرها عن مائتي عام أراها متربعة على قمة الدول المتقدمة، واليابان خرجت من الحرب العالمية الثانية وقد دمرت ولكنها الآن ذات قوه اقتصادية عظيمة ومثلها ألمانيا وها نحن نسمع عن الصين المارد الأصفر الذي يغزو العالم بمنتجاته، وكثير من الدول في آسيا (النمور الأسياوية) وأوروبا، أين نحن؟ وأنتم تقولون إن الحضارة المصرية ضاربة في أعماق التاريخ ومواردنا الطبيعية والبشرية تؤهلنا لأن نتبوء إحدى هذه القمم؟!! نظر جدي إلى أعمامي وأحفاده فوجدهم يتجهون نحوي ببصرهم، قربني إليه برفق.

قلت.. هل أخطأت يا جدي؟

قال لا.

قلت.. هل تخطيت حدود اللياقة والأدب في حديثي؟

قال.. لا.. ولكن من أين أتت إليك هذه الفكرة وكيف استجمعت هذا السؤال؟

قلت: إنها الرغبة في المعرفة والغيرة على وطني الذي أتمنى أن يكون على قمة العالم أجمع..

ضمني إلى صدره ضمة شديدة ونظر إلى والدي نظرة امتنان وقال لعمي

محمود، عليك أن تجمع جميع الأولاد والأحفاد وكل من بالبيت، ولتكن أمسية طيبة نسترجع فيها بعضًا من تاريخ مصر، قد نصل إلى إجابة لهذا السؤال الشاق.

حضر الجميع إلى الغرفة الكبيرة بين مهلل مستبشر وقاضب متذمر، وجلس الجميع ساكنا، جال جدي ببصره في الوجوه، وكأنه يسترجع ماضيَهُ ويرى حاضرَهُ ويستبصر المستقبل، ثم قال: أعرف أنكم تجلسون بين راض ومضطر خاصةً الصغار، ولكني أتمنى أن تنصتوا جيدا وتشاركوا في الحديث، تناقشوا في هدوء وتفكروا بجد.

هناك سؤال من فتى صغير وهو أحمد، وكما تعلمون فإن السؤال باب الاجتهاد وسبيل المعرفة، وأنا رغم كبر سني وكثرة خبرتي، لم أتمكن من استجماع هذا السؤال.. أشعر أنه داخلي ولا يفارقني، أراه في الطائرة ومَن صنعها والكهرباء ومَن ساسها، القطار ومن سيره والفضاء ومن غزاه والبحار ومن جابها، وكان السؤال الذي لم أسأله من قبل.. أين نحن من هذه القمم التكنولوجية والتقدم العلمي الذي تنظرون إليه ذاهلين؟؟ ولكنه جاء على لسان حفيدي أحمد، سؤال يوخز الضمير وينبه العقل ويلهب المشاعر وعلى رأي أحمد يثير الغيرة، لذا يجب طرح هذا السؤال للمناقشة بين الجميع ولحسن الحظ فإن أعمارنا متفاوته وثقافتنا متباينة وكل واحد له مجال عمل ، لذلك ستكون آراؤنا مختلفة، لكننا سنحاول الوصول إلى رؤية مستقبلية محدودة لهذا الوطن الحبيب والأن من أين نبدأ؟

قال عمي سيد: نبدأ من حيث انتهى الآخرون،... فكرة جيدة.

قال عمي صالح: نحن نفعل ذلك الآن، حيث إننا نشتري المعدات والأجهزة

قال والدي: ليس هذا هو المقصود وإنما نعني لماذا لا يتم تصنيع هذه الأجهزة في بلدنا، نعم تقوم بعض الشركات بتجميع الأجهزة والسيارات في مصر وبعض الأقطار العربية ولكن..

قال عمي محمود: التصنيع من حيث الإنتاج ذو شقين، تصنيع من أجل الاستهلاك المحلي وتصنيع من أجل التصدير، وبين الاثنين مشوار طويل وإمكانات

هائلة وأبحاث ودراسات، وللأسف فإن أي محاولة جادة لبدء هذا المشوار في ظل الإمكانات المتاحة تجد الأبواب موصدة، وتضل الأبحاث والدراسات طريقها فإما أن تقبع حبيسة الأدراج أو ترص على الأرفف وليمة للفئران.!!

قال ابن عمي تامر: وهو في الصف الثاني الإعدادي، درسنا هذا العام، التكامل بين الدول العربية وكيف أن هذا التكامل ضرورة قومية، الإمكانات متاحة والموارد متوفرة، ونسمع عن السوق العربية المشتركة، وإن إقامتها ضرورة ملحة في ظل التكتلات الاقتصادية، ولكنها كلها آمال محبطة وجهود مشتتة فتذهب أدراج الرياح.!!

قال عزت ابن عمي: وهو خريج إحدى الكليات لا أعرفها.

من صار على الدرب وصل ومشوار الألف ميل يبدأ بخطوة ويجب ألا تحبط أمالنا وها نحن نرى بعض الجهود غير مشتتة. هناك منظمات إقليمية في أفريقيا،(مصر عضو بها) وأيضا توجد اتفاقات ثنائية بين مصر والعديد من الدول العربية وغير العربية لإقامة مناطق تجارة حرة فيما بينها، كل ذلك لفتح أسواق لمنتجاتنا الأمر الذي يؤدي إلى توفر رأس المال وتشغيل اليد العاملة، وهذا بدوره يعمل على إحداث طفرة في الإنتاج، وبهذا الأسلوب المتدرج يمكن أن نقيم صناعات متكاملة.

طلبت من جدي الحديث:

لقد قال لنا الأستاذ إن مصر بها من الموارد ما يجعلها في غير حاجة لمصادر خارجية أو موارد، ولدينا من أسباب التقدم الكثير فما سبب تعطل مسيرتنا وتأخرنا عن ركب الحضارة وضياع قمتنا رغم تراثنا الحضاري وكما تقولون نملك ناصية التاريخ.

التاريخ يا أبنائي أحقاب متعاقبة وحضارات متتابعة، بعضها مدفون لا نعرف عنه شيئا، وبعضه على جدران الكهوف، نقوش ورموز مبهمة، ومنه على شكل آنية فخارية مجهولة العهد والصانع، وأكثره عبارة عن معبد أو هرم أو تمثال، التاريخ بعضه منقول والآخر مكتوب، منه ما هو موثق كتاريخنا وأكثره مغلوط.

مصر بها كل هذا التاريخ وبكل أنواعه، إنها كالبركان الذي انصهرت فيه كل العصور واختلطت فيه كل العناصر، وتفجرت داخله كل الطاقات، إذا تجمعت هذه الطاقات وأُحسن استغلالها، لفاقت كل الحدود والتوقعات، إن قمتك يا أحمد فوق بركان غير عشوائي أومتقلب، لا يعرف سره إلا الله والراسخون في العلم. نظر عمي محمود إلى جدي وكأنه يراه ويسمعه لأول مرة.

من أين أتيت بهذا التشبيه يا والدي؟

قال: قد أكون مخطئاً يا ولدي، فإن الزمان علمني أنه لا توجد حقيقة مطلقة إلا وحدانية الله والموت والبعث، وفيما عدا ذلك فكل شيء يخضع للتفسير والتأويل والخطأ والصواب.

المهم حتى لا نخرج عن الموضوع، ما رأيك يا أسامة؟

إنه أكبر أبناء عمومتي، كاتب صحفي وله اهتمامات تاريخية وعلمية.

فقال: إذا أردنا أن نتكلم عن مصر وقمتها الحضارية وأسباب تأخرها، فيجب أن ندرس تاريخ مصر ونفتح صفحاته لأنها أسباب خارجية في أغلبها، وقيود فُرضت عليها ومازالت، رغم المحاولات المبذولة للتخلص من هذه القيود كما قال عزت، وحتى تعرف الأجيال مواطن الضعف والقوة وأساليب الاستعمار للهيمنة، لقد سرقوا خيراتنا ونهبوا كنوزنا، ويريدون أن يسرقوا تاريخنا، وإذا سرق هذا التاريخ أو تم تشويهه لن يتبقى لنا أساس أو قاعدة نبني عليها حضارتنا القادمة إن شاء الله. وهذا ما يدفعني لأن أُولي التاريخ عناية زائدة.

قال عمي سعيد: وهل تعتقد يا أسامة أن يكون لهذا الكلام الذي تقوله علاقة بالبعثات المتلاحقة منذ مئات السنين والتي تأتي إلى مصر بدعوى البحث عن الآثار والتنقيب عنها في كل ربوع مصر.

كل شعب له سمات تميزه عن باقي الشعوب الأخرى، فإذا كانت سمة الشعب المصري هي الاستقرار والارتباط بالأرض؟ فإن من سمات الشعب الأوروبي حب المغامرة وارتياد المجهول، وبطبيعته المادية تمكن من توظيف حبه للمغامرة للكسب المادي ونهب الثروات، كما فعل في أمريكا وأباد سكانها الأصليين واستولى على

أراضيهم وخيراتها وكما فعل في أفريقيا وسخر أبناءها في إقامة حضاراتهم الحالية، ومازال يستغل آبار البترول والمناجم في استخراج الماس وغيره من المعادن الثمينة، وكما فعل في الهند ومصر والشام ودول الخليج وبلاد المغرب إنه تاريخ ملطخ بالعار والدماء.

لنعود لتقليب صفحات التاريخ المصري الذي يهمنا الآن ولا نقلب صفحات تاريخ العالم رغم أننا جزء مهم فيه، وحتى يعرف أبناؤنا تاريخ مصر فعليهم أن يعرفوا أولا أنه رغم فك رموز اللغة الهيروغليفية إلا أن امتداد الفترة الزمنية للحضارة الفرعونية أثار جدلا كبيرا في الأوساط العلمية، فمنهم من يؤرخ لمصر منذ عصر مينا، قبل ميلاد المسيح عليه السلام بثلاثة آلاف عام، ومنهم من يقول إن الحضارة التي كانت قوية في تلك الآونة لابد أن يكون أمدها أطول على الأقل بألفي عام، ومنهم من يرى أن انتشار هذه الحضارة في مساحة تمتد من رفح في أقصى الشمال الشرقي لسيناء إلى بلاد النوبة وبطول البلاد وعرضها يزيدها غموضا ويجعل من العسير تحديد معالمها ومعرفة خباياها، ويكفي أنه حتى الأن لم يعرف سر التحنيط عند المصريين رغم ما وصلوا إليه من علوم في الطب، ولم يجزم أحد على وجه اليقين كيف بنيت الأهرامات وسر الهندسة المعمارية والفلكية لبعض المعابد مثل معبد الكرنك، ويقف العالم مبهورا أمام ضخامة التماثيل وروعة المسلات. وأمام هذا الكم الضخم والمعجز من الأسرار ونتيجة عجزهم عن تفسيرها قال بعضهم إنها ليست أعمال بشر.!! وتارة ينسبون صنعها إلى تسخير بني إسرائيل في بنائها.

قال عمي سعيد: تلك مغالطات تاريخية، ففي أوج ازدهار الحضارة الإغريقية، كان الصراع بينها وبين الفرس على زعامة العالم وكانت مصر تحت الاحتلال الفارسي، جاء إلى مصر هيرودت أبو التاريخ في الغرب، وتجول في أنحائها مبهورا بحضارتها، يومها قال:" إن مصر هبة النيل"، وكتب الكثير عن مصر ورسم نقلا عن كهنة هليوبوليس شجرة الأسر التي حكمت مصر بعد (مينا)، ولكل أسرة أثر شاهد على فترة حكمها ضعيفة كانت أم قوية وتعد بالمئات، فلماذا إذن يحاولون تزوير التاريخ وتشويه هذه الحضارة العظيمة.

قال جدي: نحن لسنا أهل اختصاص وكل ما نتكلم به ما هي إلا معلومات متواردة أو منقولة.

قال أسامة: لا يا جدي.. توجد أحقاب وأزمنة وحضارات موثقة تاريخيا وإن شابها بعض الأخطاء، بقصد التمويه على بعض الأمم أو الإقلال من شأنها وعدم إبراز دورها التاريخي في تطور الحضارة الإنسانية، كالحضارة الفرعونية والحضارة الإسلامية وحضارة جنوب شرق أسيا.

قال جدي: لقد أصبح للتاريخ وجهان وجه جلي كالشمس يبهر ضوؤه العيون فلا تقوى على النظر إليه، ووجه مموه كزحل يجعل الإنسان حائرا في تحديد ملامحه. وحتى لا نحتار وننظر للتاريخ على أنه زحل، دعونا نقترب قليلا.

ما رأي أبنائنا الصغار؟ الحديث يهمهم ويجب أن يكون في مستوى تفكيرهم وقدرتهم على الاستيعاب.

اقتربنا من بعضنا نحن الصغار نتشاور في الأمر، واتفقنا أن يتحدث حاتم وهو في الصف الثالث الإعدادي عن اختيارنا.

قال حاتم: درسنا في المرحلة الإعدادية الحضارة الفرعونية وكيف استقرت في وادي النيل والدلتا وامتدت هذه الحضارة فترة لم ندرسها، ودرسنا الحضارة الهلينستية في العصر البطلمي بعد أن عرفنا نبذة عن الإسكندر الأكبر، ثم الرومان ودخول المسيحية مصر، ثم الحضارة الإسلامية وامتدادها شرقاً وغربا والدول المتتابعة حتى العصر المملوكي ثم الدولة العثمانية وهكذا حتى العصر الحديث، وبما أننا لسنا أهل اختصاص، فيمكن أن نبدء من العصر البطلمي.

بداية الاستعمار..

قال جدي: أنت يا محمود أكثرنا دراية بالتاريخ بحكم عملك وثقافتك، رغم علمنا بأنك لست مختصا.

حسنا يا والدي وحقا ما تقول، ولكن لنعود قبل العصر البطلمي بقليل، لأنها حقبه هامة من تاريخ مصر، لنأخذ منها العبرة والعظة.

كانت مصر في القرن السادس قبل الميلاد، واقعة تحت الاحتلال الفارسي، ولكنها ظلت محتفظة بمكانتها العلمية والثقافية مما دفع الفلاسفة الإغريق لزيارتها، مثل فيثاغورث وأفلاطون وهيردوت وغيرهم ممن هاموا عشقا فيها، وسحرتهم آثارها واجتذبتهم مكتبة الإسكندرية بها.

لقد عرف فلاسفة وحكماء اليونان أن مصر هي المهد الأول للأسرار الكهنوتية ومبعث الثقافة والعلوم، وسعى الإغريق للتبادل الحضاري مع مصر، وغزت عبادة آمون أوروبا وشيدوا له المعبد الكبير في آثينا عام ٣٢٣ ق.م، وحاول الإغريق مزج الحضارة المصرية القديمة بالحضارة الإغريقية الوليدة وأسسوا مستعمرة تجارية على النيل باسم "نقراطيس" سيدة البحار، واشترك الجنود المرتزقة من الإغريقيين مع مصر ضد الفرس، وكانوا من قبل قد اشتركوا مع الفرس ضد مصر لأسباب لا نعرفها وإن كانت جلية.

كنا قد بدأنا حديثنا ونحن عازمون على قضاء أمسية لطيفة نتحدث فيها عن مصر، ولكني أجدها فرصة عظيمة ليعرف أبناؤنا وأحفادنا ونتنبه جميعا وندرك أن كل استعمار مهما كان شكله، واختلفت دوافعه أو مسالكه فإن له مقدمات.

لقد حاول الإغريق التقرب من الشعب المصري، وشجع ملوك الدولة الصادية في مصر هذا التقارب وعملوا على تنامي هذه العلاقة فيما يسمى بالتآخي بين المدن، "كما يحدث الآن" وأصبحت مصر منذ القرن السابع قبل الميلاد، وطنا مفتوحا أمام التجار الإغريق الذين تدفقوا على مصر لاستثمار أموالهم، واستغلال موقع مصر الجغرافي كطريق للقوافل بين الشرق والغرب، ازدهرت تجارتهم وعلا شأنهم، وتدفق معهم الجنود المرتزقة الذين كان ولاؤهم لمن يدفع أكثر، وكانت خيانة الإغريق لمصر سببا في احتلال الفرس لها، مثلما خان ديلسبس الفرنسي أحمد عرابي وساعد الإنجليز على احتلال مصر، رغم ما كان بينهم من حروب طاحنة.

وعندما هم الإسكندر الأكبر - المقدوني - بإجتياح العالم وكان يأمل في توحيد الشرق الساحر بكنوزه، مع الغرب الناحر بجيوشه، وتكوين إمبراطورية

عظيمة، كانت مصر هي الهدف لتكون القاعدة الشرقية، وكما كانت راية نابليون التي رفعها وهي تخليص مصر من ظلم العثمانيين، وأعلن احترامه للدين الإسلامي بينما كانت جيوشة تدوس الأزهر الشريف بسنابك الخيل وتسرق المخطوطات الإسلامية، تنشر الموت والدمار في الأرض ومدافعه تدك أبا الهول، كانت راية الإسكندر الأكبر عندما أعلن أنه يحترم الديانة المصرية القديمة وأنه جاء يخلص مصر من ظلم الفرس المجوس، فخلعوا عليه لقب" ابن أمون "

الأزمان متباعدة ولكن الأحداث متشابهة، التاريخ يعيد نفسه وإن تغيرت ملامحه واختلفت أساليبه، ودخل الإسكندر مصر عام ٣٣٢ ق.م.

ساد الجميع الصمت وكأننا أمام شاشة عرض، نسمع طبول الحرب وصليل السيوف وحوافر الخيل وصراخ الأطفال وعويل الأرامل، قلاع تهدم ومعابد تدمر وكنائس تخرب ومساجد تنتهك، ومرت أمامي صورة المسجد الأقصى وأطفال الحجارة ومقتل محمد الدرة وهدم بيوت الضفة وغزة والجدار الفاصل، وزوال أفغانستان وتفريغ الصومال ودمار العراق..

استرسل عمي في الحديث.

رحب المصريون بالإسكندر واعتبروه بطلا ومحررا، قام الإسكندر بوضع أساس مدينة الإسكندرية وقصد ببنائها أن تكون مستعمرة مقدونية ونواة لإمبراطوريته في الشرق ،التي لم يكتب لها أن تقام، فقد مات بالحمى، وتقول الروايات بأنه دفن بالإسكندرية قبل أن يتم بناؤها.

بعد وفاة الإسكندر انقسمت إمبراطوريته وأصبحت الإسكندرية عاصمة لإمبراطورية الشرق في عصر بطليموس، وكانت بداية حضارة البطالمة، وكما كان يحلم الإسكندر بمزج الحضارة الإغريقية الغربية بالحضارة الفرعونية الشرقية، حاول البطالمة إيجاد حضارة جديدة أطلق عليها الحضارة الهلينستية، ورغم ما تركته هذه الحضارة من آثار أُقيمت أثناء ازدهار الدولة البطلمية، إلا أن الشعب المصري ظل على حاله، بعاداته وتقاليده ومعتقداته وعلى أنقاض الحضارة الهيلنستية الغربية قامت الحضارة الرومانية، تلك الحضارة التي قامت على فكر

عسكري يتسم بالعنف والوحشية وبسطت نفوذها، وكانت مصر ضمن مناطق النفوذ، فوقعت تحت نير الاستعمار الروماني الذي اعتبرها سلة الخبز للإمبراطورية الجديدة، ومن الغريب أن تلاشت الحضارة الإغريقية وطمست الحضارة البطلمية وطويت الحضارة الرومانية، ولم يتبق منها إلا أطلال شاهدة على تلك الأحقاب الغابرة، ولكن المصري ظل مصريا ومصر هي مصر، سماؤها نقية، لم يتوقف نيلها عن العطاء ولم تبخل أرضها بالنماء.

بدت على ابنة عمتي الرغبة في السؤال.

قال جدي: ماذا تريدين يا ناهد ؟. أريد أن أعرف الفرق بين الدولة والإمبراطورية؟

نظر جدي إلينا.. هل بين الشباب أو البنات من يعرف إجابة هذا السؤال؟

تذكرت حديث الأستاذ عبد الله عن الحضارة الإمبراطورية وكيف أن مصر رغم أنها أقامت حضارة عظيمة ودولة قوية ولكنها لم تكن ذات يوم إمبراطورية، فهل هي منتسبة للفظ الإمبراطور أي حاكم، وكما نقول الحضارة الفرعونية نسبة إلى فرعون أي الملك في مصر القديمة، فيطلق اسم الإمبراطورية نسبة إلى الإمبراطور أي الحاكم في تلك العصور. لا أدري.. نسمع ماذا سيقولون؟؟.

تحفز ابن عمي (حسين) للإجابة وهو طالب في السنة النهائية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية.

الدولة .. كيان منظم وشعب تغلب عليه جنسية واحدة ولغة واحدة، تحكمه قوانين فاعلة ومن خلال دستور متفق عليه من غالبية الشعب، تجمعه آمال ومصالح مشتركة. ويتولى الحكم ملك أو أمير أو رئيس دولة ويدير شئونه مجلس الحكماء أو الشورى أو حكومة ووزراء، ويحمى حدودها جيش نظامي، وتعتبر مصر من أقدم الكيانات التي يطلق عليها اسم دولة في العالم.

أما الإمبراطورية فهي دولة تسعى إلى بسط نفوذها خارج حدودها الجغرافية، عن طريق الغزو العسكري، ومن أمثلة هذه الإمبراطوريات، بابل وآشور، والاثينى{الإغريقي والرومان} في العصور القديمة، وفي العصور الحديثة الإنجليزية

والفرنسية والهولندية والبرتغالية والروسية، وأحدث الإمبراطوريات (أمريكا)، وتعمد هذه الإمبراطوريات إلى إخضاع الشعوب المستعمرة راضين أو مكرهين لنظامها وقوانينها وتسخير مواردها الطبيعية والبشرية لخدمتها. هذه إجابة مختصرة.
قال جدي: هل لدى أحدكم تعليق على ما قاله حسين ؟

رغم ما عرفناه من معلومات لم تكن كلها جديدة إلا أنني كنت أشعر أن الجميع ينتظرون أن يكمل عمي محمود حديثه في مسلسل تاريخ مصر.

أكمل عمي محمود حديثه.

ما قاله حسين يؤيد ما نعرفه عن الإمبراطورية الرومانية التي حكمت نصف أوروبا وأجزاء كبيرة من الشرق بالحديد والنار قرونا عديدة، لقد تحول السلوك الروماني الذي يتسم بالعنف إلى قانون أهون ما يكون في روما، أعتى ما يمكن وأقسى خارجها، إلا أن العنف لايولد إلا العنف والقسوة ولا ينجم عنه إلا الكراهية، والسخرة ولا تنبت إلا حقدا، وبعد حين طال ام قصر دخلت الإمبراطورية الرومانية المثلث الحضاري؟! وعمتها الفوضى ودب فيها الانقسام والتناحر كما حدث للحضارة الإغريقية الهلينستية من قبل، فقامت ثورات الشعوب التي تتطلع إلى الحرية، واشتعل العالم شرقا وغربا، وطغت المادية الوثنية وزاد الظلم وعم الانحلال والفسوق، وكان ذلك تمهيداً لمولد المسيح عليه السلام رسولا للمحبة والطهارة والعفة.

قام ماجد وقال:

لكن السيد المسيح لاقى على يد الرومان واليهود صنوف العذاب والافتراء والقهر، حتى إن أمه العذراء مريم هربت به إلى مصر، ولم يتمكن برسالته من القضاء على الشر في المجتمع الإنساني.

كيف كانت تدعي روما أنها أم الديمقراطية في الحكم وهي تحكم مستعمراتها بالحديد والنار.. ألا تفعل أمريكا الآن ما كانت تفعله روما ،تدعي أنها قلعة الديمقراطية ورمز الحضارة والتقدم ،ونراها وقد اجتاحت أفغانستان ودمرت العراق، وباسم الحرية تنهب الثروات وتفتت البلاد وتقهر الشعوب وقبلها كانت

انجلترا تقوم بنفس الدور وتتبع نفس الأسلوب الأستعمارى.

قمت أنا متحدثا:

قال الأستاذ محمد.. إن الخير والشر من نواميس الكون، ولن يتم القضاء عليه حتى قيام الساعة وهذا دأب إبليس اللعين الذي يتربص بالإنسان، وما الرسل والأنبياء إلا مبشرون ومنذرون ومذكرون لأولي الألباب ومن يتغمدهم الله برحمته. وقال الله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أليس كذلك يا والدي.

قال جدي.. بارك الله فيك يا أحمد. نعم إن الرسالات السماوية منذ أبينا آدم إلى سيدنا محمد النبي الخاتم عليهما السلام، ما هي إلا تذكرة للعالمين ومنهج للمتقين وسراج للباحثين وحجة على الكافرين،والمؤمن القوي خير عند الله من المؤمن الضعيف.. أكمل يا محمود.

قامت الحضارة الفارسية على عبادة النار، والسلوك يستمد من العقيدة، فكان سلوكها مشين، قائم على العنف والإبادة، وأعقبتها الحضارة الهيلينية التي قامت على الأساطير الإغريقية وتعدد الآلهة، وغلبت عليها الفلسفة والنرجسية وتأليه الجسد، وخلفتها الحضارة الرومانية التي قامت على منطق القوة والغلبة والملذات الحسية والمادية وتأليه الحكام، وفي وسط هذا البحر المائج بهذه النزعات المادية، جاءت المسيحية بنزعة روحية، رسالتها نقاء الروح مما علقت بها من خصال نرجسية وكبر وخيلاء وعظمة الجاه والسلطان، وتخليص الجسد من الرق والعبودية والأنانية والحقد والغل والشحناء.

واجهت المسيحية في العصر الروماني اضطهاداً ووحشية وقتلاً وتعذيباً حتى سمي بداية عصرها في مصر عصر الشهداء. ولكنها إرادة الله الذي ينصر عباده المخلصين، تمكنت المسيحية من فرض قيمها الروحية التي كانت قد غابت عن المجتمع الغربي، المسيحية ولدت في الشرق ومهد الرسالة في بيت لحم بفلسطين، ولكنها تخطت الحدود وانتشرت في الغرب الذي كان في حاجة لمثل هذه القيم للتخلص من جبروت الحكام وتفشي الطغيان. وتحولت الإمبراطورية الرومانية الوثنية إلى الديانة المسيحية، وانقسم العالم المأهول إلى قوتين الروم المسيحية في

الغرب وبعض المستعمرات في الشرق الأوسط، والفارسية المجوسية في الشرق الآسيوي ونعض المستعمرات الأخرى.. ولم تكن هناك قوة تذكر لممالك جنوب شرق أسيا في ذلك الوقت، وظل الصراع قائما بين المعسكرين.

قالت ابنة عمي منى..

مع احترامي الشديد لكلام عمي واستمتاعنا بسماع هذه القصص التي تنتقل بنا من الشرق إلى الغرب. وبين الحرب والسلام، والعداوة والوئام. ولكن لا أجد لمصر دورا في هذا الزمان. إلا أنها كانت مستعمرة من الإغريق تارة وتحت الاحتلال الفارسي تارة أخرى وها هي ضمن مستعمرات الرومان، وهل هذا التاريخ نعتز به أم نخجل منه.

قفز إلى ذهني السؤال "من هو القوي" والذي أجاب عنه الشيخ "سيد" وانتظرت حتى أسمع ما سيقوله عمي محمود.

قال عمي محمود.

يا منى انظري حولك. من أكبرنا سنا؟

جدي هو الأكبر..

من أقلنا جهدا وعافية.

خفضت من صوتها ورأسها وقالت جدي.

من أكثرنا خبرة بالحياة.

قالت جدي.

إلى من تلجئين إذا احتار عقلك وقلت حيلتك واختلطت عليك الأمور.

قالت أفزع لذلك المستكين في داره، ليحيطني بجناحيه ويسمعني بعقله ويسعني بعينه ويثلج صدري برأيه ويعينني بعطفه ويحميني رغم ضعفه.

نظر إليها جدي نظرة رضا ومحبة وكأنه احتضنها بقلبه.

قال عمي محمود.

هذه هي مصر.. الأم عند الولادة والفطام والأب عند الشدة وطلب الحماية والجد عند المشورة والوقاية. وهذا هو قدرها بين الأمم وعلى مر العصور، وقولي كما قال عرابي في وجه الطغيان " لقد خلقنا الله أحراراً" وكما قال.. مصطفى كامل في وجه الاستعمار "لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا " وقولي كما قال.. المسيح عليه السلام بورك شعب مصر، وقولي كما قال.. رسولنا الكريم نحن خير أجناد الأرض، إننا شعب لن يموت وإن تكالبت عليه كل الأمم، كما قلت.. كم من أمم أبيدت واندثرت وصارت ذكرى ونذير شؤم ومبعث الألم والحزن، وأنت يا بنيتي عليك أن تفتخري لأنك لم تكوني يوما سببا في وأد طفل أو تشريد شعب أو دمار أمة، لم يكن أهلك يوما تجار رقيق أو سماسرة في سوق النخاسة أو مرتزقة، لنا جميعا أن نفتخر بمصريتنا وإن جارت عليها الأمم لفترات زمنية طويلة.

تغيرت بعض المفاهيم لدينا وسمعنا بعض المصطلحات الجديدة لم نفهم بعضها مثل سوق النخاسة وتجارة الرقيق ولكننا أصبحنا نزداد تشوقا لاستكمال الحديث.

دارت الصحاف بين الكبار بالشاي والقهوة والزنجبيل والفاكهة وتناول الصغار الحلوى والفاكهة وبعض المشروبات المرطبة، واستأنف عمي حديثه.

بعد أن انتشرت المسيحية في الغرب وبعض أقطار الشرق، مرت فترة من الزمان أحداثها ليست هامة على المستوى العالمي إلا أن قوى الشر التي لم تهدأ، أطلت برأسها من جديد، وسرعان ما شب الصراع في الغرب بعد أن تحولت المسيحية السمحاء إلى كهنوت ودار الصراع بين الكنيسة والعلمانية المادية، وطُردَ العلماء بتهمة الزندقة والسحر ونصبت محاكم التفتيش، وأُقيمتِ المحارق وصُلب الحكماء، وتوقف الاجتهاد وطُمست المعرفة، وعمتْ الفوضى واندلعت الحروب، واحتكم الجميع لصليل السيوف وأسنة الرماح، وطُربوا لأنين الجراح ونعيق البوم ونواح الأرامل وصراخ الأطفال.!! وعاشت أوروبا في ظلام الجهل والضلالة وترنحت تحت وطأة والأمراض والأوبئة، وسادها الانحلال والإباحية والمجون. وتدهورت اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ودينيا.

هذا التاريخ هم كاتبوه ومسطروه وحافظوه فيما يعرف بحقبة العصور المظلمة في التاريخ الأوربي "العصور الوسطى"، في تلك الآونة كانت الجزيرة العربية هي الأخرى تسودها النعرة القبلية وحياة الجاهلية وعبادة الأصنام ..سقط الإنسان في مستنقع الشرك والماجوسية في الشرق، وسبح في بحار الرذيلة والإباحية في الغرب، وكان لابد من نور يقشع ظلام الليل البهيم، يزعزع أركان الوثنية والإلحاد في الشرق ويطهر الغرب من بهيمته وبربريته. وسبحان الذي يسلخ الليل من النهار. فلا يوجد ليل سرمدي أو ظلام أبدي.

وبزغ بدر النبوة من باطن مكة أم القرى .. بعُث محمدُ بن عبد الله بالحق نوراً يجلي ظلام الكون، وبالسنة مطهراً لبني البشر.

جاء الإسلام بالاختيار الطوعي للإنسان، ذلك الاختيار الذي يوافق الفطرة النقية، تلك العقيدة التي تجمع منهج الله للبشرية، وأنزل هذا المنهج قرآنا يحوي قصص الأولين لنعتبر ونأخذ منها العظة، ومآسي الحاضرين لنعلم ونرتدع وأخبار القادمين لنسعى ونجتهد.

مرة أخرى أتذكر الأستاذ محمد وحديثه عن الإسلام وسمات المسلم وما يجب أن يتحلى به من أخلاق نبيلة ومثل عليا، وحاولت الربط بين ما قاله وما أسمعه الآن ووجدتني أقول لجدي.

هل بُعث جميع الرسل والأنبياء برسالة واحدة؟ أم أن كل رسول كانت له رسالة ومهمة محددة ولزمن معين واختص قوماً من البشر؟

قال جدي: منهج الله واحد والعقيدة ثابتة، ولكن أحكام التشريع نزلت متدرجة، بحيث تكون العقيدة متناسبة مع قدرة الإنسان على الإستيعاب والتفكير والتدبير، وتكون متفقة مع ملكاته وإمكاناته، وبتكاليف يمكن العمل بها، ولكل رسول معجزة تبهر أهل زمانه وتكون من جنس ما برعوا فيه. فكانت معجزة موسى أن يسحر عيون آل فرعون لما عملوا بالسحر، ومعجزة عيسى إحياء الموتى بإذن الله لأن أهل زمانه برعوا في الطب والدواء، وعندما أرسل النبي الخاتم كان أهل الجزيرة أبرع ما يكونوا في علم الكلام.

قال والدي: دعني يا والدي أدلل على ما تقول من حيث أن تدرج التشريع كان مناسبا لقدرة الإنسانية، أنت يا أحمد الآن في المرحلة الإعدادية لا يمكنك استيعاب مواد المرحلتين الثانوية أو الجامعية، ومعلوماتك في الدين لا تقارن بخريج الأزهر، ولا يمكنك حمل هذه الأريكة وحدك. لذا فإن الله سبحانه وتعالى وهو الأعلم بقدرة البشر، تدرج بالرسالات السماوية من حيث أوامره ونواهيه إلى أن اكتمل للإنسانية نموها العقلي واتسعت مداركها الحسية وأصبحت مهيأةً للعمل بالتكاليف، يثاب المرء إذا توجه إلى الله مؤمنا موحدا وعمل عملا صالحا ويعاقب إذا ضل وغوى وعصى، لقد جاء الإسلام بعقيدة تطهر الروح من أدران الوثنية المهلكة، وترشد العقل لمنهج الربوبية المنجية، وشريعة تهذب النفس وتزكيها من غرائزها الدونية، وسنة عطرة ترقى بالروح والجسد إلى السماوات العُلى ، فقد بُعث محمد (عليه الصلاة والسلام) لأتمام مكارم الأخلاق ورحمةً للعالمين.

قالت زوجة عمي: (ماما نوال) ما أكمله من دين وما أنقاها من عقيدة وما أقومها من شريعة، وما أكرمه من نبي وما أعظمنا من أمة إذا أخلصنا في إيماننا وعملنا بشريعتنا واتبعنا سنة نبينا.

إن الدين الذي حفظ للرجل كيانه وجعل من قوامته على الأسرة سياجا يحميها، وصان للمرأة كرامتها وجعل فيها سكنا ورحمة، وحث الطفل على الطاعة والغني على القناعة، والفتاة على الحياء، والشاب على الشجاعة، والأسرة على التعاون وصلة الأرحام والمجتمع على المحبة والسلام، لهو الدين الحق وكما قال الله سبحانه وتعالى على لسان رسوله الكريم "اليوم أكملت لكم دينكم".

وعندما هم عمي محمود باستكمال حديثه.

قال جدي..نقوم أولاً لصلاة المغرب جماعة ثم نعود للحديث مرة أخرى، ولا تجعلنا نصليها كما صلينا العصر فرادى.

الوقت يمر سريعا عندما يكون الحديث شيقا ممتعا أو العمل شاقاً ومفيداً، هذا ما رددته صفاء ابنة عمي، إنها خريجة كلية التجارة وتعمل في أحد الشركات..

اقتربت إليها وسألتها كيف يكون العمل الشاق سببا في سرعة مرور الوقت وأنا أعلم أن بذل الجهد في العمل يضيق الصدر.

قالت: عندما تحب عملك وتخلص له يذهب عنك الإحساس بالوقت، إذا كان سيعود عليك بفائدة مادية أو علمية أو أدبية ستعرف ذلك عندما تكبر وتلتحق بالعمل.

تركتها وذهبت أروح عن نفسي ببعض اللعب مع أقراني، التف الجميع حول جدي مرة أخرى وكان ممسكا بكوب من الزنجبيل الذي يحبه.

قال عمي سعيد..

رغم ما أشعر به من راحة في هذا الحديث الجميل والمشاركة في الحوار وتدارس التاريخ والدين، إلا أننا قد حدنا عن الحديث الذي بدأناه، وتعددت الآراء وأبحر بنا أخي محمود في سجل التاريخ كالسندباد شرقا وغربا، إلا أن السؤال مازال مطروحا، وهو أين قمتنا في عالمنا المعاصر وكيف نصل إليها؟

قال ابن عمي طالب السياسة والاقتصاد.

هذا السؤال قد يكون أكبر من إدراك أكثرنا مع احترامي للجميع، ويصعب الإجابة عليه، ولن تكون الإجابة عليه بإصدار قرار، لأنها مشكلة مجتمع ظل قرونا طويلة تحت الاحتلال، الشعب المصري رغم صلابته وقوته وحفاظه على هويته الاجتماعية طوال هذه القرون، إلا أنه أجبر على التوقف عن الاجتهاد والعمل والتطور، وانحصرت جهوده في أن يكون سلة خبز فقط، وحوصر لفترات طويلة وأصبح في عزلة عن العالم، أهمل التعليم والصحة والثقافة والصناعة وتأخر في جميع نواحي الحياة، وأصبح كما قال جدي، بركانا تفور داخله كل الطاقات وتتفاعل فيه كل العناصر ولكن جداره أصبح صلدا، وفوهته سدادها منيع، بركان حير كل علماء التاريخ والاجتماع رغم ما كتب ونشر، فكانت كتاباتهم، إما بغرض التمويه والتشويه وإما عن جهل وتزييف.

ويعد إذن عمي محمود: دعوني أقص عليكم هذه الفترة التاريخية والتي توضح لماذا تأخرت مصر عن ركب الحضارة في العصر الحديث.

بعد الفتح الإسلامي لمصر، ولنعبر فترة الصراع بين أمراء الدولة الأموية بالأندلس ومن قبلها سقوط الدولة الأموية بالشرق والتي حلت محلها الدولة العباسية، هذا الصراع الذي انتهى بضياع الأندلس وسقوط غرناطة، وفي زمن الدولة الفاطمية أنشئت مدينة القاهرة وأنتم تعرفون أنها بنيت في عهد المعز لدين الله وبني الأزهر الشريف الذي أصبح دار العلم والعلماء، وأصبح له مريدون من كل أقطار العالم الإسلامي شرقا وغربا. إلى أن جاءت الدولة الأيوبية بعظمتها وقوتها وحررت القدس، ثم جاءت الدولة المملوكية وأيضا وصلت إلى قمتها عندما ردت الغزو التتري، والمماليك كما تعرفون جنود مرتزقة تولوا أمر البلاد، ولم يكن يهمهم من أمرها إلا جمع الأموال بفرض الضرائب على أبناء الشعب، وتفرغوا لحشد القوات لقتال بعضهم البعض، فخربت الديار وهجرت الأرض وهلك الزرع والضرع وأغلقت الأسواق وسادت الفوضى وعم الجهل وتوقفت الحياة، في وقت كانت النهضة الأوروبية وليدة تقوم على ما خلفناه في الأندلس من علوم وما تركناه في صقلية من فنون وما تركه العرب في إشبيلية من تراجم في الطب والهندسة والفلك والكيمياء.

ومن سارق إلى ناهب، وباسم الخلافة العثمانية، وقعت مصر في أسر السلطان سليم الأول عام ١٥١٧م. وأصبحت مصر ولاية عثمانية، وقام السلطان العثماني باستكمال مسلسل النهب ونقل كنوز مصر التي استولى عليها المماليك من أموال وتحف ومخطوطات وقام بتهجير ما تبقى من صناع مهرة وحرفيين وعلماء دين إلى الأستانة بالقوة. ومرة أخرى تتعرض مصر لحملة نشطة ومخططة لنهب تراثها وثرواتها، وعانى الشعب ويلات الجوع والحرمان والإهمال والفقر، مما أدى إلى زيادة تخلف مصر عن ركب الحضارة والذي كان في سباق مع الزمن في الغرب. في عام ١٧٩٨م وكانت الإمبراطورية العثمانية في طريقها إلى الاحتضار، تعرضت مصر للغزو الفرنسي على يد نابليون والذي أراد أن يحيي مجد الإسكندر الأكبر وسعى لتكوين إمبراطورية فرنسية في الشرق قاعدتها مصر في مواجهة الإمبراطورية الإنجليزية التي كانت تهيمن على معظم دول آسيا بما فيها شبه القارة الهندية، لم تجد فرنسا ما تنهبه فوق الأرض، فبدأت باسم التنوير والتحضر والثقافة العبث

تحت الأرض وكانت في ذلك أوعى من المماليك وأذكى من العثمانيين، لأن كنوز مصر تحت الأرض أثمن من كنوزها فوق الأرض والتي نهبت لقرون عديدة، وانطلقت بعثات التنقيب تعبث في ثرى مصر.

هرب بقايا المماليك إلى جنوب مصر وفر العثمانيون إلى شمالها، وتركت القاهرة نهبا لجيوش الحملة الفرنسية، وعندما سقط قناع نابليون الزائف وداهم الأزهر وعربد في شوارع القاهرة والإسكندرية، ظهر المعدن الأصيل لأبناء وادي النيل وبدأت المقاومة الشعبية وتحركت المشاعر الوطنية، وهب المصري يدافع عن وطنه وعرضه ودينه، مسلمون ومسيحيون.

خرجت الحملة الفرنسية مهلهلة من مصر بعد أن قضت ثلاث سنوات سرقت ونهبت الكثير من التراث الإنساني للشعب المصري، ولكنها لفتت أنظار العالم إلى أهمية موقع مصر الجغرافي. ولتبدأ مرحلة جديدة في حياة الشعب المصري وتاريخه مع الاستعمار.

قال ابن عمي فريد وهو طالب في الثانوية العامة:

أتدرون رغم دراستي لهذا التاريخ من الابتدائي إلى الثانوي إلا أنني لم ألاحظ ذلك كله إلا الآن.

قال جدي وما هي ملاحظتك.

قال: تحت عباءة الإسلام لم يثر المصري ثورته العارمة رغم ما لاقى على يد المماليك والعثمانيين، حتى ثورة القاهرة الكبرى لم تكن حركة وطنية فقط، وإنما ثار دفاعا عن دينه وقيمه ضد الحملة الفرنسية التي اعتبرها امتدادا للحروب الصليبية.

قال جدي .. إنها ملاحظة جيدة تستحق عليها الإشادة.

وسأكمل لكم حقبة ما بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر بعد أن طبقت عليها مصر قانونها الأزلي ألا وهو احتواء الأعداء، فقد تزوج آخر قواد الحملة (مينو) من فتاة مصرية وأعلن إسلامه، بعدها ظهرت عدة قوى للسيطرة على الحكم في مصر وانتهى الأمر إلى تولى محمد عليّ حكم مصر في عام ١٨٠٥م ورغم

ما يشوب أمر هذه الولاية من مغالطات تاريخية، إلا أن الرجل (وهو غير مصري الجنسية)، سعى لبناء مصر الحديثة في محاولة منه لإقامة إمبراطورية تخلف الإمبراطورية العثمانية، وعندما اشتد ساعد محمد عليّ وأراد فرض سيطرته على الأقطار الإسلامية وهدد أوروبا بجيشه وأسطوله، تناسى الغرب خلافاته وحروبه وتكتل عليه ودمر أسطوله، وفي اجتماع لندن ١٨٤٠م نصب ملكا على مصر والسودان.

لم تعمد أوروبا القضاء عليه وإنما تركته ذريعة للعودة إلى مصر عند الحاجة إلى ذلك. وكما فتحت مصر للإغريق أسواقاً تجارية كما قال محمود، أعيد فتحها مرة أخرى للأوروبيين، وكانت مصر قد تعرضت لحملة إنجليزية في عام ١٨٠٧م، أطلق عليها حملة فريزر وتعرفون أنها فشلت، فعاودت إنجلترا محاولتها مرة ثانية عام ١٨٨٢م وتعرفون قصة خيانة ديلسبس لأحمد عرابي... ومن الملاحظ أيضا أن من أسباب فشل حملة فريزر ١٨٠٧م وجود الأسطول الفرنسي في البحر المتوسط. فضلا عن الدفاع المستميت عن الأرض والوطن من أهل مصر، وأن سبب نجاح حملة ١٨٨٢م خيانة فرنسا. إنها لعبة المصالح، وبعد أكثر من ثمانين عاما جاء الإنجليز ليكملوا ما توقف عنده الفرنسيون في البحث والتنقيب وفي هذه المرة جاء شركاء جدد، ألمانيا وإيطاليا واليونان وروسيا والنمسا وأمريكا العملاق الوليد. الوليمة كبيرة والكنوز كثيرة وأصحاب البلد مقهورون.

أعرف أن هذا الكلام ثقيل على القلب، ولكنه تاريخ لا نزيفه ولا نزينه، وليست أساطير نحكيها كما يحلو لنا. بل هو تاريخنا الذي يجب أن نعرفه جيدا، يا أبنائي هناك قوى تعمل بمفردها أو مجتمعة تعمد إلى تجريدنا من عناصر قوتنا، وإضعاف روح التحدي فينا، وإحداث شروخ وتصدعات في البناء الاجتماعي المصري والعربي والإسلامي ونهب خيراتنا وتقويض اقتصادنا، يجب أن نعرف لغتهم الاستعمارية وما يخفوه وراء ما يرفعونه من شعارات، لم تتعرض دولة في العالم لمثل ما تعرضت له مصر على مر العصور. إنها ملحمة تاريخية، نزداد منها صلابة وقوة، لقد أمدنا الله بعون لم يمد به أمه غيرنا ولن يخذلنا إذا سعينا بجد وعزيمة، وأجدني أنهي حديثي معكم بقولي (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا

ما بأنفسهم). لقد تجاوزت الساعة العاشـرة لنكتـف الآن بهـذا الحـديث علـى أن نكمله في مرة قادمة إن شاء الله.

انفض الجمع ولم نصل إلى الإجابة الشافية.!!!

فى طريق عودتنا إلى المنزل قلت لوالدي الاستعمار شيء بغـيض وقـد عانـت مصر زمنا طويلا ولكن ماذا كان يعـني حسـين حـين قـال إن المشـكلة مشـكلة مجتمع وليست مشكلة فرد. وهل هذا يطابق مقولة جدي إن الله لا يغير ما بقـوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

أنت لا تنسى شيئا يا أحمد، ألم يكفك كل هذا الكلام الذي قيل، أنا شخصيا غير مستعد للإجابة على أي سؤال.

أنت تحب وطنك يا والدي كما أحبه، وحديث اليوم بقدر مـا زادنـي ألمـا وفي بعض الأحيان بالإحباط واعتقادي باستحالة قيام دولة بعد كل هذا. ولكـني أرى مصر الآن غير ما تخيلتها في زمن المماليك والأتراك من جهل وضعف أراها اليـوم محور كل حدث ورائد كل موقف، بؤرة اهتمام عالمية، وأراها بالفعـل درع الأمـة العربية والإسلامية، خبراؤها في كل قطر عربي ، فقهاؤهـا في كـل بلـد إسـلامي، علماؤها منتشرون في أنحاء أوروبا، أبناء أفريقيا وآسيا يفدون عليها لتلقي العلـم، كان لها السبق في التخلص من الاستعمار والقضاء عليه في أفريقيا وأسيا وكانـت شرارة التحرر لدول كثيرة.

من أين لها هذه القوة وكيف كان هذا البعث؟

يا بني المجتمع المصري نسيج من الأذهان لا حصر لهـا، وضـمائر تتصـارع في زمن الأنانية فتشيع الفتن وتسوق المجتمع إلى سـاحة الـدمار، عنـدما تجـد نفسـها على حافة الهاوية، تندلع من جوفها صرخات الأمل العملاقـة فتجمعـه الشـدائد، وتظهر القيادات الرشيدة الواعية، فينجو المجتمع المصـري مـن السـقوط في الهاويـة. شعب أصيل فيه من الضمائر الإيجابية التي تتضـافر مـن أجـل البنـاء، وتبـذل في سبيل ذلك كل عزيز ونفيس وغال، وهناك أيضاً ضمائر خـتم الله علـى قلـوبهم وعميت أبصارهم تتصارع من أجل مصـالح شخصـية، تتعطـر بعـرق الكـادحين

وتستنزف دماءهم. ويحاط هذا المجتمع بقوى خارجية تتصارع من أجل السيطرة والهيمنة على مقدراته كما سمعت، وتختلف مسميات السيطرة، منها الاقتصادية والسياسية والعسكرية، مثل الذي حدث مع جميع الزعماء الوطنيين في مصر، بدءا من محمد كريم وعمر مكرم ومصطفى كامل وأحمد عرابي وسعد زغلول وعبد الناصر وغيرهم، تلك الرموز الوطنية ضحت في سبيل تحرير مصر من أغلال الاستعمار.

انفجار البركان

عندما تفجرت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢م كانت ومازالت ثورة عظيمة لم تُزهَقْ فيها أرواح ولم تُسفك دماء، وكانت تتويجا لتضحيات عظيمة، أنهت عصور الطغيان والتخلف والتبعية وطهرت بلدنا من دنس الاستعمار الإنجليزي، في أعظم حدث في تاريخ مصر المعاصر .

عندما تحررت مصر اقتصاديا وسياسيا وعسكريا، امتد قبس الحرية من القاهرة ليعم أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، وكان لزاما على مصر أن تمد يد العون لجميع الشعوب المناضلة من أجل الحرية والاستقلال إنها الريادة الوطنية، والالتزام الخلقي والواجب الديني، إنه التراث الحضاري المصري، فأدى ذلك حروب١٩٥٦م و١٩٦٧م وحصار اقتصادي وعداء سياسي وشكلت هذه الضغوط عائقا أمام التقدم واللحاق بركب العلم، وبرغم المؤامرات إلا أنه أصبح لمصر دور في السياسة العالمية والمجتمع الدولي.

قلت: بمناسبة التقدم العلمي، أليس الكمبيوتر والدش والإنترنت من وسائل التكنولوجيا الحديثة التي هي مظهر من مظاهر المدنية والتحضر، فلمَ لا تريد أن توفرها لنا؟!! وقلت إن هذه الأجهزة ضمن الغزو الثقافي.

قالت أختي.. أنت يا أحمد تخرج من سؤال إلى سؤال.

قالت والدتي.. هذا هو السن الذي تبدأ فيه مدارك الإنسان في الاستيعاب.

وصلت السيارة إلى المنزل تناولنا وجبة خفيفة، وصلينا العشاء وذهب كل منا إلى غرفته، النوم يداعب جفوني ولكني لم أنس أن أُدوِّن السؤال الجديد: ما معنى الغزو الثقافي.؟!

صباح جميل.. رزاز الماء المتطاير ينعشني، أفرك يدي لأشعر بالدفء، لا أسرع الخطى رغم سقوط المطر، إنني أحب هذا الطقس وأسعد بالسير أثناء هطول المطر لذلك لم أنتظر والدي ليوصلني إلى المدرسة، في الطريق شاهدت بائعا للصحف يواري رأسه بكيس من البلاستيك ويخفي الجرائد بين طيات حلة قديمه يلبسها، ولأول مرة في حياتي أشتري جريدة لنفسي، رغم علمي بأن ثمنها أكثر من نصف ما أملك. ولا أدري هل هي رأفة بالبائع أم تأثير حديث الأمس الذي جعلني أبحث عن كل خبر يهم بلدي ومجتمعي، المهم اشتريت الجريدة، وبسرعة وضعتها بين ملابسي وبعدها حدثت نفسي.. أن والدي يشتري الجريدة كل يوم فما الذي دفعني لشرائها . المهم أنها أصبحت معي، كثيرا ما ذهبت إلى المكتبة لشراء كتب أو قصص أطفال واليوم أشعر أنني دخلت عالم الكبار، وتسلط علي هذا الشعور وأنا ألقي التحية على الحارس الذي يقف تحت مظلة البوابة، دخلنا إلى الفصول دون طابور الصباح بسبب هطول الأمطار، في الفصل أخرجت الصحيفة وأخذت أطالعها كما يفعل أبي في انتظار بداية الحصة، التفت نحوي بعض الزملاء، وانهالت الأسئلة، ما هي نتائج مباريات الكرة التي أقيمت أمس؟ ما هو موعد فيلم السهرة واسمه؟ هل هناك برامج تعليمية اليوم؟ من فضلك يا أحمد ممكن أطلع على برج الحظ؟ أريد أن أرى صفحة الحوادث؟ ولم يتلق أي منهم إجابة،ولم يفض الاشتباك سوى دخول الأستاذ شهدي..

الأستاذ شهدي يبدأ حصته سريعا ولا يسمح بالأحاديث الجانبية، انتهى من شرح الدرس وكان في مادة "الجبر"، وأعطى بعض المسائل وطلب سرعة حلها، لاحظ أن أحد الطلبة أخرج آلة حاسبة لاستخدامها في إيجاد الحل، توجه إليه وأخذها منه وعندما أبدى دهشته قال يجب أن يتوفر مبدأ تكافؤ الفرص فليس الجميع لديهم آلة، هذا أولا وبعد الانتهاء من الحل سيكون لنا كلام آخر، أكمل دورته بين الطلبة يوجه ويوضح ويسأل وبعد الانتهاء من الحل والمراجعة (توجه إلى صاحب الآلة وأعطاها له)، وتوجه إلينا بالحديث

الآلة الحاسبة مفيدة جدا، تختصر الوقت وتساعد في الحل ومضمونة النتائج، ولكن العقل مثل كل أعضاء وأجهزة الإنسان وأعلاها مرتبة يحتاج إلى تمرين

وتمرينات العقل هي الأرقام والألغاز وهذا هو معنى إعمال العقل أي تشغيله وأنتم في هذه السن في حاجة إلى تمرين العقل وتشغيله.

وجدت في هذا الحديث فرصة لأطرح سؤال الأمس. رفعت يدي.

تفضل يا أحمد: تهتم المدرسة بتعليم الكمبيوتر وهو أكبر من الآلة الحاسبة أليس هذا تعطيل للعقل؟ هذا بالإضافة إلى أنه والإنترنت والدش من مظاهر المدنية والتحضر ووالدي يقول..إنها جزء من الغزو الثقافي ورفض شراءها، وأصبحت لا أدري هل استخدام هذه الأجهزه ضرورة أم لا؟

يا أحمد لا تخلط الأمور، فأنا لم أقل إن هذه الأجهزه مرفوضة وإلا لما اهتمت الدولة بنشر ثقافة الكمبيوتر في المدارس وتكبدت كل هذه الأموال في شراء الأجهزة وإعداد القاعات وتوفير المدرسين، أنا مع والدك نرفضها إذا كان اقتناؤها بغرض أن تكون مظهرا من مظاهر المدنية.

دعني أسألك لماذا تريد شراء كمبيوتر؟

قلت..لأنني وجدته عند زميلي سامح واستخدمناه في بعض الألعاب (الجيم) التي بهرتني ومنذ ذلك الحين تمنيت أن يكون لدي جهاز مثله، وعند ابن عمي يستخدم الإنترنت في المراسلة والتعرف على أصدقاء وعندهم الدش وبه من البرامج الترفيهية الجميلة ما يثير الإعجاب.

هذا هو الخطأ الشائع في بعض المجتمعات المدنية، التحضر لا يعني فقط الترفيه، هل تتذكرون كلمة الأستاذ إبراهيم؟ لقد مر العلم بمراحل طويلة حتى وصل إلى هذه المخترعات، والكمبيوتر من أهم منجزات العلم الحديث ويستخدم أساسا في الأبحاث وإعداد التصميمات وحفظ قواعد البيانات والملفات وحل المعادلات والكتابة والتطوير، وفي مصر الآن يتم التدريب عليه في المدارس ويستخدم في الصناعة والصحافة والدوائر الحكومية والشركات والمطارات ودخلت مصر بالفعل عصر الكمبيوتر إذاً فإن استخدامه مرتبط بمدى احتياجك له والاستفادة من إمكاناته العظيمة، وكذلك الإنترنت له مجالات استخدام هامة في الاقتصاد والتجارة والبورصة، إنه قاعدة بيانات ومستودع معلومات وجريدة عالمية ومصدر

للأخبار والدش له أهمية من حيث أنه نافذة على العالم، تطلع من خلاله على ثقافات عديدة، وتتبع الأحداث العالمية والأخبار.

من الخطأ أن يتحول المجتمع النامي مثل مجتمعنا إلى مجتمع استهلاكي، يهرول وراء مظاهر البذخ والترف ويصبح الهدف أن تمتلك الشيء دون الاستفادة الحقيقية بإمكانياته، لأن ذلك يعتبر إسرافا واستنزافا،وإلا بماذا تفسر حمل كثير من الطلاب الموبيل وفيما يستخدم.

عندما تقلص دور الاستعمار العسكري في العالم، كان لابد من إيجاد وسائل أخرى للهيمنة والسيطرة على الشعوب التي تخلفت عن ركب الحضارة، وذلك بخلخلة هذه المجتمعات وزعزعة الاستقرار فيها واستنزاف مواردها وزرع الفتن، وتدمير الشباب وتشكيكه في مُثله وقيمه وعقيدته، وإكساب هذه المجتمعات عادات وسلوكيات تخالف طبيعتها وآدابها العامة، فاستغلت التطور العلمي المذهل في عالم الاتصالات وقامت ببث برامج ومسلسلات تحمل طابع العنف والانحلال والإباحية، وتعظم الأنانية والطمع والجشع والنكران وإشباع الرغبات، وتلك القيم الفاسدة والسلبية، قد يلائم بعضها المجتمعات المادية المتحللة، وإذا عرضت علينا، نشاهدها أولا من باب الفضول والعجب وقد يصل الأمر إلى الاستنكار والاشمئزاز، ثم كدبيب النمل ونخر السوس، تبدأ في التأثير على ضعاف النفوس الذين يبدءون في ازدراء قيمهم، وتصبح فتيات الغرب اللاتي يميل أكثرهن إلى التحرر من التكاليف والإباحية نموذجا لفتيات الشرق العفيف، وشباب الغرب ذو التقاليع الماجنة مثلاً أعلى لشبابنا، ونغفل عن القيم العملية للمجتمع الغربي والتي أدت إلى تقدمه وتطوره رغم أننا مصدروها لهم، مثل إتقان العمل والانضباط وحسن الأداء واحترام الوقت والاهتمام بالبحث العلمي وتعظيم وسائل الإنتاج واحترام حقوق الإنسان، وهذه كلها قيم شرقية عرفناها من مئات السنين وكانت سر تقدمنا، قبل أن تصل إليهم ويعملون بها.

هل عرفت يا أحمد معنى الغزو الثقافي؟

إذاً فنحن سنظل متخلفين عن هذا العالم.

لا يا بني .. لقد دخلت مصر معترك التكنولوجيا والتطور الصناعي باستخدام الكمبيوتر على نطاق واسع وفي جميع المجالات ونستخدم شبكة الإنترنت في تبادل المعلومات والأخبار والرسائل الإلكترونية، وأنت وأنا نشاهد التليفزيون ونتابع من خلاله البرامج الثقافية والترفيهية والتعليمية والأفلام والمسلسلات التي تحمل قيمنا. لقد أحدثت هذه الأجهزة تغيراً في شكل ونمط وسلوك المجتمع المصري، ومن الضروري أن يواكب انتشار هذه الأجهزة وعي ثقافي ليتمكن الفرد من التمييز بين المفيد والضار من قيم وعادات لا تلائم مجتمعنا وعقائدنا.

كانت محصلة الأمس عظيمة شعرت بعدها أنني جزء من تاريخ مصر، ذلك التاريخ الذي سرد أمامي وكأنه فيلم أو مسلسل تاريخي، وحديث الأستاذ "شهدي" اليوم عن حاضرها جعلني أفكر، كيف أن هذه الدولة ذات الحضارة التاريخية، عبرت كل هذه البحور المتلاطمة الأمواج ولم تغرق،؟ كيف عاشت في مستنقعات الاحتلال .. ولم تمرض،؟ كيف حلقت في سماء العلوم والفنون والآداب دون أن تهبط،؟ إنها عناية الله الذي وهبها وسائد من القيم والأعراف ودروعا من النبل والأخلاق وأجنحة من نور العقيدة، حمتها من وطيس الحروب وويلاتها وأبعدتها عن هوة الانحلال وفساده.

ما أعظمك يا مصر بما كنت وعلى ما أصبحت، ووجدتني أردد كلمة الزعيم مصطفى كامل "لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس" لذا يجب أن نعمل بكلمة الأستاذ إبراهيم. لن نقف عند حد الكلام الخالي من المضمون عن التاريخ والأمجاد، لن نكتفي بترديد أبيات الشعر ومقولات العظماء، ويجب أن يكون لنا دور في إعادة هذه الأمجاد. كيف؟ هذا هو السؤال الجديد الذي يجب أن أدونه في مفكرتي...

لقد وضع عمي محمود تاريخ مصر نصب عيني، وجعله جدي بؤرة اهتمامي وعرفني والدي بعض جوانبه وأفسح لي الطريق الأستاذ شهدي.. المفتاح الآن بيد الأستاذ عبد الله، الذي جعل التاريخ مادة محببة لجميع الطلاب، وأصبحت حصصه من الأوقات الممتعة التي تمتزج فيها الثقافة بالمعرفة والدين بالأدب. ورغم ما عرفناه وما سمعته عن تاريخ مصر إلا أن الحضارة المصرية ما زالت سراً غامضاً

وأمجادها الصامتة لغزاً غير مفهوم، هذا هو منتهى إدراكي الآن، ربما في المستقبل يمكن حل هذه الألغاز ومعرفة بعض الأسرار على حقيقتها والوصول إلى الوجه الآخر من تاريخ مصر.

تعاقبت الحصص وبعد خروج الأستاذ يحيى مدرس الإنجليزى ساد الفصل بعض الهرج واختلطت الأصوات وكنا نستعد لوقت الراحة.

جلس زميلي هيثم ساكن الحركة، شارد الفكر على غير عادته .. اقتربت منه.

ماذا بك يا هيثم؟

لا شيء، كنت أمس في مدينة الإعلام بالسادس من أكتوبر.

التقط عماد هذه العبارة ونادى على باقي الزملاء

وقال لهيثم..

كنت في مدينة الإعلام، مدينة الملاهي والألعاب والأستوديوهات، وتأتي اليوم وعلى وجهك هذا الوجوم بدلاً من السعادة لا بد أن تحكي لنا عما رأيته في هذه المدينة الجميلة.

التف حولنا بعض الزملاء، منهم من يريد أن يسمع والبعض يريد أن يحكي، لكن ما يبدو على وجه هيثم من جد جعلهم ينظرون إليه... قل يا هيثم ماذا رأيت؟

أثناء ذهابنا إلى المدينة اصطحبنا معنا خالي أيمن، وهو يعمل مهندساً بإحدى شركات المجمع الصناعي بالسادس من أكتوبر، وفي الطريق عرض على والدي أن نزور المصنع قبل الذهاب إلى المدينة الترفيهية، فاستحسن والدي الفكرة، اعترضنا أنا وأخي وابنة خالتي التي كانت معنا، فقد كنا في لهفة للوصول إلى مدينة الإعلام، للتمتع بما فيها أكبر وقت ممكن.

قالت والدتي: هذه فرصة عظيمة لنرى جزءا من النهضة الصناعية التي نطرق أبوابها وأمامنا متسع من الوقت.. وبدلاً من خروج الزملاء في فترة الراحة جلسنا ننصت إلى هيثم الذي أكمل حديثه.

دلفت السيارة داخل المدينة الصناعية وكأننا خرجنا من مصر ودخلنا بلداً آخر. المصانع كثيرة متعددة ومتنوعة وأخذت أستعرض اللافتات، مصانع لتجميع السيارات، مصانع سيراميك، مصانع لإنتاج الهياكل المعدنية، مصانع أجهزة كهربائية وإلكترونية، مراكز صيانة، لافتات كثيرة، الشاحنات في حركة دائبة محملة وفارغة، وأتوبيسات مخصصة لنقل العاملين بهذه المدينة التي ولدت عملاقة، وحولت هذه المنطقة الصحراوية إلى مركز صناعي عظيم في مظهره.

كنت أشعر بالضيق في بادئ الأمر، وتعللنا بالشمس وحرارتها رغم أننا في الشتاء والشمس جميلة.

قال خالي: ما ترونه الآن جزء من مستقبل بلادكم وقد لا تتاح هذه الفرصة لكثير من أقرانكم، يمكن أن يروا بعضها في التليفزيون أو يسمعوا عنها، ولكنكم ترونها الآن، وستنقلون أنتم هذه الصورة لزملائكم لأنكم ستكونون فخورين بأنكم حضرتم لهذه البقعة الغالية.

وهو ما أشعر به الآن وأنا أحكي لكم.

كنت أعتقد أنها مدينة صغيرة، سيستغرق الأمر فيها فترة قصيرة، فإذا بالسيارة تسير داخل المدينة حوالي الساعة، وكأن خالي تعمد أن نطوف بالمدينة قبل أن نصل إلى المصنع الذي يعمل به.

نظر خالي نحوي فوجدني مبهوراً بما أرى من اتساع الطرق المرصوفة والنظافة والتخطيط وأبراج الكهرباء الممتدة على طول الطريق والحركة النشطة داخل المدينة فقال:

أراك معجباً بما ترى ... قلت نعم.

فما بالك إذا تجولت داخل هذه المصانع ورأيت ما بها من معدات وأجهزة وأيدٍ عاملة مدربة على أحدث النظم العلمية مهندسين ومهندسات شباب وشابات اليد باليد والكتف بالكتف لرفعة الوطن. هذا عن يمينك أحد أكبر مصانع الأدوية في الشرق الأوسط، وهذه محطة توليد الطاقة، صروح عملاقة بأياد فتية وعقول ذكية.

قلت: هذه أول مرة أرى مثل هذا العدد من المصانع في مكان واحد.

قال: إنها واحدة من مدن صناعية عديدة بدأت في الانتشار في ربوع مصر مثل مدينة العاشر من رمضان ومجمع الحديد والصلب بأسوان، وقبلهم مجمع الألومنيوم بنجع حمادي وغيرهم.

اقتربنا من المصنع الذي يعمل به خالي، وهو مصنع لإنتاج الأجهزة الإلكترونية،بهو فسيح به ملصقات توضح مراحل تطور بناء المصنع والخطط المستقبلية، وعندما طلبت من خالي أن نزور المصنع من الداخل، أفهمني أن ذلك غير مسموح به إلا في إطار جولة جماعية بتصريح مسبق، وإن شاء الله في أقرب فرصة يمكنك أنت وزملاؤك الحضور في رحلة لزيارة المصنع.

توجهنا بعد ذلك إلى مدينة الإعلام واستمتعنا بكل ما فيها من ألعاب وقابلنا بعض الممثلين والممثلات وتحدثنا إليهم. كان يوماً شاقاً ولكنه لطيف وممتع. ومنذ ذلك الحين وحتى الآن لم تفارقني فكرة زيارة المصنع.

لم ننتبه لدخول الأستاذ عبد الله.

السلام عليكم..

عاد كل طالب إلى مكانه بهدوء

درس اليوم في التاريخ عن الأماكن الأثرية في مصر. وهي كما تعلمون منتشرة في جميع محافظاتها. وتبذل الدولة الجهد في المحافظة على تلك الآثار. وفي كل يوم يتم الكشف عن أثر جديد.

رفع طارق يده .. تفضل قالها الأستاذ.. وهو يتجه إليه.

عرفنا أن التاريخ هو مجموعة من الحضارات التي قامت في أزمنة سحيقة، سادت كل منها فترة من الزمن، طالت أم قصرت، ثم اضمحلت وصارت ذكرى انتهت إلى أحجار وتماثيل ونقوش وأهرامات ومعابد، فما أهمية هذه الأطلال، وما سر اهتمام العالم بها، في زمن وصل فيه الإنسان إلى القمر ويكتشف المجرات ويقترب حثيثاً من الشمس، أليس من الأفضل أن نحاول الصعود إلى أعلى بدلاً

من حفر القبور؟

نحن لم نبدأ الحصة بعد..ولكن لنعرف جميعاً يا أبنائي أن التاريخ ليس مجرد أطلال، إنه خلاصة فكر وجهد وعرق آلاف السنين، هو قصة الخلق وتعمير الكون من خلال مسيرة حياة الإنسان ومراحل تطوره، التاريخ جذر كل أمة ودليل قوتها وعظمتها، منارة نهتدي بها في الظلمات. إنه الدين والعقيدة، القيم والعادات والتقاليد والحكم والأمثال والشرائع، التاريخ ليس مجرد أثر نفخر بتفرده، التاريخ حضارة كلما كانت مقوماتها قوية وأصيلة وصلبة، حتى وإن دخلت المثلث الحضاري الذي وضحته لكم فإنها إن ضعفت وأصابها الوهن لا تندثر، ويمكن أن تقوم على قواعدها الثابتة حضارة أخرى أقوى وأعظم وتلائم متطلبات العصر، فقط علينا أن نحسن استغلال مواردنا الطبيعية والبشرية لنقيم عليها حضارتنا الجديدة.

طلب كريم الإذن .. تفضل

اسمح لي يا أستاذ فأنا أضم صوتي إلى صوت طارق، وأرى أننا نعيش عصر العلم والتكنولوجيا، والاختراعات والابتكارات في الشرق والغرب في سباق محموم، ونحن نتكلم كثيراً عن عظمة أجدادنا بناة الأهرام وروعة معابدهم، وجمال وفخامة الكنائس والأديرة، وعظمة المساجد وكثرتها وعقائدنا الثابتة والسليمة، وتميز الفن العربي الأصيل، ورغم ذلك نتزيل الأمم.

اقترب الأستاذ من كريم وسأله.

هل لديك جدول حصص؟ نعم!!

هل يمكنك أن تقرأه علينا؟ وتعرفنا ما هي المواد المقررة عليك هذا العام.

أخرج كريم الجدول وقرأ.. رياضة.. لغة عربية ودين .. علوم .. دراسات .. كمبيوتر، مواد فنية ورسم و..

يكفي هذا..

إذاً فإن الدراسات (تاريخ وجغرافيا)، ما هي إلا أحد فروع العلم، وبالتالي

فنحن لم نتوقف عند دراسة التاريخ والآثار والحضارة وأغفلنا باقي العلوم التي تسهم في التطور، المدارس الفنية والتجارية والمعاهد والجامعات في جميع فروع العلم منتشرة في مصر، والتعليم إلزام وحق لكل مواطن، ومصر زاخرة بالعلماء في الطب والهندسة والقانون والعلوم الطبيعية والحاسبات وفي جميع المجالات،(داخل مصر وخارجها) ، وأنت كلما ارتقيت سلم التعليم واجتهدت وسعيت لتصل إلى التخصص الذي يلائم قدراتك العلمية واتجاهاتك الفكرية وإمكاناتك البدنية، يمكنك أن تنبغ وتصبح عنصر فاعل في مجتمعك و جزءا من حركة التاريخ والتطور الإنساني.

الذي بنى الأهرام خلد اسمه بما بذل من جهد وعرق ومال، أفلاطون وأرسطو وابن سينا والفارابي وابن الهيثم والغزالي وابن كثير وابن القيم، أعلام فكر في الطب والهندسة والفلسفة والدين والأدب، اختراع الطائرة والسيارة والقطار والدبابة والصاروخ والتليفزيون والكمبيوتر .. ما هو إلا سلسلة من الأفكار لعلماء سهروا وعانوا، فشلوا حيناً وحوربوا أحياناً ولكنهم صبروا وضحوا حتى تستفيد البشرية، إسحاق نيوتن وألفريد نوبل وماركوني وألبرت آينشتين، غيروا نمط الحياة بمخترعاتهم وأثروا الإنسانية رغم أنهم وصفوا بأنهم مجانين وزنادقة وسحرة.

مكتشف البنسلين تأمل وفكر وانتظر واكتشف، الإسكندر حارب وعانى ومات من أجل فكرة ،أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص والزبير وصلاح الدين والظاهر بيبرس وقطز ومحمد علي وغيرهم ،قادة حققوا أمجاد ورفعوا رايات أمه طلعت حرب ومحمد عبده والمازني ورفاعة الطهطاوي والنديم والعقاد وغيرهم، رجال مال ومفكرون غيروا وجة المجتمع وأثروه ، محمد كريم وعمر مكرم وأحمد عرابي وسعد زغلول ومحمد نجيب وعبد الناصر والسادات وعبد المنعم رياض وحسني مبارك، وغيرهم الكثير ممن ضحوا بأرواحهم، زعماء سياسيون وقادة عسكريون جاهدوا ضد الاستعمار والسيطرة وقفزوا بمصر أسوار التخلف والتبعية، مجدي يعقوب والباز وأحمد زويل والسنهوري، أطباء وعلماء ورجال قانون رفعوا اسم مصر عالياً في المحافل الدولية.

لم أذكر الأنبياء والرسل والخلفاء الراشدين والصحابة والمبشرين بالجنة تعظيماً لمكانتهم، كل هؤلاء عرب ومسلمون، مصريون وأجانب، شرقيون وغربيون، صاروا وسيصيرون جزءاً من التاريخ وكان لهم الأثر الكبير في تغيير مجتمعهم وامتدت آثار بعضهم لخدمة البشرية كلها، وأنتم جميعاً بما وهبكم الله من نعمة العقل والفطرة السليمة وفرص التعليم المتاحة، يمكنكم أن تحفروا أسماءكم في سجل التاريخ إن سعيتم وبذلتم الجهد والعرق لإعمار الكون،لقد علم الله الإنسان ولم يختص أمة بالعلم، ولم تنزل على الرسل اختراعات أو ابتكارات، اختصهم بالشرائع الدينية،وترك إعمار الكون لمن يعمل عقله ويبذل جهده... وكما قال الأستاذ إبراهيم، عليكم عهد، ولديكم القدرة للنهوض بأمتكم واستعادة مكانتكم، فهل أنتم مستعدون.

رفع عادل يده .. تفضل

كيف أمد يد العون وأساعد في هذه النهضة وأنا في هذه السن؟

يا بني: ما رأيك في طفل رفع عن الطريق زجاجا مكسوراً ؟..

يكون قد أماط الأذى عن الطريق ومنع وقوع ضرر على آخرين.

ماذا يحدث عندما تنجح في الامتحان؟ ..

أدخل السرور على أهلي وأنتقل إلى الصف التالي وأترك مكاني لزميل آخر وأوفر على والدي والدولة نفقات التعليم عاماً.

ماذا تقول في طالب يهمل أدواته ويمزق ملابسه ويكسر لعبه؟ ..

يدفع والده لشراء غيرها ويكون غير مبال بما تكبده أبواه من مشاق لتوفيرها له.

ماذا تفعل لطالب يتعمد تشويه الجدران بالكتابة عليها أو الرسم، أو يسيء استخدام المرافق العامة ولا يحافظ على نظافة مدرسته؟..

أنهيه عن فعل ذلك لأنه عديم الإدراك ويزيد إنفاق الدولة لإعادة وإصلاح ما أتلفه. هذه نماذج قليلة لما يمكن أن تقدمه.

فأنت إذا تعاونت مع إخوانك في المنزل لترتيب أدواتك وغرفتك وحافظت على نظافة ملابسك، فأنت توفر على والدتك جهداً كبيراً، إذا انتبهت إلى دروسك واجتهدت في مراجعتها وفرت على والدك الاستعانة بمدرس خاص، وإذا اشتركت في الأنشطة الرياضية والأدبية والثقافية وبرعت فيها ترفع علم بلادك في الأوساط العالمية ...

هكذا يا أبنائي، وبهذه الأعمال البسيطة في شكلها، العظيمة في أثرها والتي يسهل القيام بها، تكونوا قد مددتم يد العون لأسركم وساهمتم في رفعة بلدكم، وإذا اعتدت هذه الخصال وأصبحت من سماتك، صرت فتى محبوباً إلى أهلك، ثم شاباً دمث الخلق قريباً من ربك، وتنشأ فارسا نبيل من فرسان الزمان، وتبني كثيراً من الأهرامات، لا أعني أهرامات الأجداد، وإنما أعني أن تنهض بوطنك.

وكما قال الشاعر حافظ إبراهيم:

عار على ابن النيل سباق الورى　　　مهما تقلب دهره أن يسبقا

ولنعد بسرعة إلى درس اليوم:

انتهى الأستاذ من شرح الدرس ولم يسمح اليوم بمزيد من الأسئلة، كنت قد دخلت الحصة وفي مفكرتي سؤال وهو كيف يكون لي دور في إعادة أمجاد أمتي؟ وقد أجاب الأستاذ ببعض الأمثلة التي يمكن أن يقوم بها من هم في مثل سني، ولكنني شعرت بالخجل عندما ذكر بيت الشعر السابق:

عار على ابن النيل سباق الورى　　　مهما تقلب دهره أن يسبقا

هذا النص كان ضمن مقرر الصف السادس الابتدائي، وعبثاً حاولت أن أتذكر النص ... سألت زميلي هشام فقد يكون متذكره، فأخبرني أنه لا يتذكر منه إلا أن المجد صعب المرتقى، ونظر إلي متعجباً، لماذا نبحث عن الصعب ونرتقيه إذا كانت الحياة جميلة وسهلة ... قلت له وكلام الأستاذ عبد الله الذي تحدث به الآن ... مجرد كلام؟!

وكلام الأستاذ محمد أيضاً كلام؟

وكلام الأستاذ إبراهيم مجرد كلام؟

ما هو الفعل بالنسبة لك يا هشام؟

لقد تعلمت من والدي أن الفعل للمال وليس للكلام، أنت تعرف أن والدي من رجال الأعمال ... بالمال نشترك في النادي، وبالمال نسكن في أحياء راقية، وبالمال نسافر إلى أوربا، بالمال يمكنك عمل كل شيء وفي أي وقت، سمعته يقول إن أمريكا قوية بما تملك من مال، وكذلك دول أوروبا الغربية، ودول الخليج بالمال تفعل كل شيء وتوفر الكثير من احتياجاتها، ومصر ضعيفة لأنها فقيرة، انظر حولك يا أحمد تجد أن هذا الكلام صحيح، هناك فرق بين أن تذهب إلى محل فول وطعمية أو تذهب إلى مطاعم "خمس نجوم"، السيارات الحديثة التي تجوب الشوارع يستخدمها فرد أو اثنان على الأكثر، بينما الأتوبيسات مكتظة بالمئات ،والفيلات الفاخرة والمساكن المهدمة والأمثلة كثيرة، المال يا صديقي هو لغة العصر وليس الحضارة والقيم والمثل.

من أين جئت بهذا المفهوم، رغم ما نسمعه كل يوم من أحاديث في البيت والمدرسة، اين القناعة والرضا والتكافل الأجتماعي وكل وجوه الخير التى تحيط بنا.

قال: نحن جيل التليفزيون والدش والإنترنت وأفلام الفيديو والإعلانات، نجلس أمام هذه الإجهزه طوال النهار وجزءاً كبيراً من الليل، ألست منا يا حمادة؟!!

أنا فعلاً من جيل التليفزيون، أشاهده كثيراً أثناء الإجازة، وقليلاً أثناء الدراسة، لدينا فيديو وأشاهد الأفلام، وبعض الأحيان أردد أنا وأختي الإعلانات، ولكن لم يخطر ببالي ما قاله زميلي هشام ... هل هذا تخلف مني أم فطنة منه؟!!

انتهى اليوم الدراسي ورجعت إلى المنزل، ولكن صورة هشام وهو يتحدث وأسلوب كلامه لم يفارقا ذهني إنه بالفعل يصرف ببذخ ويتفاخر بأن والده يملك مصنعاً كبيراً "وفيلا" فاخرة وسيارة فارهة وغرفته مليئة بالألعاب وجهاز كمبيوتر وأدوات موسيقية وسفرهم دائم داخل وخارج مصر!!.

والدي ميسور الحال ذو مركز مرموق ويعمل جاهداً ليوفر لنا حياة كريمة، ولكنه لا يملك ما يملكه والد هشام، وأنا لا أنفق كما ينفق هو ولا أعيش مثله حياة رغدة...

انتبهت على صوت والدتي ... خذ يا أحمد هذه الحقيبه وانزل بها إلى عم صابر البواب، وكن حريصاً حتى لا يسقط منك ما بها.

الغرفة التي يسكنها عم صابر وزوجته وثلاثة أبناء في مثل مساحة حجرتي، تحتوي على سرير من الخشب وكنبة وبعض الأمتعة القليلة وضعت في دولاب من الصاج والأرض مفروشة ببقايا قطع من الموكيت مختلفة الألوان.

عند عودتي سألت والدتي، كيف يعيش عم صابر وأولاده وزوجته في هذه الحجرة، كيف يطيقون حر الصيف ويقاومون برد الشتاء، لا يذهبون إلى مصيف،ولا يستمتعون بحرارة الشمس وأولاده ليس لديهم من اللعب إلا ما يجود عليهم به بعض السكان ولا يتمتعون مثلنا بمباهج الحياة، ورغم ذلك فإنني أشعر أنهم سعداء، ابنته الكبرى في الثانوية التجارية وله ابن يعمل بإحدى الورش والابن الأصغر مثلي في المرحلة الإعدادية ويسبقني بعام.

هذه حكمة الله يا بني. جعل منا الغني والفقير، وجعلنا فوق بعض طبقات وقال رسولنا الكريم (عليه الصلاة والسلام):فيما معناه (ليس الغنى كثرة العرض -يقصد المال والسلطان- وإنما الغنى غنى النفس) المهم أن يكون الإنسان قانعاً برزقه راضياً بحاله شاكراً لربه، والأهم أن يكون رزقه من حلال ورضاه بصبر، فتتفتح له أبواب الخير ويسعد بأي شيء ويفرح لأقل هبة.

ولكنْ زميلي هشام يقول: المال هو كل شيء في زماننا هذا.

سمعت والدي يقول: المال يا أحمد مهم لقضاء الحاجة، ولكنه ليس كل شيء، إنه وسيلة لإدارة الحياة وليس غاية نسعى إليه ونكتنزه أو ننفقه فيما حرم الله. المال يا بني فتنة قد يبتلينا الله بها ويحذرنا منه.

وقال سبحانه وتعالى: "واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم" (سورة الأنفال٢٨)

يا والدي هل من الأفضل أن نكون فقراء ؟.

لا يا أحمد من يحرم زينة الله لعباده؟!، لقد أعطانا الله القدرة على الكسب، وأمرنا بالعمل والاجتهاد والسعي وأحل لنا الطيبات من الرزق، المهم أن نكتسب هذا المال من حلال وننفقه في مصارفه الشرعية، والمؤمن القوي خير عند الله من المؤمن الضعيف، وقد أمرنا الله ألا نترك أولادنا يسألون الناس. وقال الرسول الكريم "من أصبح منكم معافا في جسمه، آمنا في سربه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها" صدق الرسول عليه الصلاة والسلام.

أما صديقك هشام هذا فينطبق عليه قول المسيح عليه السلام "لا يستقيم حب الدنيا والآخرة بقلب مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد" وأسأل الله لك العفو والعافية، وقل لهشام لقد خلقت الدنيا لنا وخلقنا نحن للآخرة، فعلينا أن نأخذ من الدنيا زاداً طاهراً وعملاً صالحاً ينفعنا في دار البقاء الخالدة.

ثم ما أدراك أن والد هشام لا يقوم بأداء ما عليه من واجب ديني من زكاة وصدقة وحج، وسلوكه مع ولده يعتبر حنانا مفرطاً لصغر سنه، ليس من الضروري أن يكون كل غني غير عابد، فقد كان أبو بكر من أغنياء قريش ونعرف موقفه مع سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وكذلك عثمان بن عفان الذي قام بتجهيز جيش كامل في سبيل نصرة الإسلام وعمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين الأمير العابد الزاهد وغيرهم كثير وحتى في زماننا هذا.هناك الكثير من الأغنياء الذين يعرفون حقوق الفقراء في أموالهم ويؤدون زكاة المال ويبذلون الصدقات.

ذهبت إلى غرفتي وأنا أفكر في زميلي هشام الذي يحيا حياة رغدة وفي أولاد عم صابر وحياتهم، ونظرت إلى ما أنا عليه وأسرتي وإذا بي أصلي ركعتين لله شكراً وحمداً على نعمته عليَّ.

توجهت إلى المدرسة وقصيدة ابن النيل "تذكرت اسمها"، تراودني وفي فترة الراحة ذهبت إلى مكتبة المدرسة، عرضت على أمينة المكتبة طلبي للقصيدة، أحضرت كتاباً من سلسلة القراءة للجميع به بعض من قصائد الشاعر حافظ

إبراهيم متضمناً القصيدة وقمت باستعارته وتصفحته.

فى المساء بعد أن انتهيت من مراجعة دروسي جلست أقرأ القصيدة .. قرأتها عدة مرات، في كل مرة أشعر أنني أقرؤها لأول مرة، وأجد فيها معاني جديدة، فيها العهد الذي تحدث عنه الأستاذ إبراهيم وبها الدعوة لعدم اليأس من استرداد المجد كما قال الأستاذ شهدي، وبها الحث على بذل الجهد واتخاذ العلم سبيل للقوة والعزة والكرامة، والإيمان بأن الله لا يضيع أجر المحسنين كما قال الأستاذ محمد.

كيف مرت علينا هذه القصيدة مروراً عادياً ولم نعيها جيداً، ومن المؤكد أن هناك كثيرا من النصوص والآيات الكريمة، لا ترسخ داخلنا ولا تغير من مفاهيمنا ولا تنطبع في نفوسنا، ونعتبرها مجرد دروس يجب دراستها أو حفظها لمجرد تأدية الامتحان فقط واجتياز السنة ثم المرحلة.

كنت قد اشتركت في جماعة الصحافة التي تقوم بإعداد مجلة المدرسة والتي تصدر أسبوعياً ويشرف عليها الأستاذ محمد، وحتى الآن لم أبذل مجهوداً يذكر، فلماذا لا أكتب موضوعاً أتحدث فيه عن المواد الدراسية التي تمحى من ذاكرة الطالب بمجرد أداء الامتحان ..

ولكن كيف أبدأ؟..كما أبدأ موضوع التعبير، أضع عناصر ثم أتكلم عن كل عنصر .. إنه ليس موضوع تعبير إنما هو مقال كما سمعت وهذه هي المرة الأولى، سأصبح سخرية لزملائي إذا كان الكلام غير ذي قيمة أو غير مترابط أو به أخطاء لغوية.. سأحاول .. طريق الألف ميل يبدأ بخطوة والمجد صعب المرتقى .. لا أطلب مجداً .. فقط أريد توصيل فكرة أشعر بها طالباً وليس معلماً.

جلست إلى مكتبي وبدأت ..

أيها الزملاء الأعزاء .. لا .. لا أريد أن أتوجه بالحديث إلى زملائي وإنما أريد أن أحدث المعلمين .. هذا تفكير خاطئ، كيف أكتب إلى المعلم وهو صاحب الخبرة والدراية .. أين أدب الحديث ولباقة الخطاب "إنها مجلة الطلبة ولنا الحق في كتابة ما نشعر به وما نلحظه، فليكن خطابي إلى الجميع، وليكن العنوان "المجد صعب

المرتقى"

أيها السادة الكرام والإخوة الأعزاء

قال لنا الأستاذ إبراهيم إننا تخطينا مرحلة التلقين والحفظ، وصرنا في مرحلة التفكير والتدبير والملاحظة، وهذا ليس معناه أن نفكر ونتدبر ما هو آت ونترك ما قد مضى. وأنتم ترون معي أن مراحل التعليم تشبه الدرج ذو فواصل منتظمة، لا يمكن لطالب علم أن يتخطى أحد هذه الفواصل، فكل فصل دراسي يسبقه فصل ويلحقه آخر وكل مرحلة كذلك. ونحن الطلاب عندما ينتهي الامتحان نقذف بكتبنا في الهواء حتى قبل أن تظهر النتائج، وننسى ما قد حوته هذه الكتب من علم وأدب، ويغيب عنا المضمون الحقيقي للمادة ولا يتبقى في أذهاننا سوى القشور، حقاً في بداية العام الدراسي يتم مراجعة ما سبق، في اللغه العربية يتم مراجعة النحو وفي الرياضة مراجعة النظريات وفي الدراسات مراجعة العناوين، ولكن ما أعنيه هو لماذا لا يتم جمع النصوص الأدبية والموضوعات التي تحمل قيما أخلاقية والآيات التي تحث على التمسك بالعقيدة وتؤكد على مكارم الأخلاق في كتيب يوزع على طلبة المرحلة بفصولها الثلاثة عند الانتهاء منها أو البدء فيها، أو توضع في مكتبة المدرسة أو مكتبة الفصل إن وجدت .. لا أعرف إذا كانت هذه الفكرة صائبة أم خاطئة، ولا أعرف من هو المسئول الذي يمكنه دراستها، فقط أتمنى للطالب أن يجد ثلاث درجات من سلم المجد مجتمعة، فقد يصبح المجد سهل المرتقى .. وعلى الله قصد السبيل.

لقد بذلت جهداً كبيراً في كتابة هذه الكلمة وأعدت كتابتها أكثر من مرة وراجعتها مراراً وتكراراً حتى وصلت لما هي عليه وإن شاء الله أعرضها على الأستاذ محمد، وأرجو الله أن يتم نشرها.

فى الصباح وقبل ذهابي إلى المدرسة عرضتها على والدي الذي أعجب بها ولم يشأ أن يعدل فيها شيئا، وقال إنها أفكارك وأنت مسئول عنها، فإن أجازتها المدرسة ونشرتها تكون أنت صاحب الفكرة والرأي والتعبير وإن شاء الله سوف تنشر، ويبدو أنك ستكون مشروع صحفي كبير، وبالمناسبة هل قرأت الجريدة

التي اشتريتها منذ يومين .. قلت له .. لم أتمكن .. قال هل هناك صحفي لا يقرأ الجريدة .. تعلم يا بني ألا تشتري شيئاً إلا إذا كنت ستستفيد منه بالفعل.

عندما وصلت إلى المدرسة بحثتُ عن الأستاذ محمد في طابور الصباح .. بعد الطابور ذهبت إليه في غرفة المدرسين وعرضت ما كتبت عليه .. نظر إليها ملياً..

أنت كاتب هذا الكلام ؟!! نعم يا أستاذ!!

لم يساعدك أحد .. لا

إنها جيدة وسأعرضها على الأستاذ إبراهيم

غمرتني السعادة والفرحة .. وذهبت إلى الفصل، وأنا أتخيل زملائي يشيرون نحوي .. هذا أحمد كاتب المقالة في مجلة المدرسة.

إنها لم تنشر بعد .. ولكن الأستاذ محمد أوحىاليَّ بذلك.

جلست في مكاني يعتريني الزهو والفخر !!

تذكرت أن الله لا يحب كل مختال فخور فعدت إلى طبيعتي، كانت الحصة الأولى لغة إنجليزية وكان الدرس عن السياحة، قام الأستاذ يحيى بقراءة الدرس وشرح معاني الكلمات، وذكر أسماء بعض الأماكن السياحية والميادين باللغة الإنجليزية، ثم بعض الجمل التي يمكن بها الترحيب بالسائح وإرشاده .. ازداد شغفي لحصة الدراسات لنتكلم عن السياحة باللغة العربية.

الإنسان صانع الحضارة

دخل الأستاذ عبد الله الفصل، تخيلته مينا موحد القطرين، مقبلاً وعلى رأسه التاج بلونيه الأحمر والأبيض وبيده صولجان الحكم، لا أدري لماذا رأيته على هذا النحو، ملكا عظيما قادما من أعماق التاريخ ليعيد علينا سيرته.

سكون تام .. عيون شاخصة .. ذهن حاضر .. أسئلة كثيرة تنتظره.

درس اليوم في الجغرافيا عن موقع مصر على خريطة العالم، وبعد أن انتهى الأستاذ من شرح سطح مصر وأوضح ما به من بيئات وتداخلها وتنوعها وتكاملها وأهمية الموقع وما أضافته قناة السويس من تسهيلات لحركة الملاحة العالمية..

قفز إلى ذهني سؤال لم أفكر فيه من قبل ما هي أهمية شبه جزيرة سيناء؟

وعندما سأل الأستاذ كعادته .. هل عند أحدكم سؤال.

رفعت يدي .. تفضل يا أحمد.

بمناسبة الموقع الجغرافي الذي تفضلت بشرحه الآن .. هل الإنسان هو صانع الحضارة، أم الموقع والمناخ والبيئة والموارد الطبيعية؟

بقدر ما يبدو السؤال سهلاً إلا أن الإجابة عليه تحتاج إلى مجلدات ضخمة وموسوعات علمية لذلك سنحاول بشيء من التبسيط الإجابة عليه إن شاء الله.

سبق أن قلنا إن الإنسان هو أهم مقومات أي مجتمع، حضاري أو بدائي، وبصلاحه يصلح المجتمع وهو محرك أي مدنية ومفتاح كل تطور.

النيل ينبع من وسط إفريقيا وله روافد كثيرة ويمر بدول عديدة تشترك جميعها

بحوض نهر النيل، ولم تقم بإحدى هذه الدول حضارة تماثل حضارة وادي النيل في مصر .. ومناخ مصر تشترك فيه كثير من الدول التي تقع على نفس خط العرض من بحر الصين على المحيط الهادي في الشرق مروراً بالهند وإيران وجنوب العراق وجزء من الجزيرة العربية في آسيا ودول شمال إفريقيا حتى جبال أطلس بالغرب وعبور المحيط الأطلنطي حتى خليج المكسيك وهناك بيئات تشابه البيئة في مصر "رغم ندرتها"، ولكن لم تقم هناك حضارات .. أمريكا تلك القارة العظيمة المساحة الكاملة الموارد، كانت آهلة بمن أُطلق عليهم الهنود قبل أن يبيدهم الأوربيون، وأيضا لم تكن لهم حضارة وادي النيل، في الصين والهند واليابان وكوريا قامت حضارات ولكنها لم تكن مؤثرة كحضارة وادي النيل.

ومن ذلك نرى أن الإنسان هو العنصر المؤثر في تفعيل دور الحضارة لترقى ويصبح لها أثر تاريخي، الحضارة إنسان قادر بعلمه ورقيه وعمله وجهده على بناء الهرم والمعبد، ما فائدة طائرة بدون طيار أو مركب دون ربان أو كمبيوتر دون مبرمج، أما الموقع الجغرافي يساعد في تطور واستمرار هذه الحضارة وانطلاقها خارج الحدود، وفي مصر كان لموقعها المتفرد أكبر الأثر.

رفع حسين يده .. تفضل

نعرف أن السياحة هي انتقال الفرد من بلده إلى بلدٌ آخر، لفترة محدودة ولغرض ما، ونعرف أيضاً أن البيئات في مصر متنوعة مما يجعل مجالات السياحة متعددة وبحكم الموقع فنحن نقع في متوسط العالم وهذا يجعل خطوط المواصلات سهلة ويسيرة وأيضاً متعددة، وأنعم الله علينا بمناخ معتدل وسماء صافية على مدار العام، في مصر أكثر من ثلثي آثار العالم منها الفرعوني والبيزنطي والروماني والمسيحي والإسلامي كما أسلفنا وقطاع السياحة من أهم مصادر الدخل القومي .. كل هذا ولم نصل إلى أن نكون بلداً سياحياً مثل فرنسا مثلاً أو اليونان أو المغرب .. أو تركيا !! ونرى كثيراً من المصريين يتركون بلادنا وما فيها من طبيعة ساحرة وشواطئ جميلة ويتوجهون إلى هذه البلدان .. ترى ما هو السبب!!؟

نظر الأستاذ إلى حسين فترة وكأنه يستجمع قواه ويستعيد ذاكرته للإجابة على

سؤال أعتقد أنه لم يكن يتوقعه.

للسياحة مقومات عديدة، منها كل ما قلته ونضيف عليه أن مصر تعتبر أكبر متحف مفتوح للتاريخ على مستوى العالم،وبها من عوامل الجذب السياحي أكثر من أي مكان آخر، ولكن يوجد أيضا كثير من المعوقات وقصور في بعض المفاهيم ..

السياحة هي نوع من أنواع التجارة وهذا الشق لن يكون مفهوماً لديكم ولم يكن مهما لكثير من صانعي القرار إلى وقت قريب، ولكنه وكما قلت مصدر هام من مصادر الدخل بالعملات الأجنبية التي تسهم في تقوية الاقتصاد ودفع عجلة التنمية في أي بلد، لذلك فإن المنافسة شديدة وأصبحت شكلاً من أشكال الحرب تستخدم فيها كل الأسلحة، ورى مصر تسعى جاهدة لزيادة الاستثمارات في هذا القطاع الهام وتولي رعاية خاصة لترميم الآثار وتساهم في إقامة القرى السياحية في سيناء وعلى الساحل الشمالي من الإسكندرية إلى مطروح، وشرم الشيخ والغردقة وسفاجا على البحر الأحمر، وزاد الاهتمام بالترويج السياحي بإقامة الحفلات الأوبرالية بالأقصر والمؤتمرات وتنظيم السباقات الدولية والاهتمام بالخدمه الفندقية.

مصر يا أبنائي من أغنى بلاد الدنيا في كل شيء، غنية بنيلها وآثارها وصحرائها وشمسها وشواطئها، وشعبها الكريم المضياف من أنبل شعوب الأرض.

طلب مكرم الإذن .. تفضل.

نحن شعب كريم مضياف كما تفضلت ويقول الأستاذ محمد إن للإسلام قواعد شرعية لا جدال فيها ولا تفريط ."أنه من قتل نفسا بغير حق كمن قتل الناس جميعاً، ولا يحق لمسلم أن يروع آمن ولو كان كافراً" فلماذا تقوم بعض الجماعات بالاعتداء على إنسان آمن جاء إلينا مسالماً، وبدلا من أن نلقاه بالود والمحبة القبطية، والسماحة الإسلامية السامية وإظهار الكرم العربي الأصيل،إذا به يلقى العداء والترويع والقتل؟

يا أبنائي هذه فئة ضالة، أخذتها العزة بالإثم، لا تركن لأسس دينية سليمة ولا

قيم أخلاقية نبيلة، جماعة تختلق الأسباب الواهية وتستقطب النفوس الضعيفة، ليس لهم مبدأ يسعون لتحقيقه، ولا في سبيل رفعة دين ولا نصرة مظلوم، و سنعبر بإذن الله هذه الفترة العصيبة إلى غير رجعة.

الإسلام دين الاعتدال والوسطية وعقيدة تحمل كل معاني الخير وشريعة تهدف إلى نشر السلام والأمان، والمسيحيه دين الرحمة والمحبة والنقاء، وشريعة موسى الحقة لا تبيح ظلم الإنسان للإنسان ولا الاعتداء على حرمته ، الخير شريعة الله في الأرض والشر أفاعيل إبليس الذي يسلط اتباعه على عباد الله الآمنين.

ولماذا تقع مثل هذه الأحداث على أرضنا؟

يا أبنائي..

العالم كله شرقه وغربه شماله وجنوبه، في ظل الانحلال الخلقي والتردي الاجتماعي والمادية، والبعد عن منهج الله تجتاحه موجات من العنف الذي لا يبقي ولا يذر، ولكن على أرضنا فإنه له طابع خاص.

لقد عرفتم أن مصر تملك كنوزاً أثرية وكل شبر على أرضها يحمل أثراً لحضارة ما، ورغم ما تعرضت له هذه الآثار من نهب وسلب على مر العصور، إلا أن رصيدنا الضخم لم يتأثر، الأمر الذي جعلها قبلة السائحين على اختلاف جنسياتهم وعقائدهم ومحل اهتمام الدارسين للتاريخ الإنساني. وبعد الحصار السياسي الذي أعقب قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ وبدأ اهتمام الدولة بالآثار وإظهارها بصورة تليق بمكانتها التاريخية، ازدادت حركة السياحة العالمية والعربية تجاه مصر، وادي ذلك إلى رواج ونمو الاقتصاد وارتفع معدل التنمية واستعادت مصر جزءاً كبير من مكانتها على الساحة الدولية والعربية.

ولكن قوى الاستعمار والهيمنة كان لها رأى آخر، فهي لا تريد لمصر هذه الرفعة وذاك النهوض، وتعمل جاهدة لتعطيل آلية التقدم وكسر أي ترس بها، بهدف وقف هذه المسيرة .. وفي نفس الوقت تُظهر المجتمعات العربية والإسلامية بأنها مجتمعات جاهلية بربرية متخلفة. إنه أحد أنواع الهيمنة والغزو، الذي يهدف إلى زعزعة المجتمعات بانتشار المبادئ الهدامة، ومغافلة الشباب وخسر عقولهم

وتحويلهم إلى أجساد خاوية وأحاسيس متبلدة ونفوس مضطربة وأيدي مخضبة بالدماء.

من قال إن قتل الأطفال جهاد، وترويع الآمنين وقاية وهدم المجتمع حماية.؟؟!

وقانا الله شر هذه المحنة التي نرى آثارها المدمرة في أفغانستان ونسمع عنها في الجزائر وتداهم فلسطين وتهدد وحدة العراق، وأبعد عنا فتنة جنوب السودان والمؤامرات التي تحاك بلبنان، وإن شاء الله ستظل مصر آمنة، مصر التي تتعانق فيها المآذن والكنائس في وئام ومحبة،ولن تتمكن أي قوى مهما أوتيت من مكر وخديعة أن تزعزع إيماننا، ولن نحيد عن سبيلنا ، وستظل أرضنا أرض الأمن والأمان بشهادة الرحمن وها أنتم ترون أن حركة السياحة تزداد وتسود إلى طبيعتها وستصل بإذن الله إلى معدلات تفوق الدول التي ذكرها زميلكم حسين.

وقف عليّ يطلب الحديث

قال الأستاذ: ألن ننتهي من الأسئلة اليوم لقد أوشكت الحصة على الانتهاء .. تفضل

سنحت لي فرصة زيارة مدينتي الأقصر وأسوان في شتاء العام الماضي مع الأسرة، بهرتني ضخامة التماثيل واتساع المعابد ودقة النقوش على المسلات وهندسة المقابر والقاعات الجنائزية استمتعنا بالصوت والضوء، وفي أسوان شاهدنا معبد فيلة وحديقة النباتات، وشاهدنا السد العالي ذلك الصرح الحضاري الحديث، الذي ساهم في بث الحياة في جنوب الوادي وامتد أثره فشمل الوادي والدلتا،وساهم في ولادة وادي جديد بمفيض توشكى، وبعد انتهاء الزيارة شعرت أن التاريخ هوة سحيقة وكهف مظلم لن تنيره كهرباء السد العالي.!!

ضحك الأستاذ وقال:

هذا هو التاريخ، وسر عظمته ذلك الغموض الذي يكتنفه وتلك الهوة هي الفاصل الزمني الممتد بين بناء المعابد والهرم وبناء السد وشق مفيض توشكى.

لقد ظل التاريخ المصري مجرد طلاسم غير مفهومة ونقوش مبهمة إلى أن جاءت الحملة الفرنسية على مصر وعثروا على حجر رشيد، وتمكن العالم

الفرنسي شمبليون من فك رموز اللغة الهيروغليفية، وتحولت النقوش والطلاسم إلى لغة تقص مراحل التطور لأعظم حضارة عرفها الإنسان، ومن الغريب أن هذه الاكتشافات والتي لن تنتهي، لم تبدد حيره العلماء بل زادتهم شغفا وفضولا وأدخلتهم دهاليز المعابد وسراديب الأهرامات والمقابر ولم يخرجوا منها حتى الآن، وكما قال "عليّ" التاريخ كهف مظلم، وهوة كلما حاولت اجتيازها زادت اتساعاً، ولكنها طبيعة الإنسان ورغبته في ارتياد المجهول والبحث والتنقيب للوصول إلى حقائق الأمور. وهذا ما ينقص شبابنا ويفقدنا كثيرا من عناصرالفكر المستنير وسرعة التطور والابتكار، إن ما يعجبني فيكم جرأتكم على السؤال والحديث في أمور هي بعيدة عنكم وقد لا تهم كثيرا من شبابنا، عندما تجرأنا على الظلم قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وعندما رفضنا الإذعان والتبعية بنينا السد العالي وعندما أبينا الذل والهوان والهزيمة كان نصر أكتوبر العظيم١٩٧٣ وعندما قبلنا التحدي كان مفيض توشكى وشرق العوينات والإصلاح الاقتصادي .. وإذا أردنا المزيد علينا الخروج من ذلك الوادي الضيق وتعمير الصحراء واستصلاح الأراضي لتصبح فروعا جديدة للشجرة الأم ولتزيد مساحات الظلال الوارفة لشعبنا ومجتمعنا، علينا أن نحمل المعاول والفؤوس، نبحث وننقب في الماضي والتاريخ نستخلص العبر ونقف على أسباب التقدم كما قلت لكم من قبل ونعمق الإحساس بالانتماء لبلدنا وحضارتنا المتجددة .. أنتم مستقبل هذه الأمة وكما قال الأستاذ إبراهيم مازال عليكم عهد

دق جرس الحصة على غير ميعاد هكذا خيل لنا.

على وعد بلقاء الحصة القادمة لنكمل الحديث – قالها الأستاذ وهو يغادر الفصل.

تركنا وكل منا ينظر إلى الآخر وكأنه وضعنا في كهف مجهول خاو إلا من بعض الآثار نعرف أشكالها، أهرامات ومعابد ولكننا لا نتبين ملامحها.

في طريق عودتي من المدرسة، اخترت طريقاً غير مختصر، أخذت أنظر إلى المباني المتراصة، هذه عمارة حديثة البناء وذاك مبنى عتيق، هذه شجرة قوية تعانق

فروعها السماء، أوراقها كثيفة وارفة لابد أن تكون جذورها ممتدة في باطن الأرض، ترى متى زرعت؟ جدي كم عمره؟ وتلك القصص التي يحكيها لنا عن القاهرة القديمة وأحيائها، المشربيات والأرابسك والمساجد التاريخية، وسور القاهرة وأبوابه التي رأيتها مع والدي، وأسبلة المياه المنتشرة رمز الرحمة والتعاطف بين أبناء الشعب، والقلعة والكنيسة المعلقة، حصن بابليون والأضرحة، كل شيء أصبح له بعد زمني ويحمل قيمة تاريخية ومكانية. إنها الأرض التي أقلتني وحوت رفات أجدادي.

زاد شعوري بالانتماء للحي الذي أسكن فيه ومدرستي، أدركت انتماء جدي وحبه للحي الذي ولد به، وحنين أبي الدائم لهذا الحي الذي تربى فيه، وتهافت أمي على زيارة بلدتها بالريف وشعورها الذي لا تحاول أن تخفيه عندما نذهب لزيارة جدتي في بيتها المتواضع وانتماءنا جميعاً لبلدنا، لهوائه الذي نتنسمه، ونيله الذي يروينا ويطعمنا ويكسينا.

لقد أمدنا الله بسبل الحياة على أرض هذا الوطن، فلا أقل من أن نصبح عناصر فعالة لرقيه ونموه والحفاظ على كرامته ورفعته، هكذا يكون الانتماء.

هذا الشعور وجدته لا يختلف عند باقي الزملاء، هذا ما عرفته في اليوم التالي، وأصبح موضوع الآثار وتاريخ مصر محل نقاش بيننا، كل طالب يحاول أن يبرز ما لديه من معلومات أو يبدي رغبته في اكتساب معرفة إلى أن جاء موعد حصة الدراسات بعد أيام.

كنت قد تخيلتُ الأستاذ عبد الله من قبل الملكَ مينا، واليوم أنتظره أحمس، يركب عجلته الحربية يزين صدره بمفتاح الحياة، بيمينه سنبلة قمح وبشماله لفافة من ورق البردي، رافعاً رأسه عزيزاً شامخاً، وحصانه غير جامح.

أين انتهينا في الحصة السابقة؟

نحن لم نبدأ بعد فاستأذنت..

قال الأستاذ: المفروض أن لدينا منهجاً دراسياً يجب الانتهاء منه في موعد محدد، لأنكم تخضعون لاختبارات، لذلك ومن خلال الأسئلة سأقوم بشرح المنهج ،

وسيتم وضع اختبار شهري يرتبط بالمنهج الدراسي.

والآن ماذا تريد يا أحمد؟

حضرتك وضعتنا على أبواب كهف نريد جميعاً دخوله، وقلت لنا إنه يجب أن نتحلى بروح المغامرة وارتياد المجهول، فهل يمكن مساعدتنا في دخول هذا الكهف لاكتشاف ما به من آثار تحمل تاريخاً نشعر جميعاً أنه كنز نملكه دون أن نمسه أو نعرفه؟ ومهما كانت ظلمة الكهف فإن ضوء الشمعة يكون مبهرا.

تبسم الأستاذ وقال: هذا الإحساس جميل، وهذه فرصة طيبة لمعرفة بعض مفاتيح الحضارة في مصر، والكهف تعبير دقيق وملائم للتاريخ، وإذا كان لكل شيء بداية ولكل مدخل باب، فإن مصر بداية التاريخ المكتوب وبوابة العلم والمعرفة ومدينة التراث، ومن درس تاريخ مصر فقد درس تطور الحضارات، وهذا سر انتشار بعثات التنقيب من كل دول العالم، ينفقون أموالاً طائلة ويتكبدون مشاق هائلة ويلاقون مصاعب جمة، منهم من هو بغرض البحث العلمي ومنهم من هو بغرض الكسب المادي.

المهم كل مكان بمصر به أثر لحضارة قامت على هذه الأرض أو وفدت إليها واستقرت ثم ذابت في مياه النيل أو غاصت في بحور الرمال أو تاهت بين الجبال ومنها الذي غرق في مياه البحار، والإلمام بهذه الحضارات يحتاج إلى أعداد غفيرة، وسنين طويلة من البحث وأموال كثيرة وجهد عظيم ومثابرة. وهذا يفوق قدراتكم وإمكانياتي.

قال سعيد: اسمح لي يا أستاذي. إذا كان السائح يتحمل تكاليف باهظة ويتكبد مشاق السفر في سبيل المتعة أو الثقافة أو المعرفة وليرى جزءاً من آثار بلدنا، فنحن أحق منه وأولى ويجب علينا أن نتعرف على هذه الآثار.

أكمل عزيز: عندما ناقشت والدي أمس في تاريخ مصر وآثارها، عرفت أن تاريخنا يدرس في مدارس أوروبا وجامعاتها والحضارة الفرعونية وتاريخ الأقباط في الشرق والحضارة الإسلامية محل اهتمام العلماء والباحثين، وهناك مجموعات كبيرة من آثارنا في معظم متاحف العالم، وترتفع مسلاتنا في أكبر ميادين أوروبا

وأمريكا، كيف وصلت هذه الآثار إليهم؟

سبق وأن قلت لكم إن الحضارة المصرية القديمة لم تقم على اغتصاب شعب أو إذلال أمة، وتاريخ الأقباط في الشرق ناصع البياض والحضارة الإسلامية لم تعمد إلى القتل والتخريب والإبادة، والشرق أرض الخير والكنوز من التمر والبُر (القمح) قديماً إلى البترول والمعادن حديثاً .. ولما كانت الحضارة الأوربية جادة في سعيها للتحول من مجتمع بربري متناثر في العصور الوسطى وما قبلها إلى مجتمع مدني متحضر، وكانت هذه المجتمعات تفتقر إلى التراث المدني الذي يعمل على تخفيف حدة التوتر ويوقف النزاع والتناحر القبلي وتحتاج إلى قواعد تشيد عليها البناء الحضاري، فقد وجدت ضالتها أولاً في ميراث الدولة العباسية في قرطبة وإشبيلية وصقلية وغرناطة وما استنزفته من كنوز أثناء الحملات الصليبية على الشرق، ثم بعد ذلك تقاسمت فيما بينها ميراث الدولة العثمانية، وتوجهت الأنظار والأطماع إلى مصر أرضاً وشعباً وتاريخاً وتراثاً. فمنذ الحملة الفرنسية والتي تواصلت معها الحملات الإنجليزية، وفرضت الهيمنة والسيطرة الاستعمارية على مصر والعالم العربي، وكما نهبت الدولة العثمانية كنوز دولة المماليك ونقلتها إلى إسطنبول، نهبت الدول الاستعمارية التراث العربي والإسلامي والقبطي والفرعوني ونقلته إلى متاحف أوروبا وقصورها، وإلى أمريكا ومتاحف جامعاتها يحتفظون بها تحت دعوى أنها تراث عالمي.

لقد تعرض التراث المصري والعربي لأكبر عمليات السلب والنهب أثناء فترة الانتداب الإنجليزي وغياب السيادة الوطنية على البلاد، وقد اشترك في تلك الجرائم قناصل إنجلترا وفرنسا وألمانيا، وسنت قوانين فرضت على بلادنا، تمكنهم من نقل هذا التراث الفني والأدبي والاجتماعي والثقافي إلى بلادهم.

هل تفهمون ما أقول ..

نعم..

أرجو ذلك لأن ما سأقوله يحتاج إلى التركيز خاصة لمن هم في مثل أعماركم.

انتبه الجميع وكأنهم يستعدون لحل بعض الألغاز في كتاب الجيب، أو كأنهم

يتابعون فيلماً بوليسياً.

استكمل الأستاذ حديثه:

لم يقتصر الأمر على تهريب الآثار والتحف بل امتد إلى المخطوطات والوثائق لما تمثله من أهمية علمية ومعرفية وتاريخية وتنظيمية ذات قيمة عالية، لقد انتشرت هذه المخطوطات في مئات المتاحف كمرجع للدارسين والباحثين، هل تصدقون يا أبنائي أن المكتبة الأهلية بفيينا عاصمة النمسا تضم أكثر من خمسة عشر ألف بردية وأربعين وثيقة من الورق المقوى، جميعها تحكي تاريخ مصر الفرعوني، هل تعرفون أن مليون ورقة من الوثائق تعرف باسم "آداب الجنيزا" ذات قيمة تاريخية واجتماعية هامة لتاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي تسربت في ظل الاحتلال الانجليزي بمعرفة عالمية أمريكية، ووزعت على متاحف العالم ولم يتبق في مصر ورقة واحدة، حتى تاريخ الأقباط سرق من الأديرة والكنائس وهُرِّب إلى الخارج.

قال ميلاد:

لابد وأن هذه الوثائق تحمل أهمية ثقافية وعلمية وأدبية تسهم في تقدم أي مجتمع، وإلا لما اهتم الغرب بالاستيلاء عليها ليستعين بها في بناء وتشييد مجتمعه.

هذا هو ما أعنيه من هذا الحديث ... أن التراث التاريخي هو القاعدة للبناء الهرمي للوصول إلى القمة المنشودة.

قال عماد:

وهل يمكن استعادة هذه الوثائق والمخطوطات والآثار؟

نعم إن شاء الله فإن الدولة تسعى من خلال المنظمات العربية والعالمية لاسترداد بعض من تلك الكنوز بالطرق الدبلوماسية.

طلب وليد الإذن ... تفضل.

بحديث حضرتك الآن زاد تعلقنا بآثارنا وتراثنا، ولكن معلوماتنا ما زالت بسيطة، كيف يمكن إشباع رغبتنا في المعرفة والثقافة التاريخية والخروج من دائرة

أبي الهول وأهرامات الجيزة والكنيسة المعلقة ومساجد القاهرة وقلعة صلاح الدين بعد أن عرفنا الآن أن هذه الآثار ما هي إلا نقطة في بحر.

قام نادر قائلاً:

إن انتشار الآثار في ربوع مصر يجعل زيارتها شبه مستحيلة، والإلمام بها صعب المنال، وكما قال الأستاذ فإن ذلك يفوق قدراتنا ... خيم السكون على الجميع وشعرت أن حلماً يذهب، وحماساً متقداً يفر، وآمالاً عظيمة تحبط، وبصيص ضوء يتلاشى.

غاب الأستاذ بفكره يبحث عن وسيلة يوفق بها بين الرغبة العارمة التي سادت الفصل لمعرفة آثار مصر والقدرات المتاحة، جال ببصره في وجوهنا وكأنه يبحث فيها عن الحل.

المكتبة ...

توجه الجميع نحو مصدر الصوت

قال الأستاذ: ماذا تعني يا أحمد؟!!

قلت: بحكم ترددي على مكتبة الحي في الإجازة الصيفية والمكتبة المتنقلة ومكتبة المدرسة، لفت نظري وجود كتب كثيرة ومتنوعة عن الآثار والسياحة وموسوعات علمية عن جغرافية مصر، ويمكن من خلال قراءتها والاطلاع عليها معرفة الأماكن الأثرية وتاريخها.

بالفعل يا أبنائي فإن مكتبة المدرسة والمكتبات العامة عامرة بمثل هذه الكتب ويمكنكم الرجوع إليها.

عاد نادر للحديث: ولكنها يا أستاذ إما كتيبات بسيطة عن السياحة وعبارة عن إرشادات أو موسوعات علمية ضخمة لم نستخلص منها سوى بعض العناوين والصور الجميلة لضيق الوقت.

قال ماجد وهو جالس: هذه مضيعة للوقت، ويكفينا المواد الدراسية وما نعانيه في المذاكرة.

تغيرت نبرة الأستاذ ولم يوجه حديثه لماجد ...

يا أبنائي، القراءة والثقافة والمعرفة والبحث سبل رقي الأمم وتحضرها، إذا انحصر الطالب في حدود ما يحصله من تعليم ومقررات ووضع عقله في قالب صلب ضحلت معارفه وتجمدت لديه ملكة الابتكار وقلت ثقته بنفسه، لا يكفي الطبيب أن يكون طبيباً فقط وإنما نريده طبيباً عالماً، ولا مستقبل لمهندس قابع خلف مكتبه نريده مهندساً مبتكراً واسع الأفق، والصانع لابد أن يكون ماهراً متقد الذهن متقن العمل، وعلى المعلم أن يكون موجهاً تربوياً يسعى لاكتشاف الملكات الفكرية والمهارات الفنية لدى طلابه، ويعمل على إذكاء روح التنافس وتوظيف الفرد لصالح المجموع بحيث يُطبع الطالب مع التنافس الشريف وكبح الغرور والسعي إلى المراكز المتقدمة في جميع مناحي الحياة، وأنا لا أستهين بقدرتكم وأعلم مدى ذكائكم الفطري ويخطئ من يتعامل معكم على غير هذا النحو وهذه ميزة الطفل المصري الذي عانى كثيراً من أساليب التسلط وعدم تعدد الخيارات ... الثواب والعقاب مطلوب ولكن في حدود قدرات الطفل، الطاعة واجبة فيما يرضي الله وأيضاً في حدود قدرة الآباء والأمهات.

يجب يا أبنائي ألا يكون النجاح في الدراسة هو منتهى أملكم، فقد يكون ذلك سهلاً، ولكن التفوق والتميز يتوقفان على سعة الأفق والقدرة على تتبع مصدر المعلومة وسرعة استدراكها، والربط بين ما تحصلونه من علوم وما يحدث ويدور في المجتمع من أحداث عالمية ومحلية وهذا لا يتأتى إلا بالقراءة في مختلف المجالات.

مرة أخرى يدق الجرس على غير رغبة منا!

توجه الأستاذ إلى ماجد قائلاً: ماذا تقول الآن يا ماجد؟

أريد أن أكمل مسيرة والدي الطبية، فقد قالت لي والدتي إنه توفي قبل أن يكمل أبحاثه في الأمراض المتوطنة- رغم أنني لا أعرف معناها، وأعدك يا أستاذي أن أكون نموذجاً للطبيب المثقف العالم.

هذه هي الطاعة وهكذا يكون الوفاء، ومثلك تتمناه كل أم ويفخر بك كل

معلم ورحمةً لوالدك.

والآن على كل طالب أن يفكر في أسلوب يمكن من خلاله معرفة آثار مصر وإلى اللقاء في الحصة القادمة إن شاء الله.

انتهيت من تأدية واجباتي المنزلية وهي غير مثقلة .. اتصل زميلي "ميلاد" يسألني أن يحضر لنفكر معاً فيما طلب الأستاذ، أخبرت والدتي التي رحبت به واتفقت معه على أن يكون ذلك بعد صلاة المغرب.

ذهبت مع والدي إلى المسجد وفي طريق العودة سألني والدي ماذا بك يا أحمد؟ أراك مهموماً وذهنك مشغول هل هذا بسبب المقال الذي لم ينشر؟

لا يا والدي .. إنما طلب منا أستاذ الدراسات أن نجد وسيلة لإلقاء الضوء على آثار مصر وتاريخها.

وقف والدي في دهشة .. آثار مصر كلها وأيضا تاريخها، هل نسيت يوم جلسنا في بيت جدك وفشلنا جميعاً في توضيح جزء من تاريخ مصر. استكملنا السير.

ولكني أعتبر أن هذا الموضوع هام جداً بالنسبة لي، وجدير بالبحث والمناقشة.

إذاً عليك أن توصي والدتك بأن تعد لنا شيئاً نتناوله مما يطيب لها لنجلس معاً نفكر عسى أن نجد وسيلة سهلة.

قابلنا زميلي ميلاد ونحن نصعد السلم .. رحب به والدي وسأله عن والده ووالدته وأخواته، فوالدي ووالدتي على صلة طيبة بعائلته، نتبادل الزيارات، نشاركهم الفرحة بأعيادهم وهم كذلك، تجمعنا المحبة وحسن الجوار.

أحضر والدي كتاباً للخرائط من مكتبته المكتظة، وجلسنا أنا وميلاد أمامه، انظرا معي هذه حدود مصر الجغرافية تمتد من رفح في الشمال الشرقي إلى السلوم في الشمال الغربي على البحر المتوسط، مارة بالعريش وبور سعيد ودمياط ورشيد والإسكندرية ومطروح وسيدي براني إلى السلوم على الحدود الليبية، ومن السلوم إلى جبل العوينات في جنوب غرب الصحراء الغربية بما في هذه الصحراء من واحات مثل واحة سيوة والواحات البحرية والواحات والداخلة والخارجة

بالوادي الجديد وفي الشمال منخفض القطارة وفي الجنوب هضبة الجولف الكبير، ومن جبل العوينات إلى حلايب وشلاتين في الجنوب الشرقي على حدود السودان، ومن حلايب وشلاتين إلى السويس على البحر الأحمر وخليج السويس، مروراً برأس بناس ومرسى علم والقصير وسفاجا والغردقة وبور توفيق ومدن القناة، ومنطقة جبل غارب وجبل الجلالة بالصحراء الشرقية. وهذا النيل يسير مختالاً من بحيرة ناصر بأسوان في الجنوب إلى مصبه في فرعيْ رشيد ودمياط ومئات المدن وعشرات المحافظات تقع على ضفتيه.

هذا عن الجزء الإفريقي، أما عن الجزء الأسيوى، فها أنتم ترون شبه جزيرة سيناء شمالاً على البحر المتوسط وجنوباً على البحر الأحمر بين خليجيْ العقبة والسويس، وما أدراكم ما تعنيه سيناء لمصر عسكرياً واقتصادياً ودينياً، للمسيحية والإسلام وأظنك تعرف ذلك جيداً يا ميلاد.

كل هذه المدن التي تمر عليها عيناكما على هذه الخريطة معبقة برائحة التاريخ وبها كنوز أثرية هامة، كيف يتسنى لكم أن تجمعوا كل هذه المتاحف على بضع ورقات وهو ما ينوء به أولو القوة .. مرة أخرى أحس أن حلمي يتبدد .. قالت والدتي وهي تضع عصير الفاكهة وبعض الحلوى، وبعد أن نظرت إلى وجهي الذي علاه الوجوم.

يمكنك يا أحمد أن تقوم بعمل دراسة يساعدك فيها والدك أو تشترك مع بعض زملائك في عمل بحث عن الآثار.

خطرت لي فكرة لماذا لا يقوم كل طالب بعمل بحث عن إحدى الحضارات.؟

قال ميلاد: سيكون ذلك صعباً على طالب واحد.. يمكن تقسيم الفصل إلى عدة مجموعات تقوم كل جماعة بإعداد بحث عن إحدى الحضارات، وارتاح الجميع لهذه الفكرة.. وعاد ميلاد إلى منزله

ذهبت إلى النوم بعد أن صليت العشاء وأنا في شدة الشوق لظهور الشمس ..

فى اليوم التالي انتظرت زميلي ميلاد وذهبنا إلى الأستاذ عبد الله في غرفة المدرسين لنعرض عليه الفكرة، رحب بها على أن تطرح ضمن أفكار الزملاء. في

الحصة..

غداً موعد صدور مجلة المدرسة، ترى ماذا فعل الأستاذ محمد بالمقال الذي كتبته .. هل عرضه على الأستاذ إبراهيم! هل وجد أنه غير ذات قيمة فطواه وعرف طريقه إلى سلة المهملات!!

رأيت الأستاذ محمداً يدخل الفصل فتوقف فكري وزادت ضربات قلبي، لا أعرف لماذا انتابني هذا الشعور.

بدأت الحصة ولم يلتفت الأستاذ نحوي ولم يكلمني، للمرة الثانية يخيب ظني اليوم بعد أن اعتقدت أن الأستاذ عبد الله سيطير بنا فرحاً عندما عرضنا عليه الفكرة.

انتهت الحصة وكانت في النحو، وعندما هم بالانصراف قال .. في حصة التعبير والإنشاء القادمة مطلوب من كل طالب أن يكتب موضوعاً عن النهضة في مصر، وعلى كل طالب أن يختار جانباً من جوانب النهضة الزراعية أو الصناعية أو الاقتصادية أو السياحية وسيكون ذلك على مستوى الصف الأول بالمدرسة وأفضل موضوع سيتم نشره في مجلة المدرسة. بجوار مقال زميلكم أحمد أول الشهر القادم إن شاء الله.

كاد قلبي يتوقف هذه المرة من الفرحة! وما لبث أن غادر الأستاذ الفصل حتى التف حولي كل الزملاء. ماذا كتبت؟ متى كتبت؟ عما كتبت فأخبرتهم بموضوع المقال..

همزني بعضهم ولمزني البعض الآخر وأبدى بعضهم عدم الاهتمام، إلا أن الجميع ظهر عليهم الجد والتصميم على أن يكون موضوعه هو الأفضل حتى ينشر في المجلة.

تعلمت ألا أختال ولا أفخر، ولكني فرحان، أريد أن أطير إلى منزلنا، يد تطرق الباب والأخرى على الجرس حتى فتحت والدتي الباب فزعة، قفزت إلى صدرها تاركاً حقيبة المدرسة، ضمتني بشدة وهي لا تعرف سر هذه السعادة التي تغمرني.. وانهلت عليها بسيل من القبل، اليوم أسعد يوم في حياتي.. لم أنتظر

سؤالها.. سينشر مقالي في "جريدة" أقصد مجلة المدرسة.. شاركتني والدتي وأختي فرحتي.. وقالت صينية كيك بالشكولاته التي تحبها لك اليوم. احتفالاً بهذه المناسبة السعيدة. شكرتها وأسرعت إلى مكتبي أخرج مسودة المقال وجلست أقرؤها أكثر من مرة وأدخل عليها بعض التعديلات وأغير من ألفاظها، وتمنيت أن تكون أكبر مساحة وأكثر دقة.. ولكن الأمر انتهى وستكتب كما أرسلتها.

أحضرت أختي الحقيبة التي تركتها على باب المنزل .. وداعبتني ببعض الكلمات..

في المساء عاد والدي وكنت قد طلبت من والدتي أن يعلم بهذا الخبر مني، ولكني وجدته يدخل غرفتي مهنئاً، نظرت إلى والدتي معاتباً، أخبرتني بأنه علم من أختي، فنظرت إليها غاضباً.

اقترب مني والدي قائلاً ألم أقل أنك مشروع صحفي.

جلست إلى مكتبي لأختار موضوعاً .. فيم أكتب؟ .. الموضوعات كثيرة .. ولكن مفيض توشكى يعتبر أحدث مشروع قومى وأفضل سبيل لمواجهة تحديات القرن الواحد والعشرين وما رأيته في التليفزيون واهتمام الرئيس حسني مبارك به يدل على أهميته لأنه سيسهم في إيجاد فرص عمل لكثير من الشباب، ويمثل نهضة زراعية وصناعية واقتصادية وسيغير من خريطة مصر السكانية وسيساعد على الخروج من الوادي الضيق إلى درب الأربعين وشرق العوينات وستوجد مجتمعات سكانية في الصحراء الغربية، لكنه يحتاج لجهود جبار وموارد مالية واستثمارات كبيرة، وأهم ما فيه هو تخلص شبابنا من قيود العمل الروتيني وانتظار العمل بالحكومة وتحليهم بروح التحدي والمغامرة .. ولما لا وأجدادهم أقاموا الأهرامات وآباؤهم حفروا قناة السويس وإخوانهم بنوا السد العالي، إنه مشروع يستحق الكتابة فيه ولكن قبل أن أكتب لابد من ترتيب العناصر وتوفير بعض المعلومات.

على غير العادة لم يغادر الزملاء الفصل فترة الراحة، (لا بيبسي ولا شيبسي)، أخرج بعضهم ورقة بها الأفكار، وكنت أتخيل أنني الوحيد الذي أفعل ذلك

والجميع في انتظار بدء حصة الدراسات.

دخل الأستاذ الفصل وفي حاله غير مسبوقة، حدثت جلبة وهمهمات، كل طالب يريد أن يأخذ مبادرة الحديث وعرض فكرته عن الآثار وتعالت الأصوات وزادت الجلبة .. في حزم طلب الأستاذ من كل طالب أن يجلس في هدوء واتباع أسلوب متحضر في عرض فكرته.

فى نظام تم استعراض جميع الأفكار، ونالت فكرتي أنا وميلاد الاستحسان، إلا أن وائلاً قال لماذا لا يقوم كل طالب بإعداد بحث عن محافظة، يجمع ما بها من آثار ويرسم لها خريطة مع نبذة عن تاريخها، وأجمع الطلاب على رجاحة هذه الفكرة وسهولة الوصول إلى المعلومة التاريخية.

وكانت للأستاذ الكلمة الأخيرة. لماذا لا يقوم كل طالب بإعداد بحث عن المحافظة التي ينتمي إليها. فأكثرنا ليس من القاهرة وإن ولد بها، وكل منا له جذور عائلية في إحدى المحافظات، وبذلك يعود كل طالب للبحث عن تلك الجذور في بلدته ومحافظته بعد أن تغرب الكثير منا، وأصبحت بلدته مجرد منشأ لا يعرف عنها إلا القليل، وقد تكون هذه الفكرة وسيلة لإعادة الصلات العائلية وتواصل الأرحام.

تهلل الجميع وظهرت السعادة على الوجوه.

قال شريف: هل يمكن اشتراك أحد من الأسرة في ذلك البحث؟

وكيف ستكون إذن صلة الأرحام إذا لم تشارك الأسرة كلها في هذا، ولكن عليك أن تتأكد من مصادر معلوماتك، فأنت المسئول عن البحث، وكلما تعددت مصادرك زاد بحثك قيمة وإقناعاً، على أن يكون بخط واضح والأحداث التاريخية مرتبة وموثقة، وليكن في معلوم الجميع أن ما بالكتب المدرسية يعتبر ملخصاً بسيطاً حتى لا يركن أحد إلى النقل منها.

أنت يا أحمد بما لك من نصيب وافر في هذه الفكرة عليك بإعداد كشف بأسماء زملائك، مدون فيه الاسم والمحافظة التي سيكتب عنها، مدة البحث شهران، ومرة أخرى أنبهكم ألا يشغلكم هذا عن المواد الدراسية المقررة وإنما سنعتبره

أسلوبا جيدا لقضاء وقت الفراغ فيما يفيد، وسأكون مستعداً لأي استفسار أو توضيح، وسيتم الإعداد للقاء أسبوعي كل يوم خميس بعد انتهاء اليوم الدراسي لعرض ما وصل إليه كل طالب ويمكنكم تبادل المعلومات .. كل ذلك سيتم بعد عرض الأمر على إدارة المدرسة.

عدد تلاميذ الفصل ٣٠ وعدد المحافظات ٢٦ محافظة وظهر أن أكثر من طالب ينتمون إلى محافظة واحدة وبعض المحافظات مثل القاهرة الكبرى والإسكندرية وقنا وأسوان بها كم كبير من الآثار والأماكن التاريخية يفوق قدرة طالب أو اثنين أو حتى ثلاثة.

وضعت هذه الملاحظات أمام الأستاذ الذي قام بترتيب المحافظات وتوزيعها على الطلاب بما يتفق وانتماءاتهم وقدرتهم، وأخبرنا أن إدارة المدرسة وافقت على لقاء الخميس تحت إشراف أحد الأساتذة المتخصصين في الأنشطة الثقافية، وأضاف أن الأستاذ إبراهيم اعتبر أن هذا البحث أصبح تكليفاً من الإدارة مع الوعد بتقديم يد المساعدة وتوفير المراجع والكتب وفتح المكتبة بصفة دائمة وإتاحة مصادر للمعلومات مثل الكمبيوتر والإنترنت.

وأنه سيتم تقييم هذه التجربة وأفضل بحث ستخصص له جائزة .. وإذا نجحت التجربة وظهرت لها قيمة علمية سيتم تعميمها على المدرسة بصور مختلفة وفي موضوعات متنوعة، والآن أصبح الأمر بأيديكم.

إن نجحت التجربة فإن ذلك سيكون أمراً عظيماً ويصبح كل منكم جدير بما تحمل من مسئولية، وإذا أخفقتم تكون مجرد محاولة نعاود بعدها مرة أخرى بأسلوب أفضل، ولكني أجدكم جميعاً قادرين على إنجاح هذه التجربة وتكونوا بذلك قد وضعتم أقدامكم على أول الطريق لمستقبل باهر ومكانة مرموقة، أملي فيكم كبير والله معكم فإنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

كنا جميعاً متحمسين لهذه الفكرة والآن تحملنا مسئولية إنجاحها وسنبذل في سبيل ذلك كل جهد مستطاع.. انطلق الجميع كل في اتجاه ولكن الهدف واحد، وهو دخول كهف التاريخ وفتح بوابات مصر والتنقيب في تراثها للبحث عن

كنوزها التي نعرف عنها القليل وغيرنا يعرف عنها الكثير.

اجتمع مجلس الآباء، وهو اجتماع شهري تناقش فيه أمور الطلاب للوقوف على المستوى الدراسي والأخلاقي، ويتم فيه التعارف بين أولياء الأمور.. هذه المرة كان للاجتماع طابع خاص واهتمام مشترك، وكان موضوع البحث هو محور اللقاء.

اختلف أولياء الأمور بين مؤيد ومعارض، ولكن أجمع الحاضرون على أن هناك شيئا ما تغير في هذه المجموعة من الطلاب، شيئا أكسبهم الجدية في العمل وصرفهم عن اللهو والمعاكسات الطفولية، وجعل ترددهم على المكتبات منتظماً وكثرت قراءاتهم وزادت لديهم الثقة والاعتماد على الذات، وصارت لديهم القدرة على إيجاد حلول لما يصادفهم من مشكلات على مستوى الأسرة، وغير ذلك من الخصال الحميدة، مثل التعاون وآداب الحديث والورع والصلاح.. لكن قلق أولياء الأمور كان مصدره الخوف أن يطغى هذا البحث والاهتمام به على باقي المواد الدراسية، خاصة وأن الجميع رفض فكرة الدروس الخصوصية. بالإضافة إلى ازدياد رغبتهم في السفر إلى البلاد والقرى التي ينتمون إليها.

كانت لفتة ذكية من الأستاذ عبد الله عندما طلب من جميع مدرسي الفصل حضور هذا الاجتماع، فقد وضح من خلال المناقشات أن المستوى الدراسي لجميع الطلاب في تقدم مستمر، وزادت لديهم القدرة على التحصيل واتساع الأفق وسرعة استدراك المعلومة وحضور الذهن والمشاركة الفعالة أثناء مناقشات الدروس وانعدام المشاغبات، وأدى ذلك إلى ارتقاء مستوى هذا الفصل وأصبح مثالاً للانضباط وارتفاع المستوى العلمي والثقافي والرياضي.

انصرف أولياء الأمور وهم في سعادة واطمئنان وتحول قلقهم إلى مشاركة فعالة في البحث وبدأت الزيارات إلى القرى والنجوع والكفور والمدن لإعادة اكتشافها للأبناء، أما الآباء فقد عادت العلاقات بينهم وبين عائلاتهم وتواصلت الأرحام، وساهموا في المشاريع الخيرية، واتسعت دائرة الحوار بين كل من لهم صلة بهؤلاء الطلاب وتولدت بينهم الألفة والتقارب، ووصل الأمر إلى أنهم كانوا سبباً في حل

النزاعات بين الأسر في ريف الشمال وصعيد الجنوب وتناسي الخلافات، وكان لهم أثر في كل مكان تواجدوا فيه.

صار لقاء الخميس "بتعبير قاله الأستاذ" ورشة عمل، وشبهنا بخلية النحل، لا يوجد بيننا متكاسل فقد قامت الغيرة العلمية بإشعال التنافس الشريف الذي ساهم في تلاحمنا، وأمطرت سحب المعرفة ليس في التاريخ فقط وإنما في كل العلوم، تعاملنا مع الكمبيوتر بصورة أفضل ونبه الأستاذ إلى ضرورة الاشتراك بشبكة الإنترنت بإشراف مدرس الكمبيوتر، وزاد فيض المعلومات حتى إننا قمنا بعمل مقارنة بين حضارات الشرق والغرب والشرق الأقصى، لم أتخيل أنني سأحصل على هذا الكم الضخم من المعلومات في هذه السن، عرفت الكثير من المصطلحات العربية والأجنبية والهيروغليفية، وأصبح زميلنا هيثم في قمة النشاط بعد أن انخرط معنا وترك مظاهر الزهو والفخر وكان عوناً لنا في استخدام الكمبيوتر، وأصبح العلم والثقافة هما ثروته التي يترفع بهما، واقتنع أن المال مهما كان حجمه فهو إلى زوال وإنما العلم والرضا ومساعدت الناس هي الثروة الحقيقية والباقية طول الزمان.

صار لكل منا محافظة تاريخية تعرف باسمه ولديه معلومات غزيرة عن باقي المحافظات.. تعاونا معاً في إقامة من تعثر في بحثه دون إنقاص من قدره ومجهوده، وصار كل منا مثالاً طيباً لزميله والأساتذه قدوة وموجهون.

نشعر بأن روح الأستاذ إبراهيم تحفظنا وترعانا وكلمات الأستاذ محمد وسلوكه سراج يهدينا وعين الأستاذ يحيى ترقبنا وكثيراً من المدرسين يمدونا بيد العون والمساعدة كلما أمكن ذلك، أما الأستاذ عبد الله كان معنا، يسبقنا كلما هرولنا، يهون علينا عندما يصيبنا الإرهاق، يستمع لهذا ويوجه ذاك، فاق جهده عطاءنا، ورحب صدره لنفورنا في بعض الأوقات وذلل لنا كثيراً من المصاعب والعقبات، حتى عمال المدرسة قاموا بدعوة بعض الطلبة إلى بيوتهم في القرى النائية.

كلنا فخور بما أنجز، سعيد بما حقق، راض بما بذل، هانئ بما حصل عليه من ثقافة ومعرفة زادته رفعة وثقة واعتزازا، وكانت قمة المجد الذي ارتقيناه عندما

كتب كل طالب اسمه في نهاية البحث تحت عبارة

"أعد هذا البحث الطالب" ...."

اجتمعنا والأستاذ عبد الله قبل انتهاء الفترة المحددة، قام بجمع الأبحاث وترتيبها حسب أبجدية المحافظات في ملف واحد، ونظر إلينا قائلاً:

يا أبنائي أنا فخور بكم، سعيد بما أنجزتموه، وكفانا جائزة ما أشعر به من بشر وفرحة على وجوهكم، وحب جمع بينكم على اختلاف طبائعكم وعقيدتكم، وتعاون بنَّاء جعل الجميع وحدة واحدة متكاملة. وما اكتسبته أنا من العمل معكم، كنت مخطئاً عندما ساورني الشك في قدرتكم. عاد لى شبابي وتفتح ذهني للأشياء وتداعت لي خواطر لم تكن لتراودني لولا هذه التجربة المفيدة والتي عادت على الجميع بالنفع، وإن شاء الله ستكلل جهودكم بالتوفيق وينال هذا البحث "لا أقول الأبحاث" تقدير واهتمام القائمين على العمل التربوي والمهتمين بنشر الوعي الثقافي والحضاري.

والآن يجب أن تختار له اسماً، فماذا تقترحون؟

تشابكت الأيدي صاعدة "مصر تاريخ وتاريخ " وكأننا اجتمعنا على هذا الاسم بقلوبنا وعقولنا اسم جميل ومعبر ويوضح أن لمصر "تاريخا يقرأ ويرى ويقص، وتاريخا يفهم ويؤثر ويحس" وهما جوهر الإنسان المصري منذ بدء التاريخ وحتى يرث الله الأرض ومن عليها .

قال الأستاذ: يجب أن تختاروا فيما بينكم مجموعة تقوم معي بتجميع هذه الأبحاث في كتيب واحد، ليمكن تقييمه كما قال الأستاذ إبراهيم وليكن اسمها "مجموعة التنسيق"

أبدى جميع الزملاء الرغبة في الاشتراك في هذه المجموعة، وانتهى الرأي بيننا إلى اختيار خمسة فقط، كانت لديهم القدرة على القيام بهذا العمل وبصورة طيبة، ولكن كان ينقصنا أسلوب العرض.

اجتمعت المجموعة وكنت أحدهم وبدأ النقاش، هل يتم التنسيق بحيث نعرض حضارة مصر على أساس العصور بالترتيب من العصر الفرعوني حتى العصر

الحديث .. أم تنسق بطريقة عرض المحافظات والبقاع التي توجد بها آثار .. ولما كان البحث موضوعه هو حضارة مصر أرضاً وشعبا، والآثار شاهدة على ذلك. فقد انتهينا إلى أن يتم عرض كل محافظة وأهميتها التاريخية وما بها من آثار.

اتفقنا مع الأستاذ عبد الله على أننا سنعد البحث بأن نتخيل أننا قمنا برحلة في ربوع مصر من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها ، نرى ونعتبر ونلاحظ ونسجل.

وافق على الفكرة وبدأت الرحلة.

مصر أرض الحضارة

سيناء :

الأرض المقدسة، أرض الحروب والسلام وملتقى الأديان، أرض الطبيعة والجمال، أرض النحاس والفيروز، معبر الحضارة وجسر التجارة، طريق حورس وخروج موسى ، ملاذ الرهبان ومقبرة الغزاة ومسار المحمل، تلك الأرض التي حظيت باهتمام كل صنوف البشر على اختلاف عقائدهم منذ فجر التاريخ والتي لا يوجد لها مثيل على أرض الله من حيث الأهمية(الدينية والاقتصادية والعسكرية).

الاتساع الهائل لهذه المنطقة "الأسيوية" من مصر الإفريقية، جعل بداية الرحلة محل نقاش وحوار بين المشرفين على الرحلة، واشترك في هذا النقاش مجموعة التنسيق من الطلبة.

من أين نبدأ الرحلة؟

هل نبدأ من الطريق الذي سلكه موسى عليه السلام عند خروجه ببني إسرائيل من " فنطير" وعلى بعد أربعة أميال شمال فقوس بمحافظة الشرقية في اتجاه الشرق إلى سقط "الصالحية" حالياً إلى تل أبو صيفة شرق القنطرة ثم إلى بحر الغاب (بحيرة المنزلة حالياً) ثم إلى جنوب سيناء بحثاً عن الماء، ثم صحراء التيه بوادي فرندل ثم وادي فيران وصولا إلى جبل سربالة ثم جبل موسى.

أم ترى ستسير الرحلة على طريق المحمل (طريق الحج) طريق التجارة القديم الذي كان يبدأ من ميدان القلعة بالقاهرة، هذا الطريق الذي استخدمته شجرة الدر عام ١٢٤٨م مع قافلة الحجاج إلى مكة المكرمة ويبدأ من عجرود جنوب غرب

السويس ومنها إلى النواطير الثلاثة ثم جنادل حسن فنخل عاصمة سيناء القديمة فبئر قريص فالعقبة، وفي عام ١٢٦٦م استخدمه الملك الظاهر بيبرس عندما أمر بإرسال المحمل (كسوة الكعبة المشرفة) بصحبة قافلة الحجيج، فسمي هذا الطريق بطريق المحمل.

أم ترى سنبدأ الرحلة من أقدم الطرق المعروفة في سيناء وهو طريق حورس (الطريق الحربي) الذي يبدأ من شرق القنطرة ثم يتجه شمالاً إلى تل الحيرة جنوب الفرما إلى رمانة ثم إلى الحصن (القطية حالياً) فبئر العبد ثم إلى العريش، فالشيخ زويد ثم رفح، وقد اكتسب هذا الطريق أهمية تاريخية منذ سلكه تحتمس الثالث واجتازه قمبيز ملك الفرس لغزو مصر سنة ٥٢٨ ق.م واستخدمه الإسكندر الأكبر عندما غزا الشرق ومصر عام ٣٣٣ ق.م، على هذا الطريق التقت جيوش كليوباترا وبطليموس لمواجهة بومبي القائد الروماني، وهو طريق الفتح العربي الإسلامي بقيادة عمرو بن العاص، وهو طريق صلاح الدين الأيوبي لتحرير بيت المقدس، وطريق سيف الدين قطز لوقف خطر المغول.

ولما كان الاتساع لسيناء هائلاً كما قلنا فقد انتهى الرأي إلى استخدام "أتوبيسين سياحيين" قامت بتوفيرهما إحدى شركات السياحة، ومع كل "أتوبيس" مرشد سياحي، على أن يكون مسار الرحلة حسب رؤية المرشدين السياحيين، فهم ذوو خبرة سياحية..

تم التجهيز للرحلة بعناية، وفي الميعاد المحدد تجمع طلاب فصلنا كلهم وأضيف إليهم أوائل المرحلة الإعدادية على مستوى المدرسة وعدد من المدرسين، الساعة لم تتجاوز السابعة صباحاً... صاحب أولياء الأمور أبناءهم للاطمئنان عليهم.

قمت بالعديد من الرحلات من قبل مع المدرسة منذ المرحلة الابتدائية وحتى الآن، زرنا أماكن كثيرة أنا وأسرتي، ولكن هذه المرة الرحلة طويلة ستستغرق عدة أيام، ولأول مرة أبتعد عن أسرتي، خالجني شعور بالغربة قبل أن نتحرك ولكنه تضاءل أمام حب المغامرة و والرغبة في ارتياد المجهول.

محافظة السويس..

تحركت السيارات مخلفة أولياء الأمور يدعون لنا بسلامة العودة... القافلة تتجه إلى الشرق عبر الطريق الصحراوي في اتجاه مدينة السويس، تلك المدينة الباسلة التي قرأت عنها الكثير وسمعت عنها أكثر، اقتربت من الأستاذ عبد الله الذي بادرني بالحديث ... إن شاء الله تكون سعيداً يا أحمد، أتمنى ألا تكون هذه الرحلة للاستمتاع فقط، وإنما للسفر فوائد كثيرة منها الثقافة والمعرفة ...

الحمد لله... وسأحاول أنا وزملائي أن نستفيد من هذه الرحلة.

وأردفت قائلاً: لقد عرفنا عن السويس من خلال دراستنا أشياء كثيرة، فهل هناك أشياء لا نعرفها عنها؟

المعلومات التي تحصل عليها عن مدن مصر تأتيك متدرجة حسب كل مرحلة.

كانت السويس قديماً تسمى" تل القلزم " وهو مكان حي الأربعين حالياً، والقلزم باللغة اليونانية تعني (الموقع المغطى بالماء) وقد تكون تحريفاً لكلمة (كليسنما) وتعني ملتقى البحرين، (ماء البحر الأحمر ومياه الفرع البيلوزي لنهر النيل)، ويحتمل أن يكون هذا هو المكان الذي أشار إليه القرآن الكريم باسم مجمع البحرين في قصة سيدنا موسى عليه السلام وفتاه في سورة الكهف، أما كلمة السويس فقد ترجع إلى لفظ أسواس الي تعني الطبقات الملحية في اللغة العربية.

قناة السويس..نعرف أن فكرة شق قناة لتوصيل البحر الأحمر بالبحر الأبيض قديمة، فمنذ متى طرحت الفكرة حتى جاء دليسبس وأشرف على حفرها ،كانت المحاولة الأولى لربط البحرين في عصر الملك (نخاو)، وذكر هيرودوت أنه بدأ في حفرها وهلك من المصريين أكثر من مائة وعشرون ألفاً، إلا أنه توقف عن إكمال المشروع بسبب اعتقاده أن الفرس المغيرين سوف يستفيدون منها، وتم شق القناة في عهد (داريوس) الفارسي وتطورت في العصر البطلمي، وتعطلت في العصر الروماني، وبعد الفتح الإسلامي قام عمرو بن العاص بتجديد القناة القديمة من الفسطاط إلى القلزم (السويس) وسميت بقناة أمير المؤمنين لتصدير القمح

والمنتجات المصرية، ثم أهملت مرة أخرى حتى تم اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، الأمر الذي دفع أهل البندقية إلى إعادة التفكير في استخدام القناة لإحياء طريق التجارة القديم، وكان ذلك عام ١٦٧١م ولم يتم المشروع، ثم عاد السلطان مصطفى الثالث وفكر في شق القناة وكذلك علي بك الكبير، وأثناء الحملة الفرنسية على مصر اعتقد (لوبيز) كبير مهندسي نابليون أن مستوى سطح البحر الأحمر أعلى من مستوى سطح البحر الأبيض بمقدار ٣٣ قدما وكان هذا الاعتقاد خاطئا، وفي عام ١٨٣١م جاء دليسبس إلى مصر، وبعد عدة دراسات مع خبراء من جنسيات مختلفة، قدم المشروع إلى سعيد باشا في عام ١٨٥٦م، بدأ التنفيذ عام ١٨٥٩م وتم الافتتاح في مهرجان ضخم في ١٨٦٩/١١/١٧م.

كم يبلغ طول القناة، وما سر الاهتمام العالمي بها؟

يبلغ طول القناة ١٦٨ كيلو متراً وتعتبر أهم الطرق الملاحية في العالم، حيث إنه بالمقارنة بطريق رأس الرجاء الصالح، فإنها توفر من لندن بإنجلترا إلى بومباي بالهند ٤٤٪ من المسافة بينهما وما يتبع ذلك من انخفاض التكاليف واختصار الوقت بين انجلترا والهند.

وصلنا إلى مدينة السويس وزرنا حي الأربعين ومسجد الغريب ووقفنا على شاطئ القناة وقرأنا الفاتحة على روح من مات في سبيل شق هذا الشريان الذي زاد أهمية موقع مصر الجغرافي، وتعتبر القناة من أهم مصادر الدخل القومي بعد أن تم تأميمها عام ١٩٥٦م . لتعود للسيادة الوطنية وعندما توقفت الملاحة في قناة السويس بعد عدوان ١٩٦٧م، كان لها أثر سلبي كبير على حركة التجارة العالمية حتى أعيد تشغيلها بعد انتصار أكتوبر ١٩٧٣.

عبرنا نفق الشهيد أحمد حمدي أحد الصروح الهامة التي أقيمت تحت القناة لربط سيناء بأرض مصر، ووصلنا إلى مدينة الشط على الضفة الشرقية للقناة ومنها اتجهنا جنوباً إلى عيون موسى.

الهدوء وجمال الطبيعة ورمالها وأرضها الطبيعية المزروعة تمر حنة ونخيل، العيون بها عبارة عن فتحات يتراوح قطرها بين مترين وثلاثة أمتار.

تفرقنا في مساحة واسعة، وجدناها واحة جميلة ولكننا لم نلاحظ أي أثر لاهتمام سياحي بها رغم قربها من مدينة السويس وبالتالي مدينة القاهرة، وعند سؤال المرشد عن أهمية هذه المنطقة أفاد بأن هذه المنطقة كانت من أهم موارد المياه لمدينة السويس والعابرين إلى الجنوب أو إلى الشرق على طريق نخل (طريق المحمل) ويوجد آثار لعدة ترع تم شقها لهذا الغرض غطتها الكثبان الرملية.

القافلة مصطلح قديم يطلق على مجموعات الرُحّل التي تستخدم الإبل في انتقالها عبر الصحراء، بقصد التجارة أو النزوح بحثاً عن الماء والطعام ولكننا أطلقنا على بعثتنا الاستكشافية أو الاستطلاعية اسم القافلة لأننا اعتبرنا أنفسنا تجارا نشتري المعلومات بالجهد الممتع، ونتقصى التاريخ ببذل الوقت المفيد، ونستكشف أغوار بلادنا بحثاً عن كنوزها بالأمل في بعث جديد لروح التحدي.

انطلقت القافلة في اتجاه الجنوب إلى مدينة رأس سدر، قال المرشد.. إنها غير وادي سدر وتعتبر هذه المدينة ذات موقع استراتيجي على الضفة الشرقية لخليج السويس، ومن أهم مناطق التعدين.

محافظة جنوب سيناء..

تمتد المحافظة في الشمال على شكل قاعدة مثلث مقلوب من طابا على خليج العقبة إلى رأس مثلث على خليج السويس مارة بالسفوح الشمالية لهضبة التيه، وضلعا المثلث يمتدان جنوبا بين خليجيْ العقبة والسويس حتى رأس المثلث وهو نقطة رأس محمد في أقصى الجنوب.

العاصمة.. الطور (وبها ميناء بحري ومطار) وأهم المواقع السياحية بجنوب سيناء..عيون موسى - سانت كاترين - شرم الشيخ - دهب - نويبع - حمام فرعون - مقام النبي هارون - القلاع القديمة - معبد سرابيط الخادم - أثر النبي صالح، تلك بعض المعلومات التي عرفتها من الكتيب الذي لا يفارقني.

واصلت القافلة مسيرتها حتى مدينة الفرندل قبل مدينة (أبو زنيمة حالياً) بعدة كيلو مترات، وانحرف الطريق شرقاً داخل الصحراء إلى منطقة سرابيط الخادم أو (سرابيت الخادم). استكمل المرشد حديثة... هذه المنطقة غنية بالنقوش والآثار

والمعابد التي تعود إلى الأسرتين الثانية عشر والثامنة عشر، حيث كانت هذه المنطقة غنية بالفيروز وربما النحاس، وهناك أهمية أثرية أخرى لهذه المنطقة، إنه في عام ١٩٠٥م اكتشف العالم (بتري) النقوش السينائية التي تعتبر أصل الأبجدية في العالم والتي انتقلت إلى الشرق الأسيوي ومنها نشأت الكتابة الفينيقية التي هي أصل الأبجدية اليونانية وبالتالي أصل الكتابة الأوروبية، كما أنها أصل الكتابة الآرمية التي أخذت عنها الكتابة النبطية، أصل الخط العربي وكلها من اللغة الهيروغليفية المصرية القديمة (عمار يا مصر).

الطريق طويل والرحلة ممتعة وما زلنا في البداية ننتقل من كنز إلى آخر عبر جسر التاريخ الممتد على كل شبر نخطوه.

انطلقت القافلة في واد فسيح يغلب عليه التصحر، كنت أظن أن الاستمتاع يكون فقط بين المروج الخضراء والأشجار الوارفة وجداول المياه المنسابة، كنت أطرب لحفيف الشجر وخرير المياه وزقزقة العصافير وغناء البلابل، ولكن في هذه الصحراء وجدت نوعا آخر من الاستمتاع، الشمس الساطعة والفضاء الواسع وصوت الهواء وظل الصخور المختلفة الأشكال والألوان، الجبال عن بعد وعلى مدى البصر تشكل لوحة بعرض السماوات والأرض ، جمال آخر بمعنى آخر لا يحسه إلا من يراه ولا يدركه إلا من يلتمسه، وعجبت لصنع الخالق وجمال المخلوق وعرفت من أين جاء عشق أهل الغرب لسحر الشرق.

اخترقت القافلة الوادي إلى الجنوب حتى وصلت إلى منطقة المغارة، لم نشعر بطول الطريق ولم يغمض لنا جفن في وادي الفيروز حتى وصلنا إلى المنطقة ، وفيها أقدم النقوش الفرعونية وهو نقش الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة (٢٧٨٠ - ٢٦٨٠ ق.م) وظلت هذه النقوش سليمة حتى عام ١٨٩٧م، تم تصويرها فوتوغرافيا، وكثير منها نقل إلى المتحف البريطاني قبل أن تمتد لها يد التخريب الذي تم بمعرفة الشركات الإنجليزية التي قامت بتدمير هذا التراث الحضاري ... جاء ذلك على لسان المرشد.

رغم صغر سننا إلا أننا أدركنا ما يحدث عندما تطغى الرغبات المادية ويتملك

الطمع بني الإنسان، فإنه لا يعبأ بما يدمره من قيم لا يملكها ويعبث بتراث لا يقدره، هذا ما شعرنا به عندما رأينا آثار التخريب المتعمد.

استكمل المرشد حديثه قائلاً: لقد شهد شاهد من أهلهم، وذلك عندما قال العالم الأثري (فلندور بترى) الذي زار سيناء عام ١٩٠٥م "انهارت كل القيم في سبيل الطمع في الربح وكانت النتيجة أن فقد الأهالي فيروزهم وفقد العالم جزءاً من أهم آثار العالم القديم، لقد تحطمت نقوش خوفو (الأسرة الرابعة) ونقوش أسيس (الأسرة الخامسة) ونقوش الملك بيبي (الأسرة السادسة) وحتى نقوش الملك أمنمحات (الأسرة الثانية عشر).

كادت عيون المرشد السياحي تفيض دمعاً وهو يقص علينا كيف تعمدت هذه البعثات تخريب تلك الآثار العظيمة للوصول على جنيهات يباع بها الفيروز المصري في الأسواق الأوروبية، وتنزع قصراً لتتوج متاحف العالم... هذا هو الغرب الذي يدمر كل شيء ويدوس كل مقدس في سبيل أطماعه تذكرت ما رأيته من نهب للمتاحف العراقية اثناء الغزو الأمريكي.

إن نقوش المغارة تعتبر أقدم تاريخ مكتوب في شبه جزيرة سيناء، مما يدل على اهتمام المصريين بالتعدين، وإرسال البعثات إلى تلك المنطقة منذ أكثر من ٤٧٠٠ سنة (موسوعة المجالس القومية المتخصصة... المجلد السادس عشر) لهو أكبر دليل على ذلك.

أثار ذلك انتباه الأستاذ سمير الذي قال: "كم من القرون سبقت هذا التاريخ لمعرفة أسرار الصخور التي تحتوي على المعادن والنفائس وكم من السنين سبقت معرفة الإنسان تقنية صهر النحاس وصنع أدوات الحفر وكم من رحلات استكشاف سبقت التنقيب في هذه المنطقة الوعرة بين الجبال المرتفعة مع قلة الموارد(ماء وغذاء) بعيداً عن مراكز التحضر في طيبة وأبيدوس ومنف وتاييس، كيف تم ذلك في وقت ليست فيه مجسات أرضية أو معدات تنقيب، ولا توجد طائرات مروحية ولا سيارات أو قطارات، ووجدنا أنفسنا نقارن ذلك بنقل أحجار الأهرامات وارتفاع المسلات، فزال العجب.

مرة أخرى تنطلق القافلة نحو الجنوب مخترقة وادي فيران (لؤلؤ سيناء) كما تشير بعض الكتب.؟ واحة خضراء فيها الماء الوفير وظل النخيل والأشجار المثمرة والزهور البرية، الأمن والسكينة والهدوء ... تقع الواحة بين الجبال الشامخة ومحاطة بطرق غير ممهدة، لذلك صارت هذه المنطقة ملاذاً آمناً للمضطهدين المسيحيين الهاربين من الطغيان الروماني، انقطعوا للعبادة وبنوا الأديرة والكنائس القائمة حتى الآن وبعد أربعة عشر قرنا من دخول الإسلام تنعم بالأمن وحرية العبادة.

أثناء خروجنا من هذا الوادي أخذ المرشد السياحي يحدثنا عن طريق الخروج الذي سلكه موسى ﷺ وأبلغنا أننا على مشارف جبل (سوربال) الذي يبلغ ارتفاعه ٦٧٥٠ قدماً فوق سطح البحر، وعندما سألناه عن أهمية هذه المنطقة ولماذا لا يوجد بها آثار فرعونية مثل المغارة وسرابيت الخادم؟ قال :

هذا الوادي فقير في المعادن والفيروز لذا لم يهتم به قدماء المصريين، كان يقطنه جماعة من البدو، واكتسب أهميته منذ القرن الثاني الميلادي عندما توجهت إليها جماعات كبيرة من الرهبان كما قلت من قبل وزادت هذه الحركة في القرن الرابع الميلادي.

في هذه الأثناء كنا نمر بذلك الطود العظيم (جبل سوربال) هبت نسمة هواء لطيفة تحمل أريج الثمار والزهور البرية التي تملأ المكان، أضفت هذه الرائحة على منظر غروب الشمس خلف قمم الجبال جمالاً وسحراً يريح النفس ويزيل هموم المدنية المزعجة التي تلاحقنا في المدن.

هذا ما قاله الأستاذ يحيى ... ونظرت حولي فإذا الجميع بين مستغرق في تفكر أو ناظر في تدبر.

سانت كاترين.

السيارات (أقصد القافلة) تشق طريقها جهة الشرق في الطريق إلى دير سانت كاترين وجبل موسى، وزعت علينا وجبات جاهز جافة وبعض المرطبات كل شيء تم الإعداد له بطريقة ملائمة.

كنا أثناء السير نتبادل أماكن الجلوس بأسلوب مهذب حتى لا نصاب بالملل،

وبعد تناول الطعام ساد الهدوء وخيمت السكينة، اقتربت من المرشد وجلست بجوار الكرسي المخصص له في مقدمة السيارة، نظر إلى السائق مبتسما ودار بيني وبينه حوار لطيف قصير حتى لا أشغله عن الطريق وتوجهت بحديثي إلى المرشد.

لقد سمعت كثيرا عن دير سانت كاترين وعرفت من خلال قراءتي أنه من أهم المزارات السياحية في جنوب سيناء فما قصة هذا الدير؟

كما قلت لكم عندما كنا في واحة فيران، إن سيناء أصبحت قبلة المسيحيين المضطهدين في القرون الأولى للميلاد، ومنطقة جبل موسى تعتبر مكانا مقدسا، ويعتقد كثير من المسيحيين وتدل البحوث على أن موسى الكليم قد تلقى شريعته الإلهية على هذا الجبل (جبل موسى)، فأصبحت هذه المنطقة دار هجرة للفارين بدينهم، وساعدت الطبيعة المناخية وتوفر الماء والغذاء على الاستيطان بها وفي عام ٥٤٥م قام الإمبراطور (جوستنيان) ببناء دير وكنيسة في هذا المكان يحملان اسم العذراء.

ومن أين جاءت تسميته بدير سانت كاترين؟

بدأت هذه التسمية في القرن السادس الميلادي، وتعود إلى اعتقاد مسيحي بقصة تاريخية لفتاة من أسرة ثرية بالإسكندرية، آمنت بالمسيحية وأمر الإمبراطور (مكسيمانوس) بتعذيبها وقطع رأسها في عام ٣٠٥م في عصر الشهداء، ونقل الرهبان جثمانها إلى الجبل الذي يحمل اسمها (جبل كاترين) ثم نقل رفاتها إلى الكنيسة في القرن السادس، ورغم أن جميع مؤرخي سيناء قد أجمعوا على صعوبة تصديق هذا الاعتقاد إلا أنها أصبحت مزارا هاما لمسيحيي أوروبا، وعندما نصل إلى الدير سيكون لنا حديث آخر.

أرخى الليل سدوله وعناء الطريق بدأ يظهر على أكثر من بالسيارة، منهم من غفا ومنهم من استرخى وبعضهم مستغرق في مناقشة ما سمع وما رأى.. وانتحيت جانبا أنظر من النافذة، السماء صافية والنجوم تتلألأ هادئة وضوء القمر كاللجين المنثورعلى فروع الأشجار وأوراقها، وأخذتني سنة من النوم بعد يوم حافل

بالمعلومات وصحوت من غفوتي على إشراقة الفجر وأشعة الشمس تتسلل من فوق قمم الجبال لتكسو الأرض بلونها الذهبي، وسمعت الأستاذ محمد يقرأ الآية الكريمة "أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ " لقمان: ٢٩.

وكأنه يتلو ما تجيش به نفسي، فقد كنت أقارن بين الليل الذي غفوت فيه والنهار الذي أفقت عليه، وكيف حال الدنيا إذا كانت ليلاً دائماً أو نهاراً سرمديا، ووجدتني أسبح الله خالق كل شيء بقدر وحسب مقتضيات حاجة الإنسان وسخر كل شيء لتيسير حياته.

القافلة تدخل واديا ضيقا صاعدة، رائحة زكية مختلطة لا أتبين شذاها، سألت الأستاذ أي عطر هذا؟

إنها رائحة النعناع وأشجار الكروم واللوز تخالطها أشجار البرتقال والمشمش والزيتون والبرقوق.

كل هذه الأنواع من الأشجار هنا في هذا الوادي.. نعم ويزيد من إحساسك بها نقاء الجو من عوادم السيارات ودخان المصانع والروائح المنبعثة من مخلفات الإنسان والحيوان.. هنا الطبيعة صافية تشعرك بأقل ما فيها من جمال.

اقتربنا من دير سانت كاترين، وكلنا سعادة لهذه الزيارة، ولكن أكثرنا سعادة كان الأستاذ يحيى والزملاء جرجس وأكرم ولبيب وعيلاد وواصف وبالتأكيد الزملاء المسيحيون بالسيارة الأخرى.

أخرج الأستاذ يحيى كتيبا صغيراً من حقيبته، اقتربت منه بشيء من الفضول، وعندما وجدته قد استغرق في القراءة، انسحبت في هدوء. فإذا به ينزع عنه نظارة القراءة وقال: تريد أن تعرف محتوى هذا الكتاب.. إنني أحب فيك فضولك المهذب الذي لا يزعج الآخرين ولا يؤذي مشاعرهم ولا يقتحم حياتهم؛ وكان هذا درسا جديدا لي تعلمت منه أن الفضول وإن كان من العادات السيئة، فعندما يغلفهُ الأدب والذوق قد يكون محمودا ويتغير اسمه.

ناولني الكتيب وكان عنوانه سيناء في الأدب السياحي الأوروبي، وعندما تصفحته وجدته تسجيلاً للعديد من الرحلات التي قامت بها أفراد وجماعات وبعثات إلى سيناء منذ القرن الرابع الميلادي إلى مناطق جبل موسى ووادي فيران، ويتميز هذا الكتاب مع صغره بأنه وصف لكثير من الرحالة في أزمنة مختلفة ومنهم القديسون والقساوسة رجالاً ونساءً ومن أجناس متعددة.

توقفت القافلة في ساحة كبيرة أمام دير سانت كاترين وكانت المفاجأة هذا الكم من السيارات السياحية، أفواج كثيرة وأعداد غفيرة من السائحين، من أوروبا وأمريكا وآسيا كيف اجتمع كل هؤلاء في هذه البقعة النائية، التفت القافلة حول السيد صالح والسيد ناجي وهما المرشدان المرافقان لنا وأخذنا نتبادل النظرات التي تدل على الإعجاب بالمكان الذي ينعم بالهدوء والسكينة رغم هذا الزحام، انقسمنا إلى مجموعتين كل مجموعة مع أحد المرشدين.

بدأ السيد ناجي حديثه بالتعريف بالمكان.

نحن الآن على بعد حوالي ٢٥٨كم من مدينة السويس وعلى ارتفاع ١٥٧٠متر فوق سطح البحر هذا الدير تم بناؤه عام ٥٤٥م في عهد الإمبراطور جوستنيان وقد روعي عند بنائه أن يكون بجواره وداخله عيون ماء لا تنقطع، هذا المكان الذي نقف فيه الآن هو سفح جبل موسى والذي يعتقد أنه تلقى شريعته عليه وأن هذا الدير بني مكان الشجرة المحترقة المقدسة. وسترون داخل الدير عدة أبنية ترجع إلى عصور مختلفة منها مسجد يرجع تاريخه إلى القرن العاشر الميلادي ويقع المسجد أمام واجهة الكنيسة من جهة الغرب.

نظرت إلى الدير.. المنطقة جبلية.. إلا أن المناخ جميل والرائحة عطرة، ويشبه حصون العصور الوسطى التي نراها في الأفلام.

أفواج تدخل وأفواج تخرج في هدوء غير موجه ونظام غير مفروض، في داخل الدير أشجار الليمون والتفاح والبرتقال والزيتون، بئر ماء يعرف من مظهره مرور مئات بل آلاف السنين على حفره وعامر بالمياه العذبة، يوجد بالدير الكنيسة الكبرى وكنيسة العليقة وأخذ المرشد السياحي يسرد محتوياتها. شاهدنا الهيكل

الذي رسمت عليه صورة السيد المسيح وأيضا صورة لسيدنا موسى يتناول الوصايا العشر من يد مدت إليه من أعلى. أما كنوز الدير في الدور الثالث وهناك مكتبة الدير العامرة بالمخطوطات اليونانية والسريانية والآرامية والقبطية والإسلامية.

سألت السيد ناجي.. أعتقد أن وعورة الطريق وصعوبة الوصول إلى هذا المكان النائي، ساعد على الاحتفاظ بالوثائق والمخطوطات بعيدا عن يد العابثين ولصوص الآثار.

لا يوجد في مصر مكان لم تمتد له يد العابثين أو قراصنة الآثار، أجانب مستعمرون أو حتى من أهل البلد، وعلى سبيل المثال فإن أحد أقدم نسخ التوراة أخذت من الدير لتستقر بالمتحف البريطاني، وكذلك وثيقة تاريخية لها أهمية كبيرة (وثيقة الأمان) التي كتبت بخط علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن النبي "صلى الله عليه وسلم" إلى الرهبان المسيحيين "ليس عليهم جبر ولا إكراه، لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، لا يهدم بيت ولا كنيسة ولا بيع (حدائق وبساتين وأرض) ولا يدخل من مال كنائسهم لبناء مسجد وأنا ـ أي رسول الله عليه الصلاة والسلام ـ أحفظ ذمتهم أينما كانوا من بر وبحر في المشرق والمغرب والشمال والجنوب وهم في ذمتي وميثاقي وأماناتي من كل مكروه" وفي نهاية النسخة " شهد بهذا العهد علي بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله وغيرهم من الصحابة - هذه الوثيقة تذكرنا بالوثيقة العمرية التي أعطاها عمر بن الخطاب لأهل القدس - (تلك هي سماحة الأديان السماوية) ، أصل وثيقة الدير استولى عليها السلطان سليم العثماني عند غزو مصر عام ١٥١٧م، وهناك من يقول إن الذي استولى عليها السلطان سليمان القانوني ١٥٦٦م ونقلت إلى الأستانة، ورغم ذلك فهناك كثير من الفرمانات صدرت في عهد الدولة العثمانية توصي برهبان الدير وكذلك في عصر الدولة الفاطمية ،الدين لله والوطن للجميع (حقوق المواطنة) .

استكمل المرشد شرح مكونات الدير عند زيارة بهو الاجتماع وزيارة المسجد

الموجود داخل الدير وهو يقع غرب الكنيسة الكبرى ويبلـغ ارتفـاع مئذنتـه ١٢م وبها منبر من خشب الأرز من العصر الفاطمي .

في حديقة الدير توجد الجبانة التي يدفن فيها من يموت من الرهبان، وجنـوب غربي الدير جبل كاترين ويرتفع عن سطح البحر ٢٣٦٧ متر وهناك جبل موسى. وعند السؤال عن كيفية الصعود إلى إحدى هذه الجبال قال المرشـد مـن الصـعوبة بمكان الصعود إلى قمة أحد الجبلين فإن ذلك يحتاج إلى مجهود لا يقدر عليه كـل إنسان، ورغم ذلك فإننا قد وجدنا بعض الأفـواج تعـد العـدة للصـعود إلى قمـة الجبل، حيث منظر شروق الشمس على جبل موسى أو جبـل كـاترين لا يتـارن بأي منظر آخر في الدنيا هذا بالإضافة إلى أن قمة جبل موسى تعتبر مكانا مقدسا عند بعض مسيحي أوروبا.

جمال الطبيعة والهواء النقي والرائحة الطيبة وعبق الماضي جعلنا نشعر بالأسى عند مغادرتنا هذا المكان البديع والفريد وترك في نفوسنا شعورا بسماحة الديانات السماوية وعظمتها إذا ما بعدت عن النزعات الدونية (الدنياوية) والجدل العقيم.

مازالت القافلة تتجه إلى الشرق تخـترق الجبـال الشـاهقة والفـلاة المتسـعة، ولا حديث لنا إلا عن تلك البقعة الساحرة وتفاصيل زيارة الدير.. الأمر الذي جعلنـا لا نشعر بطول الطريق من سانت كاترين إلى مدينة "دهب" على خليج العقبة.

وصلت القافلة إلى مدينة دهب والليل قد خـيم علـى المكـان إلا مـن أضـواء متناثرة هنا وهناك. وكنا قد علمنا أننا سنقيم في مدينة دهب عدة ليال، في إحدى القرى السياحية لعدم وجود بيوت شباب في هذه المنطقة.

ولأول مرة تنقسم الآراء، منا من يريد أن يأكل وآخـرون يريـدون أن يتجولـوا بالقرية والاقتراب من الشاطئ وآخرون يريدون النوم ولو في الأتوبيس.

جمعنا الأستاذ عبد الله وتم توزيعنا على الغرف وأخبرنا بأننا سـنقيم في هـذه القرية ثلاث ليال، وستكون لنا بمثابة مقر في جنوب سيناء، سنتوجه منهـا لزيـارة بعض الأماكن السياحية بالجنوب، وأكـد علـى النظـام والنظافـة وحسـن معاملـة الأجانب المقيمين بالقرية.

استقبلنا مدير القرية بترحاب شديد بينما أبدى العاملون دهشتهم حيث إنهم أول مرة يتعاملون مع هذا العدد في هذه السن المبكرة وتوسموا فينا المشاغبات وانتظروا منا المتاعب، دخل كل منا إلى غرفته، ثلاثة في غرفة أو أربعة حسب الإمكانات المتاحة، الغرفة مجهزة تجهيزا جيدا، نظيفة مرتبة بها تليفزيون وثلاجة صغيرة.

كنا ثلاثة بالغرفة، اتفقت أنا وسليمان على سرعة أخذ حمام وتبديل الملابس والخروج إلى حديقة القرية والتجول فيها.

تركنا "جمال" يغطّ في النوم، لم نكن أول من خرج من غرفته، فقد وجدنا كثيراً من الزملاء بالخارج وأعقبنا آخرون وصار معظمنا يتجول بالقرية، اتجه بعضنا إلى الشاطئ، وعلى ضوء القمر والأضواء الخافتة جلس بعض الأساتذة يتسامرون، وجزء من القافلة اتجه إلى صالة الحفلات التي تقيمها القرية، الفنون الشعبية والبدوية والريفية والساحلية وعدد كبير من السائحين أخذوا يتمايلون مع الراقصين، ويطربون لسماع الموسيقى.

بعد أن اختلسنا النظر أنا وصديقي إلى صالة الحفلات توجهنا للشاطئ وأخذنا نتسامر مع الأساتذة أكثر من ساعة، أصبح لدينا إحساس غريب بقيمة الوقت الذي لا نريد أن ينقضي، لولا أن نبهنا الأستاذ لضرورة الحصول على قسط وافر من النوم لأن برنامج الغد سيكون حافلاً ومرهقاً، صحوت من النوم على صوت زميلي جمال وهو يتلو سورة النبأ فأنصت إليه.

بسم الله الرحمن الرحيم "عم يتساءلون عن النبأ العظيم، الذي هم فيه مختلفون، كلا سيعلمون، ثم كلا سيعلمون، ألم نجعل الأرض مهادا، والجبال أوتادا، وخلقناكم أزواجا، وجعلنا نومكم سباتا، وجعلنا الليل لباسا، وجعلنا النهار معاشا، وبنينا فوقكم سبعا شدادا، وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا، لنخرج به حبا ونباتا، وجنات ألفافا..." إلى آخر الآيات الكريمة.

كم قرأت هذه الآيات من قبل وكم سمعتها، لكن في هذه المرة كان لها صدى

عميق في وجداني، إنها المرة الأولى التي أسافر فيها وأقطع هذه المسافة الطويلة فتأملت كيف مهد الله الأرض لنسير فيها ونقيم عليها، وهذه الجبال وما معنى أنها أوتاد وهل تقوم مقام الأوتاد التي تثبت بها الخيام، ووجدت أسئلة كثيرة تقفز إلى ذهني عن معاني هذه الآيات الكريمة.

شرم الشيخ ..تناولنا الإفطار وكانت السيارات جاهزة لبدء مرحلة جديدة من الرحلة، أخذ كل منا مكانه وفي هذه المرة استأذنت زميلي رجب لأجلس بجوار الأستاذ ناجي الذي رحب بي.

انطلقت القافلة جهة الجنوب إلى مدينتيْ شرم الشيخ ورأس محمد، شيء جميل أن يحلم الإنسان وأجمل منه أن يتخيل والأفضل أن يقرأ ويتخيل ولكن الأعظم هو من يصل بحلمه وخياله إلى الواقع الملموس. كنا نحلم بهذه الرحلة وتخيلناها وقرأنا عنها، ولكننا الآن نعيشها، ننتقل من مكان إلى مكان آخر، نصعد جبالا أوتاداً ونهبط أودية (مهادا)، نجتاز السفوح والتلال، نرى البحر، ونعبر النهر ماءً ثجاجا، الماء العذب يتدفق من الجبل الصلد وكأن عصا موسى بأمر الله مازالت بموضعها. سبحان الله خالق كل شيء ورازق جميع مخلوقاته، لا يفرق بين صالح وطالح في الرزق، لا يميز بين كافر ومؤمن في أن يمده بأسباب الحياة، لا يتوقف عطاؤه للدودة في الحجر والطير في السماء والحية في الصحراء والسمكة في الماء؛ والشمس سراجاً وهاجاً لجميع المخلوقات فلم أجد على لساني غير سبحانك يا ربي.

السيارة تعلو وتهبط وكأنتا على بساط الريح إلى أن وصلنا إلى محمية رأس محمد على مضيق فيران النقطة الفاصلة بين خليج العقبة وخليج السويس على البحر الأحمر، جمال الطبيعة لا يشعر به إلا مدركه ولا يمتع إلا ناظره، لا وصف له ولا نظير هذا أقل ما يمكن أن يقال عن هذه المنطقة الفريدة، هل هي الجنات الألفاف؟!

سألت الأستاذ ناجي عن معنى كلمة محمية ولماذا أطلقت على هذه المنطقة؟

فى مصر عدة محميات طبيعية، ومعنى محمية أنه يحرم فيها الصيد والبناء

وتكون المنطقة للزيارة والسياحة فقط، غير مصرح أن تجوبها السفن حفاظا على الشعاب المرجانية.

وما هي الشعاب المرجانية؟

أنت ترى الحدائق والبساتين بها الأشجار العالية نستظل بها، والنباتات العطرة ننتشي برحيقها، والزهور الملونة نستمتع برؤيتها. كذلك الشعاب المرجانية، هي حدائق البحر وبساتينه، تكونت عبر آلالف السنين، جنة الأحياء المائية وسترى جزءًا منها إن شاء الله بشرم الشيخ.

على حافة الجنة الأرضية (رأس محمد) قضينا بعض الوقت ثم ركبنا السيارات واتجهنا إلى الشمال عائدين إلى مدينة شرم الشيخ بعد أن عبرناها في طريقنا إلى رأس محمد.

وصلت القافلة إلى المدينة التي تقع (جنوب شرق جزيرة سيناء على خليج السويس) وتعمد المرشد السياحي أن يطوف بنا المدينة لنتعرف على ملامحها قبل أن نصل إلى الفندق الذي سنتناول فيه طعام الغذاء ونقضي بعضا من الوقت على شاطئه ،من فوق تلة عالية وفي منظر جميل رأينا القرى السياحية تحتضن خلجاناً صغيرة من خليج العقبة، يغلب على مبانيها اللون الأبيض، غنية بالمساحات الخضراء والزهور بديعة الألوان، والفنادق المنتشرة بالمدينة جميلة متوسطة الارتفاع، حركة السياحة الداخلية والخارجية جعلت المدينة كخلية نحل.

عندما كنا نرى السائحين بالقاهرة في خان الخليلي أو تحت الربع بمنطقة الأزهر والحسين، كانت ملامحهم تدل على الهدوء، وسعيهم عن الجد والتفاتاتهم عن الدهشة، الكاميرات لا تفارقهم، يسجلون كل حركة وسكنة، ينصتون لكلام لا يفهمونه من المارين وكلام يفهمونه من البائعين، ونسمعهم يتمتمون ببعض الكلمات العربيه مثل السلام عليكم أو مرحبا، يردون بها على من يلقي عليهم السلام. أو أنت كويس أنت مبسوط، كنت سعيد عندما أراهم يتوددوا إلى المصريين، وحين قابلناهم في سانت كاترين كانت لهم هيئة أخرى يغلب عليها

الوقار والخشوع والاهتمام.

أما هنا فإنهم في حالة استرخاء، يفترشون الرمال ويلتحفون السماء، ينصتون لصوت البحر الهادئ ويستمتعون بدفء الشمس التي تكسب أجسادهم اللون الخمري المشوب بالحمرة.

كانت إرشادات المشرفين والمرشدين واضحة، لا نزول إلى البحر إلا تحت إشراف أحد المختصين بالفندق وعدم مضايقة السائحين، لم نكن في حاجة إلى باقي الالتزامات لأننا نعرفها جيدا فلم نحد عنها.

كنا نرى المياه أثناء سير السيارة في زرقة السماء، ولكن عندما اقتربنا منها في رأس محمد، فهي لا زرقاء ولا خضراء، لون جميل لا أعرف اسمه، وهنا في شرم، الماء على زرقته رائق متلألئ، الرمال ناعمة بيضاء والأمواج هادئة، وعلى الشاطئ انتشر السائحون بأعداد كبيرة، بدت على وجوههم الدهشة عندما اقتربنا من الشاطئ، وقد يرجع ذلك لعدم رؤيتهم لهذا العدد الغفير من الأطفال المصريين خاصة في هذا المكان، زالت دهشتهم لما لمسوه منا من هدوء وأخذوا يتوددون إلينا، حدث نوع من التآلف السريع، وتكونت مجموعات مختلطة، قام الأساتذة والمرشدون بدور المترجم، أردنا أن نعرف منهم سر اهتمامهم بالحضارة المصرية القديمة وتكبدهم المشاق والأعباء المادية للوصول إلى هذه الأماكن النائية والتي تبعد آلاف الأميال عن بلادهم.

وجدنا أكثرهم من دول غرب وشمال أوربا (فرنسا – أسبانيا – ألمانيا – السويد)..

اختلفت الآراء... منهم من جاء ليستمتع بدفء الشمس ومياه البحر، ومنهم من جاء ليشترك في مسابقات الصيد والغوص والمراكب الشراعية، ومنهم من يهتم بالآثار والمزارات الدينية، الجميع يتحدثون بحماس لم أكن أتوقعه، وعندما هدأ حماسهم، تحدث رجل وسيدة مُسّنان قالت السيدة.. لقد حضرت أنا وزوجي لزيارة دير سانت كاترين فقط، ولكنا ها نحن نستمتع بجمال الطبيعة وزرنا العديد من الشواطئ ونأسف لعدم القدرة على الغوص وزيارة أماكن كثيرة في

جنوب مصر، غير أننا اتفقنا على أن نعاود الزيارة مرة أخرى، ولن نكون بمفردنا في المرة القادمة وسنصحب أولادنا وأحفادنا، وتحدث أخر فقال.. إنها المرة الأولى التي يحضر إلى مصر بصحبة أحد أصدقائه الذي اعتاد الحضور للاشتراك في المسابقات الدولية للمراكب، غير أن ما وجده من كرم الضيافة وحسن المعاملة وكرم الطبيعة التي أعطت لمصر الكثير من الهبات والتي يجب التعرف عليها وأكد بأنها لن تكون المرة الأخيرة.

هنا عرفت كيف أن حسن التعامل مع السائح واجب وطني، لأن السائح خير سفير لنا، حيث ينقل لبني وطنه ما يراه وما يسمعه وما يلقاه، فإما أن يكون عنصر جذب للسياحة أو عنصر طرد للسياحة.

أشار إلينا المرشد السياحي بضرورة التجمع للقيام برحلة بحرية، انقسمت القافلة إلى مجموعات.

لأول مرة في حياتي أرى مثل هذه القوارب، القاع من الزجاج، يمكّن الراكب من رؤية مساحات غير قليلة وإلى عمق مناسب من قاع البحر .

كنا نسبح الله في كل خطوة نخطوها على الأرض لبديع صنعه، دُهشنا لشموخ الجبال واتساع الصحراء، وتنوع الماء لونا وطعماً، عجزنا عن وصف الطبيعة عند رأس محمد، أما الآن فإن الحال غير الحال، لا كلام يقال أمام هذه القدرة الإلهية.. تناسق غريب للألوان بين الأسماك وأنواعها العديدة، وحدائق المرجان المديدة، ننتقل بين لوحات طبيعية سرعان ما تتغير تحتنا، لكنها تظل بديعة جميلة.

توقف القارب بعض الوقت، أخرج أحد الزملاء خبزا وألقاه في الماء، تجمعت عليه الأسماك، أخذ كل منا يبحث عن بقايا خبز أو سندوتشات ليطعم السمك الذي تجمع حول القارب في مظاهرة ترحيب، يداعبنا ونلاعبه، يقفز من الماء ليلتقط الطعام بعد أن اطمأن أنه لا توجد شباك ولا معدات صيد، بدأت الكاميرات في العمل لتسجيل أجمل المناظر الحية والتي لا يمكن أن تراها إلا في هذا المكان. تمنينا أن يطول بنا المقام في عرض البحر، لولا زملاؤنا المنتظرون على

الشاطئ للقيام بمثل هذه الجولة، عند انتهاء الجـولات توجهنـا إلى المطعـم لتنـاول وجبة الغذاء التي أعدت من السمك الشهي.

فى طريق العودة إلى مدينة دهب، سـرحت بخيـالي في هـذه الطبيعـة الـتي لا يقدر على خلقها إلا إله جبار، يُري عباده دلائل قدرته فوق الأرض وتحتهـا، إلـه رحيم يرزق كل عباده، الكافر فيهم والمؤمن، القوي مـنهم والضـعيف، إلـه عـادل وزع رحمته علـى عبـاده وكائناتـه بالقسـط فصـار يسـبح لـه مـا في السـموات والأرض من كائنات وجمادات.

سألت مرشد الرحلة. هل هناك أماكن في سيناء بها من جمال الطبيعة أكثر مما رأينا حتى الآن؟

أجاب هناك أماكن كثيرة جميلـة وقـد تكـون أكثـر جمـالا، المهـم أن يكـون الإنسان مهيأ لاستقبال هذا الجمال والإحساس به.

تداخل معنا الأستاذ محمد في الحديث.

لقد وهبنا الله يا أحمد نعمة الإبصار لنرى بها القبيح ونبتعـد عنـه ونتجنبـه، ونرى الجمال لنسر به ويكون غذاءً لأنفسنا، ولكننا قد نرى الجمال ولا نشعر به، والإنسان إذا طبع على حب الخير ونبذ الشـر، صـار سمحـا رقيـق الحـس سـامي الفكر، يتغلغل الجمال والطهر في نفسه ويملك عليه قوله وفعله، ويسعى في وجوه الخير ويبتعد عن مـواطن الرذيلـة وأصـدقاء السـوء، ويـرى كـل شـيء في الكـون جميلا.

عادت القافلة إلى القرية بمدينة دهب، وبعد قسط من الراحة توجهنا إلى مدينة عسلة، على شاطئ الخليج افترش الجميع الرمال بين جموع السائحين، في خيـام أكثرها مفتوح وبعضها مغلق، وبعد الاستمتاع بسماع الموسيقى وحفلات السـمر تناولنا وجبة العشاء في ضوء خافت يظهر جمال القمر وتلألؤ النجوم في السماء.

نامت أعيننا فإذا بصوت أذان الفجر يتردد صداه يشق صـمت الجبـال، يسـمع الكائنات صوت الحق ليخرج النور من باطن الظلام.

القافلة تستعد من جديد للتوجه إلى الشمال على خليج العقبة، إلى طابا رمز

العزة والكرامة والتمسك بالحق، والقدرة على استرداد التراب المقدس.

السفر طويل والإمكانات ميسرة والاستعداد كامل، ومن مرحلة إلى أخرى تزداد المعرفة ويرتفع الرصيد الثقافي وتظهر فائدة جديدة من فوائد السفر المتعددة.

بدأت الرحلة إلى مدينة نويبع ذلك المرفأ القديم الجديد على خليج العقبة، عندما وصلنا وجدنا حركة كثيفة لسفن الشحن، وعبارات عملاقة لنقل المسافرين بين مصر والأردن والمملكة العربية السعودية ودول الخليج.

أسهب المرشد السياحي في وصف أهمية هذا الميناء الذي حوّل هذه المنطقة الجرداء إلى موقع استراتيجي اقتصاديا،ونقطة اتصال جديدة وجيدة بين أقطار الوطن العربي، تناولنا الغذاء في إحدى الاستراحات المنتشرة في هذه المنطقة لخدمة المترددين على الميناء.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها تلك العبارات العملاقة التي تنقل المسافرين والسيارات، على شاطئ الميناء. وقفت أنظر إلى ذلك البحر المتلاطم الأمواج وكيف يحمل هذه الكتل الضخمة من الحديد ويداخلها هذا الكم الهائل من الناس والبضائع، ووجدت زميلي أيمن يقول لي: لا تتعجب تلك أحد آيات الله وتلا: "وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون، وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون، إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين" (يس٤٤).

سبحانك ربي لا أتوجه بنظري إلى شيء إلا وأجد فيه آية من آياتك العظيمة تمن بها على عبادك.

مازالت القافلة تتجه إلى الشمال، إنها جهود عظيمة تبذلها الدولة لتمهيد هذه الطرق وصيانتها، ولفت انتباهي وجود بعض الأنفاق تعبر فوقها السيارات كل فترة، تعجبت الصحراء قاحلة والجبال عالية ولا يوجد أنهار فلم هذه الأنفاق؟! وسألت الأستاذ يحيى الذي يجلس في الكرسي المقابل.

قال: هذه المناطق تتعرض في بعض الأوقات لطوفان هائل من السيول، الماء يتدفق من الجبال بكميات كبيرة، هذا الطوفان يدمر كل شيء يعترضه. وحفاظا

على سلامة الطريق ووقاية للمسافرين والعابرين تم عمل هذه الأنفاق.

قلت: هذه المياه عذبة بالطبع لأنها مياه أمطار، ألا يمكن الاستفادة منها؟

قال: هناك جهود لحصر هذه المياه وتوجيهها عبر الأخاديد لتصب في آبار قديمة، ليمكن الاستفادة منها بدلا من أن تذهب سدى في البحر.

القافلة تبطئ من انطلاقاتها ونسرع باغلاق النوافذ لهبوب عاصفة رملية .. السيارات تكاد تتوقف، العواصف تزداد، ولأول مرة أشعر بشيء من الخوف والرعب، معالم الطريق طمستها الرمال، القلق يزداد، المرشد يطمئننا ويطلب من السائق الاستمرار في السير ولكن ببطء، وعن طريق التليفون المحمول يطمئن على من بالسيارة الأخرى.. بعد عدة دقائق عبرنا هذه العاصفة أو عبرتنا هي، المهم أننا تجاوزنا هذه الفترة العصيبة من الرحلة وعادت القافلة إلى الانطلاق بسرعتها العادية، وعاد الهدوء والسكينة وبدأت النكات والضحكات، هذا يلمز ذاك والآخر يتندر على زميله بأنه كان الأكثر خوفا ورعبا.. ما أضعف الإنسان عندما يتعرض لقدر مجهول وقوة لا يعرف لها مدى ويجد نفسه أمام غضب الطبيعة.. ساعدت هذه الحالة على انقضاء الوقت، فوجدنا أنفسنا على شاطئ مدينة طابا.

فندق طابا على خليج العقبة في بقعة من أجمل البقاع.. عودة مرة أخرى إلى التجمعات السياحية وجمال الطبيعة، في مظاهرة سياحية نزل الجميع لتفقد المنطقة التي لفتت انتباه العالم لفترة كبيرة في مشوار الصراع العربي الإسرائيلي.

قال المرشد السياحي: هذا المبنى ليس مجرد كتلة أسمنتية وإنما أصبح رمزا لانتصار الإرادة المصرية والقدرة على تجميع قوى الحق في وجه المكر والخديعة؛ والإصرار على استرجاع التراب المصري وبذل كل جهد عسكري أو سياسي في سبيل ذلك.

واصلت الرحلة طريقها إلى قلعة صلاح الدين والتي تبعد ثمانية كيلو مترات جنوب طابا وعلى بعد ستين كيلو متراً من مدينة نويبع عندما وصلنا إلى القلعة حصلنا على قسط من الراحة. وتم تقسيمنا إلى مجموعات لنستقل "لنشات" للوصول إلى الجزيرة المقامة عليها القلعة والتي أطلق عليها جزيرة فرعون.

قام المرشدون السياحيون بشرح تاريخ القلعة التي تم بناؤها عام ١١٧٠م لصد الخطر الصليبي على مصر وكيف قامت هذه القلعة بدورها في العصر المملوكي والتركي في حماية الطرق التجارية والسيطرة على منافذ الخليج وكذلك البحر الأحمر.

مهم جدا أن يبدأ الحس السياسي والعسكري لدى الإنسان في سن مبكر، وظهر ذلك واضحا من سيل الأسئلة الذي وجهه الطلبة للمرشد السياحي عند فندق طابا وزيارتنا للقلعة وما دار من حوار بين المدرسين والمشرفين والطلبة.

في استراحة قريبة على الشاطئ المقابل للجزيرة جلس الجميع لتناول المرطبات، وعلى أحد الموائد جلس الأستاذ محمد والمرشدون وسائقو الأتوبيسات مستغرقين في حديث يبدو هاما، وبدافع الفضول توجهت إلى الأستاذ عبد الله لاستطلاع الأمر، فأخبرني أننا سنتوجه إلى مدينة "رفح" في أقصى الشمال الشرقي على البحر المتوسط والمسافة طويلة ولابد من الاستعداد جيدا لهذه المرحلة من الرحلة.

محافظة شمال سيناء

سألت الأستاذ.. كم تبعد المسافة بين طابا ورفح؟ وهل هناك مدن كبيرة سنمر عليها؟

أخرج كتيبا صغيراً به عدة خرائط لمصر، بعضها مفصل وعليها مقياس رسم، فوجدنا أن المسافة حوالى ٢١٠ كيلو مترا والمدن التي سنمر عليها هي: رأس النقب والكنتلة والقصيمة.. وكلها على الحدود المصرية الفلسطينية المحتلة من العدو الإسرائيلي.

بعد أن اطمأن الأستاذ محمد لسلامة السيارات وتصاريح المرور على المناطق العسكرية الحدودية، استمرت الرحلة في اتجاه الشمال وبعد حوالي ثلاث ساعات وصلنا إلى مدينة رفح، لتبدأ مرحلة جديدة على رافد هام من روافد السياحة الداخلية والخارجية على سواحل البحر المتوسط والتي تبدأ من رفح إلى السلوم على الحدود الليبية.

المناخ مختلف عن منطقة البحر الأحمر في الجنوب، انخفضت درجات الحرارة بشكل ملحوظ، رغم سطوع الشمس وصفاء السماء إلا من بعض الكتل من السحب. ونسيم البحر المتوسط محمل ببعض بخار الماء تجلبه الرياح القادمة من جنوب القارة الأوروبية.

عند الأسلاك الفاصلة على الحدود المصرية، وقفنا ننظر إلى الجانب الآخر وتمثلت لنا القدس وعبرنا بخيالنا صحراء النقب وغزة لنرى مئذنة الأقصى وقبة الصخرة، مسرى النبي محمد عليه الصلاة والسلام ومعراجه ، أولى القبلتين وثالث الحرمين، ووصل إلى مسامعنا أنين الأطفال وصراخ الأرامل وقد أصابهم ما أصاب السيد المسيح من آلام على يد عصبة من بني صهيون، على أحد الأبنية القريبة ارتفع علم اسرائيل، فرأيت نجمة داود وقد تحولت إلى جمجمة رمز القرصنة والموت والخراب، فحولت بصري عنها داعيا أن يزال ويعلو بدلا منه راية لا إله إلا الله محمد رسول الله فوق علم فلسطين، تناولنا طعاما به غصة ونحن نتذكر الشهداء الذين يتساقطون في غزة وخان يونس والضفة، إن الحس السياسي والخوف الذي ينمو بداخلنا طغى على مشاعرنا في هذه اللحظة وتمنينا أن نكون جنودا تخترق هذه الأسلاك لنشارك الطفل الفلسطيني دفاعه عن أرضه وعرضه ومقدساتنا جميعا.

وجلس الأستاذ محمد صوب الصخرة الصامدة يتمتم يا قدس يوما عائدة.

يوما ما تهب رياح الخير تقلع جذور الشر وتعودي يا قدس ظاهرة

يوما ما تطلع شمس الحياة تنير دربك وتعودي يا قدس دافئة

يوما ما يولد طفل يأبى المذلة يفك قيدك وتعودي يا قدس محررة

يوما ما تغزل صبية ثوب الحياة تزيل همك وتعودي يا قدس باسمة

يوما ما يلتئم الشمل تعلو الجباه يرتفع علمك وتعودي يا قدس شامخة

يوما ما ترحل جيوش الظلام ويحل قومك وتعودي يا قدس عامرة

يا قدس باسم الله يوما عائدة

أطلت النظر إليه.. سمعت دقات قلبه تعلو على صوته، ورأيت دمعه تختلط برمال الصحراء تتحول إلى نهر يجيش بعواطفه لتراب القدس الشريف. اختلف هذا الإحساس عندما رأيته يبتسم فوق أطلال قريةياميت بالشيخ زويد فسألته ما الذي جعلك تبتسم بهذا الشكل وقد كنت حزينا في رفح.

قال.. يا أحمد هذه الأطلال تذكرني بقول الله تعالى في وصف بني إسرائيل أهل الشقاق والنفاق، الذين عذبوا المسيح عليه السلام، ونافقوا محمداً عليه الصلاة والسلام، وقتلوا أنبياءهم وبدلوا شريعتهم بما يتفق وميولهم العدوانية وكراهيتهم لبني الإنسان، فكتب الله عليهم الشتات والخراب، وقال سبحانه وتعالى "هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم أن يخرجوا، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار" الحشر ٢.

نزلت هذة الآيات منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، وها هم يحققون قول الله فيهم ،لقد احتلوا سيناء وبنوا الحصون وظنوا أنها مانعتهم ولن يخرجوا منها أبداً، ولكن تحقيقا لقول الله سبحانه وتعالى. خرج عليهم من هم أولو بأس شديد وأخرجوهم، فأسرعوا يدمرون ما بنوا ويخربون ما ظنوا أنهم عمروا هذا هو دأبهم منذ عصر موسى عليه السلام، عبدوا العجل بعد أن منَّ الله عليهم وكرمهم بشريعة تنجيهم من عذابه وغضبه، ولكنهم أبَوا هذا التكريم وبدلوا قولا غير الذي قيل لهم، وصاروا أساس البلاء وعاثوا في الأرض فساداً، ولكن الله قاض أمره، فمهما علا نفير الشر فإن للخير الغلبة، ومهما طال ليل الظلم فإن الفجر لابد قادم بما يحمله من نور، ولله جنود ثورتهم بركان وأيديهم حسام وأقدامهم طوفان، رحماء بينهم أشداء على أعدائهم وأدعو الله أن تكون أنت وزملاؤك منهم... توجهت بقلبي إلى الله أقول آمين.

وصلت القافلة إلى مدينة العريش عاصمة شمال سيناء، شاطئ النخيل وموطن الجمال، وقضينا على الشاطئ يوما جميلا، لم نتمكن من نزول البحر ولكننا استمتعنا بالهواء النقي والسماء الصافية ووجبة ممتازة تعيننا على استكمال

الرحلة، ومرورا ببحيرة البردويل وصلنا إلى مدينة بئر العبد ورمانة وكلها مدن هامة على الطريق الحربي القديم، ومن رمانة اتجهت القافلة جهة الجنوب قليلا في اتجاه مدينة القردان مخترقين سهل الطينة شرق قناة السويس، كنت أجلس هذه المرة بجوار الأستاذ سمير فأبديت له دهشتي لعدم استغلال سيناء والاستفادة من مواردها الطبيعية بصورة أفضل تعود على مصر بالخير العظيم.

... ما تقوله فيه جزء كبير من الحقيقة ولكن يجب أن تعرف أن التنمية تحتاج إلى جهود عظيمة وإمكانات هائلة، منها رؤوس الأموال لإعداد البنية التحتية، مثل توفير المياه الصالحة للشرب والزراعة، وتحسين الطرق وربط سيناء بالدلتا عن طريق الكبارى والأنفاق، بعد تحرير سيناء ونصر أكتوبر توجهت الدولة لتعمير سيناء بالقوى البشرية والمجتمعات العمرانية، وبذلت من الجهود ما يستحق الإشادة، منها إنشاء نفق الشهيد أحمد حمدي الذي عبرناه من قبل بطول ٣كم وإنشاء ترعة السلام التي تحقق زراعة مائتين وعشرين ألف فدان غرب القناة وأربعين ألف فدان شرق القناة داخل سيناء، ثم اعتبار مدن بورسعيد منطقة حرة مما أدى إلى جذب الاستثمارات ، توسيع دائرة العمران على ضفتي القناة وإقامة المشروعات الصناعية وتنشيط حركة التجارة بتوسيع ميناء بورسعيد، تعمير منطقة سهل الطينة التي نمر به الآن، والاتجاه إلى إنشاء ميناء بشرق التفريعة ببورسعيد للتوسع في الصناعات التي يمكن تصديرها والإسهام في تجارة الترانزيت (استقبال الحاويات تمهيدا لانتقالها مرة أخرى) ثم وضع الأساس لوادي التكنولوجيا على مساحة ستة عشر ألف فدان ونصف، وبمساعدة الدول الصديقة (اليابان) انتهينا من بناء كوبري علوي فوق قناة السويس لزيادة حركة النقل والوصول بها إلى أعلى مستوى بارتفاع ٧٠ مترا وبطول ٩,٥ كيلو متراً وأخيرا إقامة كوبري الفردان لخدمة النقل الثقيل وإنشاء خط سكة حديد على مراحل لربط سيناء من رفح إلى غرب القناة. وما هذه المشروعات إلا نواة لمشاريع عديدة تهدف إلى تعمير سيناء بالقوة البشرية كما قلت لك وتمهيدا للاستفادة من مواردها الطبيعية كما تريد، وتزيد من حركة السياحة شمال وجنوب سيناء. وتعيد التوزيع الجغرافي للسكان وتوفر الكثير من فرص العمل وتسهم في نهضة زراعية وصناعية وترفع

معدلات التنمية في مصر كلها.

من رمانة على حدود سهل الطينة توجهت القافلة جهة الجنوب في اتجاه مدينة الفردان،على مرمى البصر دبابات محترقة وأكوام من السيارات والمعدات الحربية متناثرة في الصحراء فأخذنا نشير إليها ونستفسر عنها.

أشار مرشد الرحلة إلى السائق فتوقفت القافلة ونزلنا من السيارات وعبرنا الطريق في مجموعات فبدأ مرشد الرحلة قوله .

فى هذه المنطقة دارت أكبر وأشرس معارك الدبابات في التاريخ وفي هذه البقعه ظهرت شجاعة الجندي المصري حين كان يواجه الدبابة.

هذه يا أبنائي أشلاء الصلف والغرور وحطام الكبرياء الذائف، هنا يا أبنائي انطلقت صيحة الله أكبر تصاحب كل دانه وتبارك كل صاروخ ليصدح قول الحق (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)، وتلك الأشلاء من مجنزرات ودبابات وحاملات جنود إسرائيلية لخير شاهد على ذلك. ولتعلموا أن بعض هذه الدبابات كانت أحدث ما أنتجته مصانع السلاح في أمريكا في ذلك الوقت، تم نقلها إلى أرض المعركة عبر جسر جوي ليُحيل دون سقوط إسرائيل السريع، ويوقف زحف القوات المصرية داخل سيناء.

لم نعبأ بما عَلا هذه الدبابات من تراب وأخذنا نتسلقها ونطأها بأقدامنا ونحصل على بعض الصور التذكارية لنصر حرب السادس من أكتوبر/ العاشر من رمضان، تلك الحرب التي أعادت للجندي المصري عزته وللمقاتل العربي كرامته وللأمه الأسلامية فخارها.إلى مدينة السويس عادت القافلة وكنا قد زرناها من قبل،اتجهنا إلى الشمال على الشاطئ الغربي للقناه وصولاً إلى مدينة الإسماعلية .

محافظة الإسماعيلية:

إحدى مدن القناة على الشاطئ الشمالي لبحيرة التمساح، تقع هذه المدينة الغنية بالحدائق والمساحات الخضراء وبساتين الفاكهة على بعد ساعة واحدة من مدينة القاهرة، ويرجع تسميتها إلى الخديوي إسماعيل،تلك المدينة التي كان لها

دور كبير أثناء حرب السويس (العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦) ،ظهرت يومها بسالة الشعب المصري عندما تلاحمت قوات الشرطة مع الجيش كما حدث في كل مدن القناة(السويس/ الإسماعلية/ بور سعيد)، تناولنا الطعام بإحدى الاستراحات الجميلة المزينة ببعض القطع الأثرية التي وجدت في تل المسخوطة وزرنا متحف الآثار الذي يزخر بكثير من الآثار من شرق مصر وشبه جزيرة سيناء ، ذهبنا لزيارة النصب التذكاري للجندي المجهول والقصر التاريخي(الذي شهد حفل افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٨م، وحدائق التماثيل ومتحف دليسبس ومتحف الدبابات الذي يخلد ذكرى معركة الدبابات الشهيرة في حرب اكتوبر١٩٧٣م، وزرنا واحدة من أجمل مائة كنيسة في العالم كما قال الأستاذ يحيى وهي الكنيسة الكاثوليكية ، وتناولنا طعام العشاء بنادي الملاحة على شاطئ قناة السويس.

وتعتبر مدينة الإسماعلية إحدى المنتجعاة الكبرى في مصر ومتنفس قريب من مدينة القاهرة ، وتطل على العديد من البحيرات من الدفرسوار حتى جنيفة.

محافظة الشرقية:

خرجت القافلة من الإسماعيلية في اتجاه الغرب (منطقة شرق الدلتا) إلى محافظة الشرقية تلك المحافظة العتيقة والغنية بالآثار، وتقع هذه المحافظة على طريق شمال سيناء فصارت منذ فجر التاريخ معبر القوافل الحربية والتجارية، وتتمتع هذه المحافظة بثروات هائلة في الزراعة والرعي والأسماك، ويرجع ذلك لوجود مسطحات مائية غزيرة، وكان هناك ثلاثة أفرع من النيل تخترق هذا الأقليم، الأمر الذي أدى إلى ازدهارها وقد اشتهر هذا الأقليم بزراعة البردي وصناعة الحرير والأبسطة من عصور بعيدة.

تقع محافظة الشرقية على طول امتداد شرق الدلتا يحدها البحرالمتوسط وبحيرة المنزلة شمالا ومحافظة الدقهلية شمالا وغربا والقليوبية جنوبا، وتتميز بتنوع آثارها (فرعونية/ رومانية/مسيحية/إسلامية).

أهم المناطق السياحية منطقة التلال

قال هيردوت المؤرخ عن تل بسطة (بوبسطة) إنها من أجمل الأماكن التي رآها عندما زار مصر. وهناك عدة تلال أخرى ذات أهمية أثرية مثل تل دفنة وتل فرعون، وهذه المنطقة كانت مقر آلهة مصر السفلى وحامية الملوك ،ولكن هذه الأماكن الأثرية لم تأخذ حظها من الرواج السياحي، في جولة سياحية نتعرف على آثار بلادنا، زرنا (أبو ياسين،وطوخ القزاموص) وهما من المناطق الأثرية الهامة وبها توابيت العجول المقدسة وبقايا مدينة أثرية،كان لزيارة متحف شهداء مدرسة بحر البقر واقع إليم في نفوسنا حيث يضم صورة مأساة وآثار العدوان الأسرائيلي على المدرسة وقتل الأطفال دون ذنب او جريرة ولم تزاح هذة الغمة عن نفوسنا إلا في متحف الزعيم أحمد عرابي واسترجع معنا المرشد السياحي موقف هذا الزعيم الخالد ضد الخديوي توفيق في ميدان عابدين حين أقسم بالله الذي خلقنا أحرارا ألا نورث أو نستعبد بعد اليوم، فكانت الشرارة المبكرة لثورة١٩١٩بقيادة سعد زغلول و الحركة لثورة ١٩٥٢ .

انشرح صدرنا في مدينة الصالحية تلك الصحراء الممتدة والتي تحولت بأيدي المصريين إلى حدائق وبساتين فاكهة، وزرنا جامع السادات بالزقازيق ، وهو من المساجد التي بنيت في صدر الإسلام بمصر، ويذكر أنه دفن به سادات قريش عند دخول الإسلام مصر، صلينا بمسجد أبو مسلم الهمزاني،

في طريق العودة زرنا قرية (بني جرى)التي اشتهرة بتربية الصقور وكلاب الصيد.وتجولنا في حدائق الفاكهة بأنشاص.

الزقازيق عاصمة محافظة الشرقية ــ بيوت الشباب ـ بالمحافظة بها ٢٥٠ سريرا،استقبلنا رئيس مجلس المدينة وبعض القيادات السياسية والتعليمية بالمحافظة، رحبوا بنا وقضينا أمسية ثقافية وترفيهية ،بعد يوم حافل بالمعلومات والترويح عن النفس. رغم أننا على بعد مسافة قريبة من القاهرة إلا أن المبيت كان ببيت الشباب، لنتمكن من زيارة بعض الأماكن التي لم نزرها بعد.

مع إشراقة الشمس تحركت القافلة إلى "صان الحجر" لنتعرف على أثارها

ومنها إلى مدينة رأس العش على قناة السويس. تانيس (صان الحجر) العاصمة القديمة لهذا الإقليم، لم تكن هذه المدينة أقل أهمية عند الفراعنة من أبيدوس وإدفو ودندره في جنوب الوادي، ولكن عند زيارتها لن تجد سوى أطلال لمعبد بهبيت الحجارة وآثار تل المسخوطة، وأخذ المرشد السياحي يصف لنا هذه الآثار وعرفنا منه أن اليهود كانوا يعيشون في صفط الجنة ـ صفط الحنة ـ والتي ذكرت في التوراة باسم (جوشن) في معزل عن المصريين القدماء.

مرة أخرى في اتجاه مدينة بورسعيد، وصلت القافلة إلى شاطئ بحيرة المنزلة والتي تشغل حوالى ٧٠٠ كيلو متر مربع في بقعة كانت في الماضي من أخصب الأراضي المصرية.

محافظة بورسعيد

اتجهنا إلى مدينة بورسعيد من جهة الجنوب عند مدينة القنطرة وزرنا فيها مقبرة الجيش البريطاني، ضحايا جنون العظمة، وخروج الإنسان من منطق الإنسانية في الحرب العالمية الأولى (١٩١٥ - ١٩١٨) لتعود لنا قصة قابيل وهابيل في أبشع صورها في العصر الحديث.

وصلت القافلة إلى مدينة بورسعيد،نقطة تقاطع الطرق الدولية والتاريخية بين شرق العالم وغربه،ومدخل أهم ممر ملاحي في العالم على البحر المتوسط، وتعتبر من أهم مدن القناة وتقع المدينة على الشريط الضيق الذي يفصل بحيرة المنزلة عن البحر المتوسط ...أُنشئت مع حفر القناة وتنسب إلى الخديوي سعيد، ازدهرت في بداية القرن التاسع عشر ومن أهم منشآتها مسجد "عبد الرحمن لطفي" وكاتدرائية القديسة مريم والنصب التذكاري لشهداء العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦م وقد ظهر خلال هذا العدوان معدن وصلابة الشعب وسطر هؤلاء الشهداء أسماءهم في سجل التاريخ بحروف من نور.

زرنا ميناء بورسعيد الذي يعتبر من أهم مواني مصر على البحر المتوسط وبه ترسانة هائلة لتصنيع السفن وزرنا الفنارة التي يبلغ ارتفاعها مائة وأربعة وثمانين قدما.تجولنا بالمدينة وبين النصب التذكاري بميدان الشهداء والمتحف والشاطي

كانت لنا جولات أسعدتنا، وتعرفنا على البيئة الساحلية،مراكب الصيد الصغيرة ذات القلاع الكبيرة، الصيادون هذا يغزل شبكة وآخر يرتق قلعا،وسفن صيد عملاقة تجوب أعالي البحار،بيئة تختلف كثيرا عن البيئة البدوية التي وجدناها في سيناء.

توقفت السيارات في مدينة بورسعيد لعمل صيانة وإصلاح التكييف لإحداها، هذا ما عرفناه من الأستاذ عبد الله عندما أخبرنا بأننا سنستقل عدداً من "اللنشات" لنصل إلى دمياط عبر بحيرة المنزلة، على أن نلتقي بالمشرفين والسيارات في دمياط.

محافظة دمياط :

تقع محافظة دمياط في شمال الدلتا يحدها من الشمال البحر المتوسط وشرقا بحيرة المنزلة، وإلى الجنوب والغرب تمتد المزارع وسهول الدلتا ،وبها مصيف رأس البر الذي يحظى بشهرة واسعة لموقعه الفريد وأنماط العشش للمصيفين.

تعتبر منطقة الجربى من أهم المنتجعات الصحية والعلاج الطبيعي في مصر وذلك لوجود تلال من الرمال التي يقوم عليها علاج الروماتزم عن طريق دفن الجسم داخل الرمال.

عندما رأيت سفن الركاب العملاقة في ميناء "نويبع" تبحر جهة الشرق تمنيت أن أكون ضمن هؤلاء المسافرين وأبحرت يومها بخيالي وكأنني السندباد البحري. واليوم يتحقق جزء من الحلم وها نحن نركب "لنشات" تسيرها محركات بدلا من الرياح، ولكن صواري المراكب الشرعية منتشرة في البحيرة، إنها مراكب صيد الأسماك، أهازيج عمال المراكب تصل إلى مسامعنا، هل يغنون لأنفسهم أم يغنون للسمك والصيد الوفير؟! رحلة بحرية جميلة لم تكن في برنامج الرحلة ولكنها تركت في نفوسنا أثراً جميلاً بعد هذه الفترة الطويلة التي قضيناها في صحراء سيناء.

بدأ الحديث عن دمياط قبل أن نصل إليها، وكل ما نعرفه عنها، الميناء ومدينة "رأس البر" وأنها من الشواطئ الجميلة على البحر المتوسط. وعندما وصلنا مدينة

دمياط، التقينا بالمرشدين وبعد قسط من الراحة تناولنا الطعام وزرنا ميناء دمياط وهو ميناء على أعلى مستوى من التجهيزات.

توجهت إلى المرشد قائلا: رغم تحديث هذا الميناء إلا أنني أعرف أنه من أقدم الموانى على البحر المتوسط فهل هذا صحيح.؟!

يعتبر ميناء دمياط من أقدم ثغور مصر القديمة وذات صلة ببلاد اليونان، ورغم ما وصلنا إليه من علوم التنقيب والبحث في الماضي، فإن دمياط تحتاج إلى جهد كبير لمعرفة العمق التاريخي (الفرعوني) لهذه المنطقة التي كانت مرفأ هاما للسفن التجارية والحربية للدولة الرومانية الشرقية وكانت تمد روما والقسطنطينية بالغلال والكتان والبردي.

وقد اتسعت شهرة مدينة دمياط في أوروبا، حيث إنها كانت هدف جميع الغزوات الأوروبية للشرق وكانت المحطة الأولى للغزوات الصليبية على مصر، التي بدأها الإمبراطور البيزنطي "عما نويل" عام ١١٧٠م، بأسطول كبير قوامه ألف سفينة، إلا أنه أمام صمود الجيوش العربية والإسلامية انسحب بعد ثلاثة وخمسين يوما وتوالت بعد ذلك الحملات على مصر حتى انتهت عام ١٢٥٠م بانكسار الحملة الصليبية الثالثة بقيادة لويس التاسع عشر ملك فرنسا في الثامن من مايو،ذلك اليوم المجيد في تاريخ مصر والذي أصبح العيد القومي لمحافظة دمياط.

ظلت مدينة دمياط بمينائها تحتل مركزا هاما بين موانى البحر المتوسط، حتى عصر محمد علي الذي اهتم بميناء الإسكندرية .

تجولنا في مدينة دمياط ونراها مدينة زاهرة تجاريا وصناعيا، حيث تتركز فيها صناعة الأثاث، والصناعات القائمة على صناعة الألبان، وتنتشر فيها مضارب الأرز ومطاحن الغلال ويكثر فيها صيد الأسماك وتمليحها، زرنا عزبة البرج التي تشتهر بالأبراج العسكرية، وهي مصب (فرع دمياط للنيل) على البحر المتوسط.

عندما وقفنا على اللسان بمصيف رأس البر، أخذت أفكر فيما هو البرزخ وأين ذلك الحاجز الشفاف الرقراق الخفي؟! الساتر الصلب الواضح؟! الذي قال

عنه الخالق القادر في سورة الرحمن."مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان" ومددت يدي لأغترف، فإذا باليمين ماء عذب فرات وباليسار ماء مالح أجاج.فبأي آلاء ربنا العظيم نكذب؟! ودعوت الله أن يثبت قلبي على الصدق والإيمان، وينير بصيرتي لأرى ذلك البرزخ. وتذكرت كلمات الأستاذ إبراهيم عندما قال: إننا في مرحلة التفكير والتدبير، وها نحن كلما انتقلنا من مكان إلى آخر، نرى من آيات الله وقدرته ما يدعو إلى إعمال العقل واطمئنان القلب والهداية إلى منهج الله الصحيح.

محافظة الدقهلية..

تركنا رأس البر في اتجاه وسط الدلتا إلى مدينة المنصورة عاصمة محافظة الدقهلية، وجدنا أنفسنا قد انتقلنا من البيئة الصحراوية في سيناء إلى البيئة الساحلية على الساحل الشمالي ومنها إلى البيئة الزراعية بوسط الدلتا وشرقها وغربها.

القافلة تخترق المزارع والحقول، الطريق ليس باتساع الطرق الصحراوية، كثافة مرور السيارات كبيرة، الهواء يحمل نسمات رطبة معطرة بروائح الخضروات والفاكهة، مروج من الذهب والفضة وسط بساط أخضر ممتد، سنابل القمح الذهبية تتمايل مع نسمات الغروب فنراها بحيرة ذهبية تفيض علينا بالخير والغذاء، وتلك بحيرة أخرى فضية من زهرات القطن، صلبة تأبى أن تطيع النسمة وتميل معها، تقف شامخة تجود علينا بالخير والكساء. وها هي المزارع السمكية في حقول الأرز تجعلها تنبض بالحياة.

دار حديث بين ماجد والأستاذ سمير وسمعته يسأل: كل هذه الأرض وكل ذلك الخير الذي نراه ونسمع أن هناك فجوة غذائية وتقوم الدولة باستيراد القمح وبعض المنتجات الزراعية والحيوانية؟

قال الأستاذ: أي دولة في العالم لابد أن تستورد وأن تصدر مهما علا شأنها، حتى في أمريكا التي تعتبر قارة متكاملة الموارد. ومصر شأنها في ذلك شأن باقي دول العالم.فقلت.. للأستاذ سمير ولكن مصر كانت كما عرفنا سلة الخبز للدولة

الرومانيـة والدولـة الإسـلامية ،وظلـت كـذلك إلى عهـد قريـب أثنـاء الاحـتلال الإنجليزي.

أنت على حق يا أحمد ولكن منذ عدة عقود بدأ عدد السكان في مصر يتزايد والكثافة السكانية تتفاقم ولم يواكب ذلك نمو اقتصادي وزيادة في مساحة الأرض المزروعة، ومازلنا نعيش في الوادي الضيق والدلتا من آلاف السنين.

قال حسين الذي انضم إلينا: نسمع عن جهود تبذلها الدولة للتقليل مـن هـذه الفجوة والقضاء عليها.

نعم فالدولة من خلال خطط التنمية تسعى في ذلك جاهدة، فأنتم قد رأيتم ترعة السلام التي تمتد لعمق سيناء لتزيد مساحة الأرض الزراعية، وتسمعون عن مفيض توشكى لإيجاد وادي بالصحراء الغربية، والكثير من مشروعات استصـلاح الأرض الصحراوية والاهتمام بنظم الري والصرف واستخدام تكنولوجيـا جديـدة في إنتاج سلالات زراعية تتحمل ملوحة المياه ودرجات الحرارة العالية والاهتمـام بالاستثمار في التنمية الزراعية.

قال ماجد: وهل لنا دور كأفراد في هذه التنمية؟

الحكومات مهما بذلت من جهد إن لم يقابله وعي من أفراد المجتمع، فإن هـذه الجهود إما أن تذهب هباءً أو تأخر معدلات التنمية، وكلما قل عدد أفراد الأسـرة كانت فرصة تنميتها أفضل والقدرة على توفير حياة كريمـة لهـا ممكنـة، المهـم أن يكون لدى كل فرد في المجتمع القدرة على أن يكـون منتجـا فعـالاً ومسـتهلكاً واعيا وعاقلاً. وضعت يدي في حقيبتي وأمسكت برغيـف مـن الخبـز حـل عليـه الجفاف وسألت نفسي، كم تكلف هذا الرغيف حتى يصل إلى يدي، وكنـت قـد نويت أن أتخلص منه فوضعته مرة أخرى في الحقيبة عسى أن أنتفع به.

.. القافلة تبطئ السير لعبور أحد الجسـور، لقـد وصـلنا إلى مدينـة المنصـورة، اقتربت من النافذة وكأنني أبحث عن دار ابن لقمان، وانتبهت إلى صـوت المرشـد السياحي يقول: على الرغم من كثرة الآثار بمحافظة الدقهليـة إلا أنهـا مثـل كـل مدن منطقة وسط الدلتا، آثارها لم يكتـب لهـا البقـاء، ويرجـع ذلـك إلى الطبيعـة

المناخية، حيث ترتفع نسبة الرطوبة وارتفاع نسبة المياه الجوفية، وما نالته من تخريب، إلا أن هذه المدينة الحديثة تاريخيا والتي ظهرت أثناء الحملات الصليبية، كان لها دور كبير في صد تلك الحملات، في عام ١٢١٩م تمكنت الحملة الصليبية الخامسة من احتلال دمياط ثم مدن تنيس جنوب بحيرة المنزلة، مما اضطر الملك الكامل إلى الانسحاب بجيشه إلى موقع على الشاطئ الشرقي للنيل، ولم يكن لهذا الموقع اسم من قبل، كان مكانا ذا حصانة طبيعية بين بحر(أشمون طناح) ونهر النيل، وتمكن الملك الكامل من عمل تحصينات في هذه المنطقة، ولم يتمكن الصليبيون من اقتحام هذه الحصون التي أقامتها القوات المصرية وحسب الخطة العسكرية أمر الملك الكامل بقطع الجسور فحاصرت مياه الفيضان القوات الصليبية التي أسرعت بطلب المفاوضات وانتهى الأمر إلى السماح للقوات المتبقية من الحملة بالانسحاب إلى دمياط ثم الجلاء عن البلاد، وأقيمت لذلك احتفالات عظيمة لهذا النصر الكبير.

ومرة أخرى يكتب لهذه المدينة دور في دحر الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع عشر ملك فرنسا والتي انتهت بأسره وإيداعه في دار رئيس الشرطة "فخر الدين إبراهيم بن لقمان" والتي أصبحت فيما بعد مزاراً لكل وافد حتى الآن، رمزا لانتصار الحق وبسالة شعب مصر، وأهل هذه البلاد الذين أوقفوا زحف حملتين من أعتى الحملات الصليبية، وصارت المنصورة مقر ثلاثة سلاطين هم الملك الكامل وابنه الصالح نجم الدين أيوب وابنه طوران شاه وأولى ملكات مصر الإسلامية "شجرة الدر.

" زرنا دار ابن لقمان الذي تحول إلى متحف يحكي تاريخ تلك الحملات الظالمة والتي تكسرة بارادة الحق، وبناء على طلب الأستاذ يحيى توجهنا إلى زيارة دير القديسة دميان ببلقاس وكنيسة مار جرجس بميت دمسيس، وأدينا بعد ذلك صلاة المغرب بمسجد الموافي وبعد جولة في مدينة المنصورة أدينا صلاة العشاء بمسجد القعقاع.

مفاجأة جميلة أعدها لنا مدير قصر ثقافة المنصورة، ومعه الأستاذ/ إبراهيم مدير المدرسة الذي جاء يطمئن علينا وعلى سير الرحلة (القافلة)، التففنا حولهما

نشكر السيد المحافظ على حفاوته والأستاذ إبراهيم على سؤاله واهتمامه والاطمئنان علينا.

قضينا أمسية جميلة بين قصائد الشعر والمديح النبوي ومسرحية تجسد الحملة وأسر لويس التاسع عشر وإيداعه دار ابن لقمان.

وبعد ذلك توجهنا إلى دار الشباب بالمدينة للمبيت به، الدار معدة إعداداً جيدا وتستوعب أعداداً غفيرة بها مطعم وصالة ألعاب رياضية.

وفي الصباح كان في وداعنا رهط من مسئولي المحافظة وهم يدعوا لنا بالتوفيق ويتمنوا لنا رحلة سعيدة.

خرجت القافلة من المدينة في اتجاه محافظة الغربية على طريق المحلة.

أعطى المشرف الأستاذ كامل كتيبا صغيراً طلبه منه، وبالفضول الذي يلازمني منذ بداية الرحلة، حاولت أن أعرف ما بداخله، انتظرت حتى انتهى الأستاذ من الاطلاع عليه، اقتربت مستئذنا في الكتيب، فإذا به كتيب خرائط ومعالم مصر السياحية. الورق مصقول والصور والخرائط ملونة بشكل جذاب وواضح والخرائط مفصلة لكل إقليم ومحافظة وحتى الأحياء الشعبية وتمنيت أن أمتلك مثله. شكرته وأعدته إليه متسائلا هل توجد آثار فرعونية في محافظة الغربية؟

قال: سبق وأن عرفنا أن منطقة الدلتا بمناخها الرطب لا تساعد على بقاء الآثار، وموقعها الجغرافي على طريق الحرب القديم وطريق القوافل جعل يد التخريب والسلب والنهب تفعل أفاعيلها، غير أنه قامت في هذه المنطقة حضارة خصبة أخرى، فهذه المنطقة تعتبر من أخصب أراضي القارة الإفريقية، ومناخها يساعد على نمو الكثير من الزراعات وأدى ذلك إلى قيام صناعات كثيرة، وكما أن الشعب المصري القادر على العطاء والذي أنشأ مدينة المنصورة ذات التاريخ المشرف في صد الغزوات وأقام فيها القلاع والحصون، فها هو قد أقام قلعة من أهم القلاع الصناعية في أفريقيا - مدينة المحلة - قلعة صناعة الغزل والنسيج في الشرق الأوسط.

محافظة الغربية:

أبراج الكهرباء تعانق مداخن المصانع، صوت ماكينات الغزل مختلط بصوت الجموع الغفيرة في الأسواق التجارية، هكذا استقبلتنا مدينة المحلة الكبرى،المصانع منتشرة بطول المدينة وعرضها، المشاغل والورش الصغيرة لصناعة الملابس الجاهزة في كل مكان، شباب وفتيات من كل سن يفدون على هذه المدينة من القرى المجاورة للعمل بها، سيارت النقل الصغيرة تجوب الشوارع تحمل "بالات" من الأقمشة أو "كراتين" من الملابس الجاهزة المعدة للتصدير، والتوزيع على محافظات مصر في الشمال والجنوب، - عرفت ما معنى البيئة المتكاملة - ففي مدن دمياط كانت صناعة الأثاث، وهنا في مدينة المحلة نجد صناعة النسيج، وفي السويس كانت معامل تكرير البترول والصناعات البتروكيماوية، ومن المؤكد أننا سنجد بعض المدن التي تشتهر بصناعة أخرى، لتكتمل منظومة التصنيع في مصر.

قضينا وقتا طويلا في زيارة عدة مصانع والتي تعمل بأحدث وسائل تكنولوجيا الصناعة، العمال والمهندسون على أعلى مستوى(علمي وفني).. وانتهت الزيارة بهدية لكل فرد منا، قميص من القطن المصري المعد للتصدير والذي اكتسب شهرة عالمية في جميع أسواق العالم.

بقدر فرحتنا بالهدية كان اعتزازنا بما رأيناه وما لمسناه من جهد وعرق يبذل في سبيل الارتقاع بمستوى جودة الإنتاج ليصمد في وجه التكتلات الاقتصادية وغزو المنتجات المستوردة من الخارج، وكم أتمنى أن أجد عبارة "صنع في مصر" على كل سلعة تصل إلى يدي وأستخدمها مثلما هي مزينة للقميص حتى ولو كتبت بلغة أجنبية.

خرجت القافلة من المحلة إلى مدينة "سمنود" وعلى تل صغير وجدنا أطلالاً لمعبد(أوزيس وأوزوريس وحورس) مجرد أطلال لم تجد من يهتم بها ،وكانت هذة المدينة تعرف باسم (بث نتر) في العصر الفرعوني والعاصمة للإقليم الثاني عشر من أقاليم الدلتا، زرنا أطلال معبد "أنورس" وهي بقايا أحجار الجرانيت الأشهب.

وأكملنا رحلتنا إلى مدينة(طنطا) عاصمة محافظة الغربية، وعندما توجهنا

لتأدية صلاة العصر "بالمسجد البدوي" ، واثناء انتظار الأقامة قلت للأستاذ محمد أرى ان الجامع مكتظ بالمصلين واسمع ان الناس يؤمونه ويأتون اليه من كل حدب وصوب .

اسمع ياأحمد كل بدعة ضلال وكل ضلالة فى النار وقد قال رسولنا الكريم فى حديثة الشرف (لا تشد الرحال إلا لثلاثة مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى) تلك هى السنة وفيما عدى ذلك أمور فيها اختلاف لنبتعد عنها، ادينا الصلاة وخرجنا مع الخارجين .

اشترى كل منا بعضا من الحلوى التي تشتهر بها هذه المدينة،وفي حي الصاغة شاهدنا كنيسة الأقباط الكبرى وهي تحفة فنية رائعة

ومن طنطا توجهنا إلى (مدينة كفر الزيات) في منطقة غرب الدلتا وتشتهر هذه المدينة بمصانع الزيوت والصابون وتعتبر من المناطق التجارية الهامة.

محافظة كفر الشيخ

تقع محافظة كفر الشيخ شمال مصر بين فرعي النيل يحدها البحر المتوسط من الشمال بامتداد ١٠٠ كم تكون شريط ساحلي من الكثبان الرملية بين البحر المتوسط وبحيرة البرلس التي تتصل بالبحر ببوغاز البرلس الذي يبلغ اتساعه ١٨٠ مترا.

في كل محافظة من محافظات مصر وعلى كل شبر من أرضها أثر من حجر يحكي التاريخ ، وبيت أنجب قائدا أو زعيما، في قرية(أبيانة) أحدى قرى محافظة كفر الشيخ ولد زعيم الأمة سعد زغلول الذي التف حولة الشعب المصري وقام بثورة ١٩١٩ ضد الاحتلال الإنجليزي.

ذكره المرشد عندما زرنا مقبرة شهداء معركة البرلس في برج البرلس وعند النصب التذكاري بمدينة بلطيم.

كان لابد للقافلة للاتجاه شمالا لزيارة آثار تل الفراعين وبعض المناطق الأثرية بمحافظة كفر الشيخ والتي تنسب إلى الشيخ طلحة الشاذلي كما عرفنا من المرشد السياحي، الذي أخبرنا أن أعمال التنقيب في هذه المحافظة أظهرت آثارا

من العصور الفارسية ,والرومانية والبطلمية في "تل سخا" كما وجدت آثار أفران لصناعة الخزف والفخار من العصور القديمة.

رغم القرصنة الأثرية والسلب والتخريب، فمازال ثرى أرضك يا مصر عامرا ومازال بركانك جداره صلد يحوي كنوز الشرق، يجود ببعضها عندما يشاء، ليعرف العالم أن أسرار الحضارة مازالت في جوفه، لا يبخل برزاز ينثره بين الحين والآخر، ليرطب فؤادنا ويكون لنا حافزا لإعادة هذه الأمجاد، ليس بالطنين ورنين العبارات وحلاوة الكلمات ولكن بعزيمة جنود المنصورة وعرق الفلاحين الذي اختلط بطين الأرض بالدلتا ومهارة العمال في دمياط وبراعة المهندسين في المحلة، ما زلت يا مصر بأبنائك المخلصين من أمثال عرابي وزغلول ومصطفى كامل وغيرهم ممن بذلوا أرواحهم فداء للوطن قادرة على خوض أي معركة، والتصدي لأي غزو والخروج منتصرة من أي صراع.

محافظة البحيرة:

بعد أن أدينا صلاة العشاء في مسجد " إبراهيم الدسوقي" توجهت القافلة إلى مدينة دمنهور عاصمة محافظة البحيرة، التي تقع في الشمال الغربي من الدلتا وتحدها شمالا بحيرتا إدكو ومريوط، وشرقا فرع رشيد وتمتد من الغرب والجنوب في الصحراء الغربية إلى وادي النطرون.

كان الليل قد خيم علينا يأمرنا بالراحة والمبيت بمدينة دمنهور وكان بيت الشباب معداً لاستقبالنا والترحيب بنا.

تناولنا الطعام في مطاعم فاخرة في شرم الشيخ والقرى السياحية بدهب ونويبع، أما اليوم فإننا دعينا إلى وليمة ريفية في دوار العمدة بقرية جناكليس بمدينة أبو المطامير القريبة من دمنهور حيث مزارع الكروم ومصنع العصير، العمدة ابن عم الأستاذ كامل وأصر أن يستضيف المجموعة بأكملها المدرسين والطلبة والمرشدين، كل أفراد القافلة.

المناسبة سعيدة...حفل زفاف ابنة العمدة

الحفل بهيج والفرحة غامرة ولأول مرة يحضر معظمنا مثل هذا العرس.. في

ساحة كبيرة ارتفعت الأعلام وعلقت الزينات وصوت المزمار البلدي والدفوف جعل الخيول تتراقص، شباب القرية يلعبون بالعصا وكأننا نشاهد أحد الأفلام.. وفجأة نسمع طلقات تدوي في السماء وتعلو الأصوات حضرت العروس .. حضرت العروس.

على هودج جائت تتبختر ... الجمل يحط وسط دائرة من الرمال الملونة اختلطت هذه الألوان بألوان الهودج الزاهية، نزل العريس عن حصانه ليحمل عروسه والسعادة بادية عليه، وسط زغاريد النساء وصيحات الفتيات والشباب التي تعلو صوت الطبول، مظاهر السعادة تغلب على الجميع وبدأت الأغاني الريفية الجميلة ورقصات الفتيات الصغيرة.

اجتمعنا على المائدة العامرة بأشهى المأكولات، الصواني الكبيرة تخرج من كل بيت في أجمل مظاهر التعاون والمحبة الخالصة، الكل يسعى لمد يد العون، لم نلحظ بينهم غنيا أو فقيرا، الجميع في حالة من التجانس الذي يدعو إلى الإعجاب.

كانت ليلة سعيدة مليئة بالمفارقات المضحكة فيما بيننا، جميل أن تشعر بسعادة الآخرين وأن يكون لك نصيب منها، وقبل النوم أخذنا نتناقش في عادات وتقاليد أهل القرية التي شاهدناها عن قرب وتركت في نفوسنا أثراً جميلاً.

فى الصباح الباكر ومن دمنهور من المنطقة الأثرية(بكوك توجي) إلى كفر الدوار استكملت القافلة رحلتها في طريقها إلى بعض المناطق الأثرية بالمحافظة،منها منطقة الدلنجات وكوم فرين(تل أبولو ـ الكوم الأحمر- تل كوم الحصن)

تناولنا الغداء بالنادي الاجتماعي لإحدى شركات الغزل العملاقة،

عندما بدأت القافلة في التحرك سألت المرشد أليست رشيد تابعة لمحافظة البحيرة؟

نعم.. لماذا تسأل ؟

لأننا نعرف أنه تم اكتشاف حجر رشيد بها أثناء الحملة الفرنسية على مصر وهو مفتاح الولوج للحضارة المصرية،ونتمنى أن نزور هذه البقعة.

تبعد رشيد عن الإسكندرية ٨٠ كم وسنحاول أن نضعها في خط سير (القافلة) كما سميتموها إن شاء الله،

ابتسم الأستاذ عبد الله الذي تابع الحديث وقال: قبل أن تسأل عن وادي النطرون فإن زيارته مقررة بالفعل عند زيارتنا للواحات الغربية.

شكرته على ما يولينا من رعاية واهتمام.

القافلة تواصل المسير في طريقها إلى عروس البحر المتوسط .الإسكندرية العتيقة.

محافظة الإسكندرية

ها نحن نعود مرة أخرى إلى نسيم البحر المتوسط الرطب الجميل الذي يشفي العليل، السماء الصافية وزرقة المياه متعة للبصر، والحدائق الغناء والقصور بديعة المنظر، مرام كل سائح وزائر ومصيف.

فى شتاء عام ٣٢٢ ق.م كان الإسكندر المقدوني في أوج مجده، ويطمع في تكوين إمبراطورية في الشرق،ووجد غايته في (جزيرة فاروس) شرق بحيرة مريوط، وكلف المهندس ديموقراطيس بالبدء في إنشاء مدينة الإسكندرية التي أصبحت بعد وقت قصير عاصمة مصر وأكبر مرفأ تجاري وأعظم مدن العلم والفن وأهم مراكز إشعاع الحضارة في حوض البحر المتوسط.

بتلك الكلمات بدأ المرشد السياحي الحديث عن مدينة الإسكندرية، تلك المدينة التي أكسبها موقعها الجغرافي مكانة عظيمة عبر القرون والعصور. وجعلها عاصمة الثقافة وملتقى الفلاسفة.

ها نحن نعبر بوابة الإسكندرية والتي صممت بشكل جميل في مدخل المدينة ترحب بالزائرين القادمين إليها من خارج مصر سائحين ومن الداخل مصيفين.

على شاطئ "أبي قير" التقينا بمياه البحر، رائحة شواء السمك في المطاعم المنتشرة على الشاطئ تعبق المكان، سارت القافلة في جولة على الكورنيش،

المدينة جميلة، شواطئها وشوارعها نظيفة، الأمواج المتلاطمة على الشواطئ الشرقية تميزها عن شواطئ البحر الأحمر الهادئة، زرنا بئر مسعود وجذبتنا الروائح العطرة لحدائق قصر المنتزة الذي هو غاية في الإبداع،(كان المقر الصيفي للأسرة المالكة قبل الثورة) وتجولنا في الأسواق الشعبية لشراء بعض الهدايا، المدينة هادئة فهي تغتسل من صيف مضى. أهل الإسكندرية لهم طابع خاص في الكرم والترحيب بالزبائن، يبتسمون لأقل مجاملة، ولهم عادتهم التي اكتسبوها لملازمتهم البحر، فيهم الجراءة ولديهم القدرة والصبر، تجمعهم الشدائد ويسرعون للنجدة، الصيد حرفتهم والشباك عدتهم والقارب وسيلتهم، هذه هي صفات معظم أهالي البيئة الساحلية.

عندما افترشنا الرمال بشاطئ العجمي الهادئ - الثائر.. طلبنا أن يكمل المرشد لنا قصة بناء الإسكندرية، قلت لكم إن الإسكندر الأكبر وضع أساس هذه المدينة عام ٣٣٢ق.م ومنذ ذلك التاريخ والإسكندرية ترتفع مكانتها يوماً بعد يوم فهي مهد الحضارة الإغريقية في الشرق ومبعث الحضارة الهيلينسية البيزنطية، وبها المسرح الروماني.

سأل مراد: كانت فنارة الإسكندرية أحد عجائب العالم القديم ومكتبة الإسكندرية من أهم معالمها فما قصتهما؟

في عهد بطليموس الأول شيد المهندس (سوستراتوس) فنارة الإسكندرية لإرشاد السفن بارتفاع مائة وعشرين مترا (ارتفاع مبنى مكون من أربعين طابقاً) وبها ثلاثمائة غرفة، وهذا يدل على اتساع الميناء وأهميته، وعظمة المدينة وثرائها في هذا العصر، في القرن الرابع عشر الميلادي وعلى أثر زلزال مدمر تهدمت هذه الفنارة، وأمر السلطان قايتباي ببناء قلعته الشهيرة التي زرناها اليوم مكانها.

وفي أزهى عصور الدولة البطلمية وفي عهد بطليموس الأول الذي أمر ببناء الفنارة، أقيمت مكتبة الإسكندرية ودار الحكمة، وفي عصر الفلاسفة العظام في جميع أنحاء العالم كانت مكتبة الإسكندرية هي المرجع، ودار الحكمة هي الملاذ وكما كانت فنارة الإسكندرية لهداية السفن لشاطئ الأمان، كانت المكتبة منارة

العلم والفن والأدب لكل إنسان وظلت على مكانتها إلى أن أحرقت ودُمرت في عصر يوليوس قيصر الروماني. وبذلك فقد العالم رافدا من أهم روافد الثقافة والمعرفة.

قال جميل: ولكننا أعدنا بناءها مرة أخرى.

يا إخواني إنها مصر الحضارة والتي تسير اليوم على نهج العودة إلى مكانها الطبيعي بين الأمم، وفي مظاهرة إنسانية لتلاقي الحضارات وتقديرا لدور مصر الرائد في نشر العلوم والفنون والثقافة، فقد قامت دول كثيرة بالإسهام في بعث هذه المكتبة من جديد وإقامة هذا الصرح الحضاري العظيم على أحدث النظم العلمية وتضم ملايين الكتب والوثائق، يا أبنائي لم تعد مصر متحفا فقط لجمع الآثار ولكنها في الطريق لتكون محطة هامة في مشوار تقدم البشرية، إننا نشهد نهضة ثقافية وأدبية انتشرت على شكل مكتبات ثابتة ومتنقلة ومن خلال مشروع القراءة للجميع الذي أصبح مشروعا قوميا، سيؤتي ثمارة قريبا.عندما تتلاقى هذه الروافد من الكفور والنجوع والقرى، ليفيض نهر العلم ويسهم في تقدم المجتمع المصري، قد تكون الخطى بطيئة، ولكن الأثر ملحوظ ونراه فيكم، ففي كل يوم ألحظ فيكم ومن خلال أسئلتكم وتصرفاتكم، ما ينم عن اكتسابكم قيما وخبرات هي سلاحكم في الدفاع عن أمتكم وإيجاد مكانة مرموقة لها في زمن تلاقي الحضارات ولا نقول صراع الحضارات.

بدأت الشمس تلملم خيوطها الذهبية وتستعد للرحيل "لتشرق من جديد على عالم آخر ينتظرها، ليبدأ يوم جديد من النشاط والعمل في الشطر الثاني من الكرة الأرضية، سبحانه المبدئ المعيد، ها هو القمر بدراً يتسلم مهامه ليصاحبنا ونحن نغادر الإسكندرية في طريقنا إلى مرسى مطروح.

خلال الرحلة من الإسكندرية إلى مطروح كان الحديث عن مزارات الإسكندرية تلك المدينة العامرة، معبد السيرابيوم وعمود السواري (عمود بومبي)، ذلك المعبد الذي أقيم في العصر البطلمي والذي صار أطلالاً لم يتبق منه إلا عمود السواري، وأسوار الإسكندرية وقلعة قايتباي والمتحف الروماني واليوناني

والمسرح الروماني، وشوارع الإسكندرية وأحياؤها وشواطئها، "كوم الدكة" "وكوم الشقافة" "والأزريطة" "ومحرم بك" وجليم وميامى وسيدى بشر "والزنقة"، أماكن لها تاريخ وتركت فينا أثراً.

الإسكندرية التي عاش فيها المصري واليوناني والإيطالي، المسيحي والمسلم وحتى اليهودي إلى عهد قريب. الكاتدرائية المرقصية والمرسي أبو العباس، أبو الدردار والنبي دنيال، نموذج حي للوحدة الوطنية؛ وسماحة الديانات والكفاح المشرف.. نداء الحق ومصرع الظلم.

محافظة مرسى مطروح:

القافلة تخترق الطريق الصحراوي على الساحل الشمالي، القرى السياحية تنتشر على طول الطريق، اجتزنا "ديو ماري مارينا" على بعد خمسة وستين كيلو مترا غرب الإسكندرية، وأصبحنا على مشارف مدينة العلمين التي شهدت صراعاً رهيبا بين جيوش الحلفاء بقيادة "مونتجمري" القائد الإنجليزي الشهير ودول المحور بقيادة ثعلب الصحراء "روميل" خلال الحرب العالمية الثانية وكأن قدر مصر أن تنكسر على أرضها موجات الحروب وتوقف زحف كل خيال جامح من معتد طامع.

زرنا مقابر العلمين والتي دفن في ترابها رفات القوات المتحاربة وصارت مزاراً لكثير من الأوروبين، وزرنا متحف روميل.

لا تخلف الحروب سوى المآسي والأحزان، وها هم "المنتصر والمهزوم" قد واراهم الثرى، وها هي إنجلترا التي خرجت منتصرة من الحرب العالمية الثانية، وبعد أن كانت الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، صارت دولة لا تطلع عليها الشمس؛ وأصبحت لندن عاصمة الضباب، وصارت تحتل مرتبة متأخرة في عالم الاقتصاد، وأضحت ألمانيا واليابان الخاسرتان من أقوى الدول اقتصادياً وأعلى مكانة من حيث مستوى معيشة الفرد، والأيام دول، أين كانت أمريكا قبل مائة عام، أين قياصرة روسيا.؟!

اجتازت القافلة "مدينة الضبعة" "وعلم الروم" وصارت على مشارف مدينة

مرسى مطروح، أجمل شواطئ الساحل الشمالي، الطريق طويل ونسيم البحر الرطب يشعرنا ببعض البرودة.

بيت الشباب عبارة عن خيام على الشاطئ، بنظام وهدوء عرف كل منا مكانه وخيمته وسريره، تناولنا الطعام وأسرعنا إلى جولة في المدينة.

سوق "ليبيا" وشارع إسكندرية.. المقاهي والفنادق المنتشرة بشارع البحر، المدينة هادئة غير مزدحمة، لسنا في موسم الصيف ولكن مظاهر المدينة تدل على الزحام الشديد أثناء شهور الصيف، على الشاطئ بائعو الذرة المشوي "وحمص الشام" "والترمس"، لا يختلف الحال عن شواطئ الإسكندرية إلا في الهدوء..

على مسرح قصر الثقافة بجوار مبنى المحافظة شاهدنا عروضاً لفرقة أبناء مطروح التي قدمت عدة عروض لحياة البدو في أمسية رائعة أزالت عنا إرهاق السفر.

هي المرة الأولى التي أجرب فيها معيشة الخيام والمخيمات التي تختلف عن الفنادق والقرى السياحية وبيوت الشباب الأخرى، لم نشعر ببرودة الجو رغم أننا نسمع صوت الأمواج، ورحنا جميعاً في سُبَات عميق وأحلام برحلة جديدة.

الصحراء الغربية

تختلف في تضاريسها ومُناخها عن الصحراء الشرقية، لا جبال ولا أخاديد ولا وديان، صحراء ممتدة ورمال لا يحدها بصر.

اليوم ستتجه القافلة إلى "واحة سيوة" عبر منخفض القطارة، أكبر بحيرة جافة في العالم، مما يدل على أن هذه المنطقة كانت في عصور بعيدة أراضي خصبة قبل أن ينزح عنها الإنسان والحيوان نحو الوادي للبحث عن الطعام والمأوى، وما أدل على ذلك من الاكتشافات الأخيرة "لدينا صورات" عملاقة عاشت في هذه المنطقة منذ ملايين السنين.

عرض المرشد السياحي "فيلم فيديو" في السيارة يوضح معالم محافظة مطروح ومحافظة الوادي الجديد والواحات المنتشرة في هاتين المحافظتين، وعرفنا من خلال العرض مدى إمكانية إقامة مشروع عظيم لتوليد الطاقة الكهربائية في منخفض

القطارة وكيف يمكن استغلال هذه المنطقة سياحياً وشاهدنا بعض سباقات السيارات ورحلات السفاري.

الشمس ساطعة والجو جميل والصحراء رحبة والعقل صاف، مستقبل مصر يشغل تفكير كل فرد في المجموعة، تختلف المشاعر والأحاسيس بالانتقال من بيئة إلى أخرى ومن مناخ إلى آخر.

من شوامخ الجبال في سيناء إلى المروج الخضراء في الدلتا إلى السهول المترامية على الساحل الشمالي، وها نحن نعود إلى السباحة في بحور الرمال!!، وسألت نفسي: هل هناك خلف تلك الكثبان توجد حياة؟، قطيع من الجمال والأغنام وبعض الرعيان من النساء والأطفال يلوحون لنا من بعيد ترحيباً بنا وليجيبوا عن سؤالي، ملابس النساء غريبة ذات ألوان متعددة زاهية، الوجوه منتقبة والملابس ساترة، والبشر واضح من تهلل الأطفال.. السكون سمة الصحراء، لا رياح عاتية ولا أمواج متلاطمة ولا أزيز لطائرات ولا نفير لسيارات، لا عوادم ولا دخان، ولا ضوضاء ولا أمراض. الأعشاب دواء وكلأ، وأشجار الزيتون والتين تستنشق الماء من ندى الفجر وقطرات الماء القليلة المتاحة، نبات الصبار ينتشر في بقاع متفرقة، وها هي أشجار النخيل تلوح لنا معانقة السماء تظلل بيوت صغيرة من طابق أو اثنين، وبعض الخيام، لا بيوت شباب ولا فنادق، لا فيلات ولا ناطحات سحاب ولا أبراج، حياة بسيطة هانئة هادئة.

على أطراف الواحة وقفت السيارات، نزلنا منها في شيء من التثاقل، قد يرجع لطول الطريق وطبيعة المناخ الحارة بعض الشيء، لا نعرف إلى أين سنتجه، نظرت حولي.. كيف يعيش هؤلاء القوم في هذه البقاع النائية، كيف يأكلون ومن أين تأتيهم المؤن؟ موارد المياه هل هي كافية؟ هل تقوم حياتهم على ثمار النخيل وأشجار الزيتون؟

رجل كالشهاب يقبل علينا، رغم كهولة ملامحه خطواته ثابتة، وقاره الشديد لم يمنعه من مصاحبة بعض الأطفال، بنيانه وشكله جعلاه يبدو فارسا من عصر الصحابة يلتف حوله شباب كالأهلة والبدور.

عناق شديد واستقبال حار بين هذا الشيخ الذي لا أعرفه والاستاذ محمد يدل على معرفة قديمة لها جذور عميقة وتقارب شديد، لهجتهم جديدة على مسامعي، لا أتبين معاني الكلام، زادت حرارة اللقاء لتشمل الجميع وبعد أن انتهى الشيخ من الترحيب بالكبار، اقترب منا يجول بيننا ويمسح رءوسنا بيد حانية، وبصوت دافئ رحب بنا، نظري تعلق به، دنا مني وكأسد يحمل شبلاً رفعني إليه محتضناً وكنت أظنه لا يقدر على حمل جريدة نخل!! أنفاسه هدأت من رعدة قلبي، لا أدري لماذا اختارني من بين أقراني

تفضلوا على الرحب والسعة. قالها للجميع.

خيمة كبيرة أعدت لاستقبالنا، وعلى كثرة عددنا امتدت الموائد التي أظهرت الكرم العربي الأصيل، صنوف من الطعام لم نعهدها، شياه كاملة ناضجة ترقد فوق صواني الأرز، امتدت إليها الأيادي متلاحقة لتجهز عليها، أكلنا كما لم نأكل من قبل، ليس عن شراهة وإنما لإعجابنا بصنوف الطعام المتنوعة.

بعد الوليمة تفرقنا لنختلط بأطفال الواحة، نسمع منهم ونراهم عن قرب، خلف الكثبان الرملية القريبة التفت الفتيات حول بئر الماء، يدلين بدلائهن ليغترفن الماء سر الحياه، الزراعات منتشرة في أماكن متفرقة، وسط هذه الصحراء القاحلة والفيافي الموحشة، ما كنت أظن أن يوجد منبت لثمرة ولا فرع لشجرة، ولكن ها هي الواحة تنبض بالحياة، وسرنا نتجول بين الجود والسخاء، الفضل والعطاء، وتلك هي سمات بدو الصحراء تذكرنا بالكرم العربي الأصيل، وكنا نتمنى أن نخرج في رحلة صيد بالصحراء لولا ضيق الوقت.

مرة أخرى نجتمع في الخيمة. سمعنا بعض الأشعار، الأسئلة كثيرة والأجوبة مستفيضة، عرفنا عادات وتقاليد البدو، الأستاذ محمد والمشرفون يحتسون القهوة مع الشيخ ورفاقه في وئام وسكينة.

ما أجملها من حياه، الضحكات من القلب صافية كنبع رقراق يتهادى يحيي الأرض الميتة، هل يمكن أن أكون أحد أفراد القبيلة؟ سؤال لا أعرف إجابته، هل يمكن أن أهجر المدينة الصاخبة، التليفزيون والسينما، المسارح والملاهي، النيل

والمتنزهات، ناطحات السحاب والأنفاق، الكباري والجسور، النوادي وقصور الثقافة، رغم وجود المسجد والمدرسة في الجوار، إنها حياة مغايرة، عادات وتقاليد مختلفة الأعراف والقوانين، الجميع كيان واحد وشيخ القبيلة رأسه، يوقره الجميع دون رهبة، يشاور الصغير والكبير، هذا ما عرفناه من الأهل والعشيرة.

ودون أن أدري وجدت نفسي أودع الواحة من الزجاج الخلفي للسيارة وبيدي كيس من العجوة، أكف تلوح وشفاه تتمتم بالدعاء، وعيون المها تلاحقني.

ما زرنا مكاناً إلا وعرفنا شيئاً جديد وما قابلنا أحدا إلا وتعلمنا منه خصلة حميدة أو ابتعدنا عن عادة سقيمة، وحتى أوقات سير القافلة كانت هناك فرصة للتفكير والتأمل واتساع المدارك.

ما زال حديث شيخ القبيلة مع الأستاذ محمد عن القيم السامية التي افتقدها أهل المدن وكيف أن تغلب المادة وحب المال والنمط الاستهلاكي الذي أصبح سائداً بين أهل المدينة، يهدر الطاقة ويفقد الشاب هويته ويشعل الفتن الاجتماعية، وكنت قد كتبت جزءا من حديث قدسي فاقتربت من الاستاذ محمد أستكمله منه وأسأله عنه.

في رحلة من رحلات السفاري تنطلق القافلة في اتجاه وادي النطرون ملتفين حول منخفض القطارة المرحلة طويلة ولكنها فرصة لاستعادة أحداث الرحلة من بدايتها، كم قطعنا من أميال وكم قابلنا من وجوه!! وكان فضل الله علينا عظيماً فلم يحدث ما يكدرنا أو يعكر صفونا، إلا من بعض الأعراض الخفيفة، تكفلت بها حقيبة الإسعافات الأولية وأزالتها.

للنوم سطوة لا يقوى عليها إلا الخوف والجوع والحمد لله لم نشعر بهما، ولذا فقد غلب النوم معظم الأفراد، إلا السائقين الذين اعتادوا مثل هذه الرحلات ولساعات طويلة من القيادة، ويعرفون الطريق ومسالكه.

تقترب القافلة من وادي النطرون، ذلك الوادي الذي كان ملاذاً للمسيحيين الفارين بدينهم من بطش الرومان كما كانت جنوب سيناء.

الوادي به بعض ينابيع الماء التي تساعد على استمرار الحياه في تلك المنطقة

التي يفد إليها الزائرون من المصريين والأجانب في رحلات منتظمة.

زرنا دير الأنبا بيشوي وعرفنا بعض المعلومات الأخرى عن دير السريان ودير الأنبا مقار ودير البراموس وغيرهم من الأديرة المنتشرة في الوادي.

محافظة المنوفية:

تقع محافظة المنوفية عند رأس دلتا النيل بين فرعي رشيد ودمياط ،يحدها من الشرق محافظتا القليوبية والدقهلية ومن الشمال محافظة الغربية، وتعتبر من أكبر محافظات الوجة البحري وأكثرها كثافة في عدد السكان، ويتبعها ثماني مدن كبرى.

بعد رحلة طويلة استقرت القافلة في مدينة شبين الكوم عاصمة محافظة المنوفية، في هذه المرة كنا نحن الساعين للبحث عن مكان لننال قسطاً من الراحة بعد هذه الرحلة الشاقة. قصر ثقافة شبين الكوم صرح عظيم ضخم شُيد على أحدث طراز، بيت الشباب يسع ضعف عددنا وبه عديد من الملاعب الرياضية بعد فترة راحة إجبارية فرضتها علينا مشاق الرحلة كانت أمسية جميلة شاهدنا خلالها أحد الأفلام السينمائية المعدة بالرسوم المتحركة استمتعنا به وبعد تناول العشاء خلدنا إلى نوم عميق.

في الصباح الباكر كانت السيارات قد أعيد تجهيزها.

بين مدن المحافظة كانت لنا جولة بدأت بزيارة مصنع للحرير الطبيعي وهو الوحيد في مصر،ومحطة تعبئة الموالح وتصديرها إلى الخارج. تناولنا الغداء في برج المنوفية، توجهنا إلى قرية دنشواي بمركز الشهداء ،زرنا هناك متحفا يضم وثائق تاريخية وصور تحكي قصة كفاح هذه القرية الخالدة ضد الاستعمار. عدنا إلى بيت الشباب للمبيت والاستعداد لمرحلة جديدة، القافلة تستعد للاتجاه نحو الجنوب. وكان لابد ـ وقبل ـ أن نغادر محافظة المنوفية زيارة بعض الأماكن الأثرية مثل" كوم مانوس" ومنطقة آثار" البندرية" وزاوية "الناعورة" وبعض التلال الأثرية وزرنا مقابر الشهداء، وأدينا صلاة الظهر في مسجد" سيدي شبل".

خصوبة الأرض وجودتها من سمات محافظة المنوفية وكذلك كثافة السكان، فهذه المحافظة من أكبر محافظات الريف كثافة سكانية ومن أكثر المحافظات تصديراً

للمنتجات الزراعيـة المتنوعـة وتحتـل مكانـة مرموقـة مـن حيـث جـودة الإنتـاج الزراعي.

علي الطريق الزراعي في اتجاه الجنوب،وسط الحقـول ـ القافلـة ـ تسـير ببطء للكثافة الكبيرة لعدد السيارت وتنوعها .

تذكرت ما قيل لي وما قرأت وما رأيت في قريـة دنشـواي تلـك القريـة الـتي تحمل ذكرى الظلم والطغيان وتجبُّر المستعمر، أمام قرية ذنبها الوحيد أنهـا كانـت آمنة لا تحمل غدراً لأحد، فشنق رجالها وترملت نساؤها وتيتم أطفالها، لـذنب لم يقترفوه؟! وقفز إلى ذهني ما يحدث في فلسطين والعـراق، ونظـرت للأسـتاذ محمـد متسائلا فتلا قول الحق "وأعدوا لهم مـا استطعتم مـن قـوة ومـن ربـاط الخيـل ترهبون به عدو الله وعدوكم" صدق الله العظيم.

يا بني أمر من الله بأن نستعد دائماً لغدر الغـادرين وتسـلط الظـالمين وخبـث المنافقين، والحمد لله فإن بلدنا على هذا النهج سائرة ومهمتهـا أن يظـل جيـش مصر هو درع الأمة العربية وما نذكره لحادث دنشواي ما هو إلا جزء من إعدادك لتكون قوة نرهب بها أعداء الله وأعداء الأمة.ولا نعني الإرهاب والتطرف وترويع الآمنين السائد الآن وغير المبرر لأن الإرهاب في هذه الآية يعني القدرة على الردع لكل معتد أثيم.

محافظة القليوبية..

عبرت القافلة كوبري بنها في اتجاه محافظة القليوبيـة، تقـع المحافظـة بـين فـرع دمياط والنيل.عند رأس الدلتا ويحـدها مـن الجنـوب والجنـوب الشـرقي محافظـة القاهرة ومحافظة الشرقية ومن الشمال والشمال الشرقي محافظتا الشرقية والدقهلية ومن الغرب فرع دمياط ومحافظة المنوفية والعاصمة (بنها)

تشتهر المحافظة بزراعة الفواكه خاصة الموالح والمشمش والشمام والتين والفرولة ،وهي بحكم موقعها ملتقى خطوط المواصلات البرية والسكك الحديدية، وتتميـز أيضا بوجود حدائق غناء على مساحة(٥ آلاف) فدان،

مازلنا نسير بين الحقول الخضراء مخترقين مدينة طوخ حتـى وصـلنا إلى مدينـة

فيها وبسرعة زرنا مصنع أدفينا وتناولنا بعض العصائر، واستأنفنا الرحلة إلى القناطر الخيرية حيث المروج الخضراء والبساتين والحدائق الغناء. كانت الشمس بدأت تميل إلى الغروب، وفوق قناطر محمد علي عند مفرق الفرعين (رشيد ودمياط) وقفنا جميعا ننظر إلى الأمام تارة وإلى الخلف تارة أخرى والنيل - نعمة الإله لنا - يجري من تحتنا يفيض بالخير، يروينا ويكسينا ويكفينا، فهل نحن لنعمة الله حافظون ،ولهذا الخير نصون، ولرب هذا النهر حامدون شاكرون.

مع سدول الليل دخلت القافلة مدينة المعز لدين الله الفاطمي، عبق التاريخ الإسلامي يهل علينا من مدينة الأزهر وآلاف المآذن. لؤلؤة الشرق الساحرة، عين الشمس الساهرة وضوء القمر الباهرة، صوت الحياة ورمز الخلود، مقام شهيد كربلاء وشجرة العذراء، قلعة الجبل وحصن بابليون، مسجد الرفاعي والكنيسة المعلقة.

ما أعظمك يا قاهرة المعز، كم أشتاق إلى أهلي، أبي وأمي وأختي، جدي وخالي وعمي، أريد أن أقص عليهم ما رأيت وما سمعت وما عرفت. كلنا كذلك أنا وزملائي. سبع ليال وثمانية أيام قضيناها في هذه الرحلة زرنا خلالها سيناء بشطريها والساحل الشمالي ودلتا النيل وها نحن نعود إلى الديار العامرة.

فى أحد ميادين القاهرة كان الأهل في الانتظار حسب الموعد المحدد، العيون تتلاقى والقلوب تهفو والأصوات تعلو، إنها المرة الأولى التي نغيب فيها كل هذه الفترة عنهم خاصة ونحن في هذه السن.

على موعد بلقاء بعد ثلاثة أيام في المدرسة للإعداد لزيارة القاهرة والجيزة والمعالم الأثرية بهما، شوقي لأهلي أصبح ينازعني فيه لوعتي لفراق أصحابي، لقد ارتبطنا معا بأخوة وصداقة قوية حتى أنني تمنيت أن أصاحبهم إلى منازلهم أو يصاحبوني هم.

أمي كم أحبك وأفتقد حضنك الدافئ، والدي كم أنت قريب إلى قلبي وأنت يا أختي كم أنت عزيزة علي، رغم جمال الرحلة والقيم المكتسبة إلا أن رابطة الدم فوق كل شيء.

الأسئلة تلاحقني، الأم تسألني عن صحتي وأكلي وشربي ومبيتي، وأختي تسألني عما رأيت، وأبي يسألني عمن قابلت وهل استفدت. لم تنقطع الأسئلة حتى وصلنا إلى المنزل.

قالت والدتي..لا تقل شيئًا ولا تحكي حتى أعد الطعام، أريد أن أسمع الحكاية منذ أن غادرت القاهرة وحتى عودتك ورغم التعب والإرهاق، فلم أذهب إلى السرير إلا بعد أن أخبرتهم بالمعالم التي زرناها والمدن التي وطئناها والوجوه التي لقيناها، والعادات والتقاليد المختلفة التي رأيناها. لم أتمكن من سرد التفاصيل لكثرتها ،وعندما شعر والدي برغبتي في النوم، قال نستكمل الحديث فيما بعد. عليك أن تذهب لتستريح. فجدك في انتظارنا غدا.إن شاء الله .

رغم توفر وسائل الراحة والأمان خلال الرحلة وانشغالنا بالرؤية والسماع والاستمتاع، إلا أن الإحساس بدفء الأسرة ولهفتهم، التي رأيتهم عليها هي حصن الأمان والراحة والاطمئنان.

مرت الأيام الثلاثة في زيارات متبادلة بين الأسرة، عرف كل فرد في العائلة تفاصيل الرحلة، انتهى الأمر بأن الجميع أصبح لديه رغبة شديدة في القيام بمثل هذه الجولة بعد أن شعر الكبير منهم والصغير بأنه يجهل الكثير عن تراب وطنه.

الأستاذ إبراهيم على رأس مستقبلينا في المدرسة وحضر كثير من زملائنا في الفصول الأخرى والمراحل المختلفة، رغم الإجازة إلا أنني أشعر أنه يوم دراسي عادي. وبعد أن تأكد الأستاذ إبراهيم وأعضاء إدارة المدرسة بمدى الاستفادة من هذه الرحلة ومردودها العلمي والأدبي والثقافي على المجموعة أعطى الإذن باستكمال الرحلة والبدء في المرحلة الثانية منها وتوفير وسائل النقل لزيارة المعالم السياحية في مدينة القاهرة الكبرى. (وترك تنظيمها لمن هم أولو اختصاص).

محافظة القاهرة :

عاصمة جمهورية مصر العربية وأكبر مدن قارة أفريقيا ، معالمها شاخة ومبانيها عالية ضخمة تمتد على بساط أخضر على جانبي النيل العظيم ، المدينة الساهرة الساحرة..تحت القمر وبين النجوم،الزاهرة النابضة تحت الشمس وبين الكواكب.

من أين نبدأ ؟. سؤال دائما ما يتردد عندما تكثر الاختيارات. من (منف) ميت رهينة التي بناها مينا أم من هليوبوليس(عين شمس)، أم من الهرم" وأبي الهول" أم من حصن بابليون والفسطاط، من مدينة السادس من أكتوبر بطريق الإسكندرية الصحراوى، أم من مدينة العاشر من رمضان بطريق الإسماعيلية الصحراوي، من حلوان التي بناها بنو مروان، أم من قناطر محمد علي.

من القلعة نبدأ، هكذا اجتمعت الآراء، كنت قد زرت القلعة من قبل ولكن في هذه المرة وسط مجموعة من الأصدقاء، ومرشد سياحي يحكي لنا تاريخ القلعة وتاريخ القاهرة القديمة، معظمنا يعرف هذا التاريخ أو جزءًا منه، ولكن عندما تجد من يرتب لك هذا التاريخ ويعرضه، ويظهر لك أصالة هذا الشعب وتضحيات هذه الأمة، وعطاء الأرض وعطاء السماء وقوة العقيدة واتحاد العناصر المكونة لهذا المجتمع، فإن ذلك يشعرك بأنك تنتمي إلى تراب هذه الأرض، مهما كان سنك أو كانت عقيدتك، غنيا كنت أم فقيرا، قويا أم ضعيفا، بعيدا عن الشعارات الجوفاء، والكلمات الطنانة والعبارات الرنانة.

من فوق القلعة نظرت إلى القاهرة الممتدة، ثراها يواري رفات الغزاة وجثمان الأجداد، وسماها تظل المسلم والمسيحي.

هذه هي مدينة الفسطاط التي أسسها عمرو بن العاص عام ٦٤١م شمال حصن بابليون الذي بناه الفرس وجدده الرومان وفتحه العرب (منطقة أثر النبي)وبها جامع عمرو بن العاص أول جامع بمصر ورابع مسجد في العالم ، بني هذا المسجد عام٦٤٢م ،وهو على هيئة صحن مكشوف تحيط به أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة باعمدته الرخامية مختلفة الطراز. وهذا جامع أحمد بن طولون الذي أنشأ مدينة القطائع التي خلف بها مدينة العسكر التي أقامها العباسيون، وهذا هو برج الكنيسة المعلقة وتلك هي مآذن الأزهر والحسين ومسجد السلطان حسن قبلة السائحين لأنه تحفة فنية إسلامية بناه حسن بن محمد بن قلاوون في القرن الثالث عشر الميلادي ، وهذا هو برج الجزيرة أعلى بناء حديث بالقاهرة بني في أوائل عهد الثورة، يتوافد علية الزائرون لرؤية كل شبر في القاهرة وضواحيها عن طريق منظار مكبر كما يوجد مطعم دوار .

القاهرة أرض الدين والدنيا. أول وأهم المدن المصرية القديمة.

وقف المرشد السياحي ينساب منه الكلام في وصف تاريخ القاهرة عاصمة السياسة والثقافة والدين قبل الإسكندرية بزمان بعيد، حين تفوق كهنة عين شمس في علوم الفلك والهندسة والطب والفنون (الرسم والنحت) والتي زارها (طاليس) أقدم فلاسفة الإغريق ونقل عن كهنة هليوبوليس مبادئ الهندسة وظل فيثاغورث أكثر من اثنين وعشرون عاما يدرس بها الفلك والهندسة، على أيدي هؤلاء الكهنة درس أفلاطون الحكمة واللاهوت، وهكذا نرى أن أعظم علماء الغرب قد تتلمذوا على يد المفكرين المصريين العظماء ونقلوا عنهم في كل فروع العلم وظلت كذلك حتى دمرت على يد الفرس، أثناء الصراع الفارسي الإغريقي.

ما أصدق الأستاذ إبراهيم عندما قال: "إننا أبناء حضارة عظيمة تضرب بجذورها في أعماق التاريخ وفاضت بخيرها على العالم أجمع". ما أعظمك يا مصر من شجرة وما أطيبنا وأكرمنا من ثمرة.

تجول بنا المرشد السياحي داخل بعض المتاحف الموجودة بالقلعة والتي تحكي تاريخ مصر العسكري، وزرنا قصر الجوهرة، ومن القلعة حصن القاهرة القديم إلى "بانوراما" حرب أكتوبر العظيمة، شرارة الانطلاق إلى المستقبل، ورمز الصمود والتحدي، في تجسيد فني بديع لمعركة الكرامة واسترداد الحق والقضاء على أسطورة الجيش الذي لا يقهر وبتر الذراع التي ظنت أنها تعبث دون خوف في الجسد العربي، شاهدنا ملحمة العبور وتحطيم خط بارليف ورفع العلم المصري فوق النقاط الحصينة، بروح الشهداء وشجاعة الأبطال وتصميم القادة، تلاحمت العقائد واختلطت الدماء لتسيل على أرض سيناء تطهرها من دنس العدو الإسرائيلي.

قرأنا عن هذه المعارك وشاهدنا بعض الأفلام، ولكن كان لهذه الزيارة وقع وتأثير عظيم علينا نحن الذين لم نعاصر هذه الفترة العظيمة من تاريخ مصر الحديث.

لا أدري لماذا تذكرت كلمات الأستاذ محمد عندما قال: إننا المستقبل والقوة التي يجب أن تعد لردع عدو الله وعدو وطننا، وهل نحن على الطريق؟

وخرجنا من "البانوراما" إلى منطقة المطرية القريبة، حيث شجرة العذراء مريم وأحد محطات مسيرة العائلة المقدسة بمصر والتي أصبحت من أهم المزارات المسيحية في القاهرة ثم بعد ذلك توجهنا إلى منطقة الحسين والأزهر وتجولنا في خان الخليلي الذي يموج بالسائحين من جميع الأجناس شرقيين وغربيين، محلات الذهب والتحف و"الأنتكيات"، البائعون يتحدثون بجميع اللغات حتى اللغة اليابانية تعلموها،الأزقة ضيقة لا تسمح إلا بمرور الناس فرادى، المحلات ملتصقة والمقاهي منتشرة تعج بالزائرين من أبناء القاهرة والوافدين من خارجها وبعض السائحين، سرادقات الطرق الصوفية حول مشهد الحسين مزدحمة بالمريدين. قمت باصطحاب بعض الزملاء إلى منطقة الجمالية وبين القصرين والغورية حيث يسكن جدي.

وزرنا وكالة الغوري وبيت السحيمي ورأينا هناك طلبة من كليات الفنون الجميلة يفترشون الأرض ويستغلون الجدران في وضع لوحات الرسم عليها وبعضهم استغرق في النحت، بعد ذلك قضينا أمسية جميلة في حديقة جميلة بنيت فوق تلة قريبة من شارع صلاح سالم _ رئة لمدينة القاهرة _. نستمتع بالفرق الشعبية من كل المحافظات وبعد يوم حافل بالزيارات عدنا إلى منازلنا. تم الاتفاق أن يكون البرنامج يوماً للزيارات ويوما راحة وكانت هذه فرصة عظيمة للجلوس مع الأهل وزيارة الأصدقاء،أصبحت أملك حصيلة من القصص والنوادر يستمع لها الكبير والصغير.

برنامج الزيارة اليوم يشمل المتحف المصري ومنطقة الأهرامات ودهشور، كان من السهل الالتقاء على أبواب المتحف بميدان التحرير في الثامنة صباحاً.

من السابعة والنصف صباحا تتوافد السيارات محملة بأعداد غفيرة من الأفواج السياحية أجناس وأعمار مختلفة تجمعوا في هذا المكان ليروا رموزاً صغيرة لحضارة عظيمة أطلت على العالم منذ عصور ما قبل التاريخ، من عصر الأسرات

الفرعونية مرورا بالعصور اليونانية والرومانية.

هذه هي المرة الأولى التي أزور فيها هذا المتحف رغم أنه لا يبتعد عن منزلنا، الخطى بطيئة والعيون شاخصة والآذان صاغية واللغات مختلفة. كل مجموعة من السائحين مع مرشد يشرح لهم، جماعات بالألمانية والفرنسية والإيطالية واليابانية ومنهم من لا أعرف لهم لغة، ونحن مع مرشد اللغة العربية.

مومياوات فرعونية توابيت منقوشة ومطعمة بالذهب والفضة، صحاف مرصعة وقلائد مزينة، وتماثيل وأقنعة من الذهب ومن الحجر، كراسي من الخشب ونعال من الجلد، وأواني من الخزف وتمائم وجعارين من الأحجار الكريمة،أَسِرّة منقوشة وملابس من الكتان وتيجان مرصعة بالزمرد والفيروز، كتل من الحجر الصوان نقشت باللغة الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية القديمة (اللاتينية).

خرجنا من المتحف وبراعة المصري تذهلنا ودقته تبهرنا وصبره وقوته تدهشنا، رأينا السائح يدخل المتحف متحفزا ويخرج متحيرا، رأيناه يقف أمام الأثر في إجلال لبديع صنعه ويلمسه إن أمكن في تردد وارتجاف، رأيناه يمعن النظر ويدقق في السؤال وينصت باهتمام.

للعلم سطوة وللفن حرفة وللمال قوة وللإنسان كيان وللحضارة مكان، ومصر للعلم باب وللفن كتاب وللمال كنز وللإنسان عز وللحضارة مهد وللطاغي لحد وللنفس متاع ولدين الله الحق شعاع.

توجهنا إلى منطقة الأهرامات بالجيزة (منف) القديمة ومعبد بتاح وتماثيل رمسيس الثاني وقصر الملك إبزيس، أهرامات خوفو وخفرع ومنقاورع أحد عجائب الدنيا القديمة.

زرت الأهرامات من قبل وكانت زيارتي على سبيل الاستمتاع ومن باب المعرفة أما زيارتي الآن وبعد ما رأيته وعرفته في المتحف المصري وما قاله الأستاذ عبد الله فإن هذه الزيارة بداية لمرحلة جديدة ونظرة أشمل وأعم لماضينا وتراثنا الذي حير علماء الفلك والهندسة والطب وحتى الفيزياء والكيمياء.

ها هي المجموعات السياحية التي كانت معنا في المتحف قد سبقتنا إلى منطقة

الأهرامات تنتشر حولها وكأنها أسراب نحل تحت سطح طود عظيم البناء. وضخم يصعب الدوران حول قاعدته أو الوصول إلى قمته، هذه الأحجار كيف تم رفعها؟ لغز لم يتم الكشف عنه، كم استغرق بناء هذا الصرح؟ لم تعرف المدة على وجه اليقين، وتذكرت حديث عمي محمود عن الادعاءات الباطلة لبني إسرائيل هكسوس الزمن الحالي، شاهدنا مركب الشمس وتمثال أبي الهول _ الشاهد الحارس _ الذي اهتمت به الدولة وقامت بأعمال الترميم لبعض الأجزاء التي جارت عليها عوامل التعرية ومن أهرامات الجيزة إلى مقابر الملوك وهرم زوسر المدرج بسقارة ثم هرم سنفرو بدهشور.

الشمس ساطعة والجو حار، وبدعوى من إحدى شركات السياحة، تناولنا طعام الغذاء على متن أحد المطاعم العائمة على النيل في رحلة ممتعة من جزيرة الذهب إلى المعادي، شاهدنا مقياس النيل بمنيل الروضة وقصر ومتحف محمد علي والفنادق المطلة على النيل ومبنى جامعة الدول العربية.

المراكب الشراعية تجوب النيل في رحلات نيلية قصيرة، مراكب الشحن تحمل البضائع من جنوب مصر إلى شمالها وبالعكس، قوارب الصيد الصغيرة بشباكها تسعى لطلب الرزق، وبعض الصيادين على الشاطئ يداعبون الشص عسى أن يظفروا بسمكة جائزة على صبرهم وإرضاء لرغباتهم في الاستمتاع بهذه الهواية الجميلة.

عند المساء وعلى مسرح دار الأوبرا ذلك الصرح الحضاري، كانت أمسية جميلة مع "كورال" الأطفال، شاركناهم الغناء، وقاسمونا السعادة ورددنا معهم نشيد مصر.

يا روضة من رياض الجنة، يا سفراً من أسفار موسى، يا نغمة من مزمار داود، يا مأمن عيسى، يا وصية الخاتم عليه السلام، يا آيةً في كتاب الله.. فيك السماحة فيك الأمان، يا رمز الأخوة والوئام، بأسمك يعلو بنا المقام، كفاك الله غدر اللئام.

تلك كلمات وجدتني أدونها في مفكرتي وأنا عائد إلى منزلنا، لا أعرف إن كانت نثراً أم شعراً ولكنها خواطر أعبر بها عن حبي لبلدي مصر التي أراها أصل

الحضارة وأم المدنية.

تركتني والدتي مستغرقاً في النوم بعد أن لاحظت مدى الإرهاق من زيارات الأمس،لا توجد زيارات اليوم وكانت مشغولة في إعداد الطعام، عندما صحوت من النوم وبعد أن صليت، قمت بتجهيز إفطاري وجلسنا نتبادل الحديث عن الأماكن التي زرتها في القاهرة وما الذي أعجبني وهل استفدت هكذا سألتني أمي.

فقلت لها: عندما نمسك برتقالة يمكننا أن نصف لونها ونعبر عن مذاقها مثل أشياء كثيرة حولنا، ولكن حبي لك لا يمكنني وصفه أو التعبير عنه، ومشاعرك نحوي لا يمكن أن أحولها لكلمات أقولها، إنها أحاسيس تختزن في العقل الباطن، تعلي الإنسان إذا كانت نبيلة وتهدمه إذا كانت خبيثة.

نظرت إليّ والدتي نظرة طويلة وأراها تنصت باهتمام وتقدير لما أقول.

عندما أطأ بقدمي تراب مصر أشعر بأنه جسد ينبض وقلب يخفق، على ضفاف النيل وفي خان الخليلي وفي الأسواق كنت أنظر إلى وجوه الناس، منهم من يتصبب عرقه كادحاً ومنهم من انفرجت أساريره باسماً، منهم من يدب الأرض واثقاً ومنهم من يتلفت خائفاً، أود أن أسأل كل فرد أراه عن حاله ، حتى الأجانب كنت أريد أن أسألهم عن حقيقة انطباعهم عن شعب مصر.

الهواء رغم أننا لا نراه فإننا نشعر به ونحسه، والماء وضرورته للحياه لا يمكن وصفه أو التعبير عن مذاقه إلا إذا أسن. لا أدري يا والدتي أشعر أنني أتغير ولا يمكنني أن أصف هذا التغيير وكل ما يمكنني قوله هو أنني كل يوم أشتد التصاقاً بهذه الأرض الطيبة، لم يعد حبي لأبي لأنه يوفر لي احتياجاتي وحبي لك لأنك الحضن الدافئ الذي ألجأ إليه وأختي وجدي وأعمامي وخالي، لم تعودوا مجرد أهل وعشيرة أصبحتم قيما بها أسمو وأرفرف بجناحي الصغير.

قالت والدتي ..يا بني لقد أفاء الله عليك بنعمة عظيمة وهي نعمة القدرة على إعمال العقل واستقبال الخير والإيمان به، فأصبحت ترى كل شيء جميلاً، وتفتح قلبك على حب الناس والأشياء واتسع صدرك وبرأت روحك واشتدت عزيمتك وأضاءت بصيرتك، فلا تفرط فيما ملكت، والله اسأل أن يديم عليك هذه

النعم.

الساعة تدق السابعة والنصف .. والجميع في فناء المدرسة استعداداً للتحرك..

الأستاذ إبراهيم يستدعي بعض المشرفين على الرحلة إلى مكتبة، الاجتماع الوقت تأخر فالساعة تقترب من الثامنة.

لابد وأن حدث شيء... حالة من القلق تسود.. ترى ما أسباب التأخير.

نظرت حولي فإذا باثنين من الزملاء لم يحضرا أيمن وجورج.. شاع الخبر بين الجميع.

لماذا لم يحضرا.. الجميع يتساءل. عسى أن يكون ذلك مجرد تأخير ولم يقع لأحدهما مكروه.

الساعة جاوزت الثامنة .. زاد القلق

خرج علينا الأستاذ / محمد

ابننا جورج في المستشفى

دب الرعب فى قلوب الجميع.. وماذا عن أيمن الذي يقطن في العمارة المجاورة.

إنه يرافقه منذ الفجر حيث تجرى لجورج جراحة عاجلة، لاستئصال الزائدة الدودية، والحمد لله اتصلنا تليفونيا واطمأننا على حالته ولكن أيمن أصر على عدم الحضور ونظرا للارتباط بالمواعيد فعلينا مواصلة الزيارات وسأتخلف عنكم لزيارة جورج.

تقدمت إلى الأستاذ مستئذنا، يمكننا اختصار الزيارات اليوم ولكن يجب أن نطمئن على صديقنا جورج قبل البدء في أي زيارة والذهاب لأي مكان.

على أبواب مستشفى التأمين الصحي الذي وفرته الدولة لتلاميذ المدارس وقفت السيارات، في مجموعات وبعد أن استأذن الأستاذ عبد الله لإدارة المستشفى للزيارة توافدنا على زميلنا.

استقبلتنا أسرته بامتنان شديد لما تمثله هذه الزيارة لجورج من رفع لمعنوياته وسرعة شفائه، في غياب الأساتذة أخذنا نمازح جورج ونواسيه في فقدانه جزء

عزيز عليه وهو الأعور.

لم نتمكن من تحويل أيمن عن موقعه وإصراره على ملازمة جورج وحين خروجه من المستشفى خاصة وأن والدة أيمن وأخاه الكبير كانا مع أسرة جورج...

تحركت السيارات لزيارة بعض المتاحف وبدأنا بزيارة متحف وقصر محمد علي بالمنيل ثم قصر عابدين، وشاهدنا مقتنيات أسرة محمد علي من الجواهر والتيجان والقلائد، الصور التي تمثل مراحل حكم الأسرة في مصر من عصر محمد علي إلى عصر الملك فاروق آخر ملوك الأسرة في مصر الذي تم خلعه في عام ١٩٥٢ بيد الثوار الأحرار، وفي متحف باب اللوق شاهدنا بدائع الفن الإسلامي منذ عصر الولاة إلى الدولة الأموية والعباسية والفاطمية والطولونية والإخشيدية والأيوبية ودولة المماليك البحرية والشراكسة والولاة العثمانيين وحتى عصر محمد علي.

"الأرابيسك والمنمنمات والسراميك" والخزف والزجاج الملون والأحجار الكريمة، كلها مجالات برع فيها العامل المصري وأظهر دقة في الصنعة وجمالاً في التنسيق وسمواً في الذوق، وقد ظهر ذلك جليا في جامع الرفاعي والسلطان حسن بمنطقة القلعة، لم يقتصر هذا الفن المصري على المساجد فقط وإنما رأيناه أيضا في الرسم على الزجاج في كنيسة ماري جرجس بحصن بابليون.. إنه الصانع المصري الماهر الذي جعله فنه وإلهامه وخبرته أهم ثروات مصر على مر العصور وحتى الآن.

زرنا متحف العلوم الحديثة الذي أقامته السيدة سوزان مبارك بمصر الجديدة ويعتبر من أهم الزيارات بالقاهرة لما به من إمكانات تعليمية في الصحة والتاريخ والفن والأدب وعرفنا الكثير من المعلومات عن طريق قواعد البيانات وشاشات العرض الموصلة بدوائر الإنترنت للوقوف على أهم المخترعات في العالم، وتعتبر زيارته هامة جدا لكل طفل وطفلة وشاب وفتاة في مصر.

زرنا المتحف الزراعي بالدقي ومتحف الفنان مختار الذي نحت تمثال نهضة مصر المستقر في موقعه أمام حديقة الحيوان بالجيزة، زرنا متحف الفن الحديث

ومتحف السكة الحديد بمحطة مصر. وبعد انتهاء الزيارة ركبنا مترو الأنفاق و هـو أهم الصروح الحضارية بمدينة القاهرة والقلوبية والجيزة، وأوجد - إلى حد كبير - حلاً لمشكلة المواصلات، وتخفيف حدة الازدحام بالقاهرة الكبرى.

فى أقصى جنوب القاهرة في حلوان وفي أحد المنتجعات الصحية كانت وجبة الغذاء.

الجو جميل والسماء صافية إلا من بعض الغبار القليـل المنبعـث مـن مـداخن المصانع. العيون الكبريتية منتشرة بهذه المنطقة.

اختار عبد العزيز بن مروان حلوان مقراً لولايته ونشأ وتربى بها عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين، وبعد الغذاء زرنا متحف الشمع بعين حلوان وفي زيارة سريعة لمصنع الحديد والصلب رأينـا مـدى التقـدم في الصـناعات الثقيلـة وذكر لنا المرشد السياحي وجود الكثير من المصانع في هذه المنطقـة مثـل مصـانع الكوك والكيماويات ومصانع الأسمنـت ومصـنع السيارات وسـيجوارت لصـناعة القاطرات وغيرها من المصانع، وتعتبر مدينة حلـوان إلى جانـب أنهـا مـن المنـاطق الهامة في السـياحة العلاجيـة فإنهـا إحـدى القـلاع الصـناعية في منطقـة الشـرق الأوسط.

فى طريق العودة إلى القاهرة تم الاتفاق علـى اللقـاء بعـد غـد لزيـارة مدينـة الفيوم.

هل انتهينا من زيارة شمال مصر، سيناء والسـاحل الشـمالي والـدلتا والقـاهرة والجيزة، عندما أذهب إلى المنزل سأنظر إلى الخريطة.

...فى المساء أخبرت والدي عن برنـامج زيـارة اليـوم ومـا رأينـا مـن متـاحف ومصانع نفخر أنها على أرض الـوطن وخطـر سـؤال هـل نحـن بلـد زراعـي أم صناعي؟

ما قولك يا والدي في هذا السؤال؟

مصر يا بني رغم قلة المساحة الخضراء والمنحصرة في شـريط ضـيق في الـوادي جنوبا والدلتا في الشمال والتي تمثل خمسة أو ستة بالمائة من المساحة الكلية إلا

أنها تعتبر دولة زراعية بالنسبة لدول شمال أفريقيا، ولكن نظرا لموقعها الجغرافي وإمكاناتها البشرية ومواردها الطبيعية وإمكانية توفر الطاقة الكهربائية ووجود الأسواق ورغبة من الحكومات المتتابعة منذ قيام الثورة في إقامة سوق عربية مشتركة وإيجاد تكامل عربي، فقد اتجهت الدولة إلى التصنيع لسد الاحتياجات والاعتماد على الذات واستغلالا للقدرات. فكانت هذه القلاع الصناعية التي رأيتها في حلوان ورأيتها في المدن الجديدة وستراها إن شاء الله في جنوب مصر عندما تستكمل الرحلة وكان لابد من الاهتمام بالتصنيع والجودة للقدرة على المنافسة والصمود أمام التكتلات الاقتصادية والاتفاقيات والعولمة القادمة، ما هي العولمة وما هي اتفاقية "الجات" التي نسمع عنها هذه الأيام؟

سهولة الاتصالات والمواصلات أدى إلى انفتاح العالم وتحويله إلى الاقتصاد الحر (حرية العرض والطلب) فأدى ذلك إلى هيمنة الدول الكبرى على اقتصاديات العالم النامي واشتعلت المنافسة بين المنتجات المحلية والمستوردة في مجالات كثيرة منها الصناعات الثقيلة والصناعات الإلكترونية وصناعة الأدوية والغزل والنسيج، وكان لابد من وجود اتفاقيات للحد من الاحتكار والغزو التجاري والسيطرة على الأسواق والتحكم في مقدرات الشعوب واستغلالها في توفير المواد الخام ومصادر الطاقة، وعرقلة التقدم الصناعي والتكنولوجي بها، ومن الضروري للدول النامية الأخذ بأسباب التقدم والإسراع في التنمية وجودة الإنتاج للقدرة على المنافسة.

وهل نحن قادرون على ذلك، ونحن نرى التكتلات الاقتصادية تحيط بنا من كل جانب؟

بحكم موقعنا الجغرافي المتميز فنحن قادرون على إيجاد شراكة أوروبية وأفريقية وآسيوية، وبالفعل فنحن ضمن منظمة الدول الأفريقية ونشترك في أكبر تجمع اقتصادي أفريقي، وتم مؤخرا توقيع الشراكة الأوروبية نظرا لأهمية مصر في الشرق الأوسط، ومن خلال العلاقات المتميزة مع دول آسيا شرقا وجنوبا مثل اليابان والصين نقيم مناطق التجارة الحرة، وتسعى مصر من خلال الجامعة العربية لبعث السوق العربية المشتركة التي أصبحت الأمل الأكبر للأمة العربية

والإسلامية.

بعد هذا الحديث لم أجد وقتا للبحث عن الخريطة ولكني تذكرت أن أخبر والدي بضرورة زيارة صديقي جورج بالمستشفى.

اعتدت أن يكون يومي مزدحما بالزيارة وتبادل الأفكار والمناقشات البناءة واكتساب معلومات جديدة، قضيت أنا وأختي فترة الصباح في مشاهدة بعض البرامج التليفزيونية، أفلام "كارتون" قليلة قد تناسب أختي ولكنها لم تعد تناسبني.

حضر والدي و بعد تناول الغذاء ذهبنا جميعا لزيارة صديقي جورج.

بباقة الورد قابلت صديقي الذي تحسنت حالته عن الزيارة السابقة، وبعد جلسة قصيرة تمنيت له الشفاء العاجل حتى يلحق بالرحلة، ومن المستشفى إلى منزل خالي لزيارته، ومعهم قضينا وقتا لطيفا، كانت الرحلة محور الحديث وتمنوا لي التوفيق في استكمالها، وعند عودتنا إلى المنزل أحضرت الخريطة، ووجدت أننا لم نزر مدينة السلوم على الحدود المصرية الليبية وبسؤال والدي قال إنها نقطة حدودية ليس بها مواقع أثرية، تعال ننظر إلى محافظة الفيوم تلك التي ستقوم بزيارتها.

محافظات الوجه القبلي

محافظة الفيوم..

تقع محافظة الفيوم غرب الجيزة وجزء من الصحراء الغربية وهي أرض زراعية تتوفر فيها المياه التي تأتيها من بحر يوسف وبها بحيرة قارون ووادي الريان وبها الكثير من الآثار الهامة وتعتبر من المنتجعات السياحية.

انطلقت السيارات نحو مدينة الفيوم وعبر منخفضها وصلنا إلى سواقي الهدير (السبع سواق)، وعندها وقفنا نلتقط الصور التذكارية وبدأ المرشد السياحي يتحدث عن المدينة.

تعتبر مدينة الفيوم من المناطق الغنية بالآثار واحتلت مكانة تاريخية كبيرة،غير أنها لا تلقى الاهتمام المناسب وعوامل الجذب السياحي قليلة، يوجد عدد كبير من الأهرامات وأطلال القصورمن العصور الفرعونية واليونانية والرومانية والإسلامية فيها أهرامات أمنمحات الأول وهرم سنوسرت الأول ومسلة أبجيج المنحوتة من الجرانيت الوردي وهرم هوارة ولضيق الوقت تحركت السيارات لزيارة أطلال مدينة الفيوم القديمة والحمامات الإغريقية والرومانية وفي جولة سياحية ممتعة اختلطنا فيها مع جموع من السائحين الأجانب زرنا آثار اللاهون وقصر اللابيرنت ومنطقة آثار ببهو وكم كنت أتمنى مشاهدة وادي الريان لأنني رأيته عبر شاشات التليفزيون فنقل زميلي حسين هذه الرغبة إلى الأستاذ محمد الذي وافق عليها.

ما أجمل هذا الوادي، الهواء منعش رغم الصحراء الممتدة وتوسط الشمس كبد السماء، خرير المياه المتدفق له وقع جميل على الأذن في شلال صغير، في سيناء مناطق كثيرة يمكن استغلالها سياحيا أما هذه المنطقة فيجب استغلالها لروعتها والإمكانات المتاحة (قربها من القاهرة والجيزة) وعناصر الطبيعة المتميزة.

أسرعنا بالعودة حيث ميعاد الغذاء على ضفاف بحيرة قارون، تلك البحيرة التي جعلت الفيوم قبلة السياحة الداخلية في مصر، وبعد فترة من الراحة والاستمتاع، بدأنا الاستعداد للعودة. الشمس كأنها تأخذ طريقها للمبيت في البحيرة والسيارات تسلك طريقها إلى القاهرة بعد أن صلينا المغرب في مسجد "أصل باي".

يا لروعة هذه المدينة التي تعتبر متحفا للحضارات وكنت أظن أن مدينة الإسكندرية هي التي تنفرد بهذه الميزة قال: المرشد لقد زار هيردوت هذه المنطقة واهتم بوصفها لعظمة بنائها وروعة بساتينها وقصورها، سبحان الباقي والكل إلى زوال، سبحانه القوي والكون كله لا يساوي عنده جناح بعوضة.

في طريق العودة أبلغنا الأستاذ محمد بأنه قد تم تأجيل السفر عدة أيام حتى يتمكن زميلانا جورج وأيمن من اللحاق بالرحلة على أن يتم اللقاء في تمام

السابعة صباح يوم الخميس القادم إن شاء الله بمحطة سكك حديد مصر بميدان رمسيس.

درس جديد من دروس الأستاذ محمد في المشاركة وتقارب المشاعر والإيثار وقيمة جديدة من قيم الحياة في أن الإنسان لا يتحرك إلا بمشيئة الله.

الساعات تمر بطيئة، عكس أيام الرحلة التي كان الوقت يمر فيها كالبرق ولم نتمكن من زيارة بعض الأماكن لضيق الوقت. كم أتمنى أن تمر هذه الأيام لنعود للحركة والإثارة والمتعه والمعرفة.

تبادلت بعض الزيارات مع أصدقائي وأقاربي، ترددت على المكتبة واستعرت بعض الكتيبات عن جنوب مصر والمناطق السياحية بها.

جاء عمي لزيارتنا وأبناؤه، نجلاء طالبة في كلية الآداب وكريم في الصف الأول من المرحلة الثانوية وحاصل على المرتبة الخامسة على مستوى محافظة القاهرة في الشهادة الإعدادية يعرف عنه النبوغ والتفوق منذ الصغر، لا يهتم بالمواد الأدبية والتاريخ والجغرافيا، يفضل المواد العلمية، فيزياء وأحياء وكيمياء ورياضة.

وعندما تطرق الحديث عن الرحلة سألني هل استفدت فعلا من هذه الرحلة؟ لقد قمنا خلال العام الدراسي الماضي برحلة إلى المتحف المصري ولم نجد سوى أحجار وتماثيل ومومياوات من آلاف السنين، ولم أستفد شيئا.

تذكرت أن مثل هذا السؤال طُرح من قبل على الأستاذ عبد الله. لم أتذكر كيف أجاب عنه ولكني أعرف مضمون الإجابة فقد زادتني الرحلة معرفة ودراية وقدرة على الحديث وثقة في النفس.

قلت له هل كان معكم مرشد سياحي.

قال: لا

قلت هل ذهبتم بغرض الاستمتاع وقضاء بعض الوقت، أم رغبة في المعرفة والثقافة

قال: ذهبنا للاستمتاع والوقوف على بعض المعارف إن أمكن.

قلت عندما تذهب إلى مثل هذه الأماكن لابد من مرافقة مرشد، يعرف تاريخ الحجر وقيمته فتعرف طبيعته الجيولوجية، وإذا عرفت عمر المومياء وكيف احتفظت بهيكلها فهذه قيمة العلوم الكيميائية، وإذا زرت الأهرامات وتعرفت على هندسة البناء وعلم الفلك وحساب السنين فهذه أصول علم الرياضيات، وإذا زرت المصانع العملاقة لأصبحت نظرتك لعلوم الفيزياء أكثر عمقا وفهما. هذا بخلاف من تقابل من بشر، تعرف عاداتهم وتقاليدهم، كلما اقتربت من جذورك ارتفعت هامتك وقوي بنيانك.

قالت نجلاء: ما شاء الله يا أحمد ما تقوله فلسفة علمية وأرى أنك استفدت بالفعل من الرحلة وأصبحت لديك ثقافة كبيرة بالنسبة لسنك ودراستك. نحن أيضا قمنا ببعض الرحلات لعدة أماكن ولكنها فقط كانت للاستمتاع بالنسيم في ليالي الصيف أو دفء الشمس في الشتاء.

قال عمي: لقد تعلمنا منك أن كل رحلة أو حتى مصيف يجب أن تكون المعرفة والثقافة ملازمين للاستمتاع فيها، وكم أتمنى أن تتوفر لنا فرصة زيارة جميع الأماكن السياحية بمصر وإن شاء الله سنفكر فيها على مراحل.

حبنا لبلدنا ونمو الحس بالانتماء لما يأتي من خلال حرصنا على تتبع تاريخنا واستخلاص معانيه واستفهام قيمه والأخذ بنواصيه، إننا نملك تراثا تفتخر به الإنسانية وتجله المدنية ويقتفيه المتحضر، فأصبح قبلة كل قاصد، ودين كل عابد، ومنارة كل وافد. هكذا أنهت حديثَها نجلاءُ.

بدأت في الإعداد والتجهيز لرحلة الجنوب، المناخ في الساحل الشمالي يختلف عن المناخ في جنوب مصر ويتبع ذلك تجهيز ملابس متنوعة وبعض التوجيهات من الوالدين رغم ما أتمتع به من ثقة لديهم.

دائما كنت أسافر مع والدي بسيارته، وفي الرحلة إلى شمال مصر وشرقها سافرنا بالأتوبيسات وأطلقنا على الرحلة اسم القافلة واليوم أسافر بالقطار لمسافة طويلة وأيام عديدة فماذا نطلق عليها؟؟

ميدان رمسيس أحد أهم ميادين القاهرة وأكثرها ازدحاما، ملتقى الوافدين والراحلين يتوسطه تمثال كبير من الجرانيت للملك رمسيس، وفي مواجهته جامع أولاد عنان(الفتح)،الشوارع تموج ببشر من كل حدب وصوب ومن كل المحافظات، الهابطين من أعلى الكباري والمتسلين من الأنفاق، العابرين والمنتظرين القاصدين والتائهين، يشبه إلى حد كبير ميدان العتبة القريب منه.

تجمعنا بمحطة السكة الحديد، المحطة مكتظة، بمسافرين وقادمين، مودعين ومستقبلين، بائعين وعاملين وموظفين وسائقين ومحصلين، مسرعين ومهرولين، الجميع في حركة دائبة وأصواتهم تغلبت على طنين ماكينات الديزل ومكبرات الصوت التي تعلن عن حركة القطارات.

كانت فرحتنا شديدة عندما رأينا زميلنا جورج بعد أن تماثل للشفاء ومعه أيمن، احتفينا بهما وكذلك الأساتذة والمشرفون على الرحلة، اثنان من المرشدين السياحيين غير السابقين، لم يتأخر أحد عن الموعد.

القطار يتحرك في اتجاه الجنوب، المقاعد مريحة والعربات مكيفة والفرحة بادية على الجميع عبرنا عنها ببعض الأهازيج والأغاني.

وقف القطار برهة في محطة الجيزة بداية منطقة مصر الوسطى (الجيزة - أبو صير - سقارة - دهشور - اللاهون) هذا ما عرفته من قراءتي أمس.

عبر كوبري المرازيق يخترق القطار جدار الزمن ليعود بنا إلى الماضي السحيق نتتبع النجم القاطن على حافة الكون المنظور.

دخل القطار وادي النيل الضيق وزادت الشمس سطوعا كما سطعت هذه المنطقة وكان لها دور سياسي بارز في العصور القديمة. وبدأ عمل المرشد السياحي.

محافظة بني سويف:

"بوفيسا" في العصر القديم، "منسوبه" بعد الفتح الإسلامي، مدينة المرمر والمباني الحجرية والأساطير المصرية القديمة، وعاصمة محافظة بني سويف.

وكانت أول زيارة لنا لمدينة أهناسيا (أهناس) زارها كثير من الرحالة منهم اليعقوبي وابن حوقل وأشار إليها الإدريسي على أنها واسعة الخيرات وجامعة للبركات ونامية الزراعات، ومتاجرها رائجة وأسواقها مربحة،

وتعتبر منطقة "ميدوم" من أهم المناطق الأثرية وهرم ميدوم الذي اهتم به علماء الآثار. وبها أُكتشف تمثالا (رع حتب وزوجته نفرت) وزرنا بعض المقابر والجبانات، منها جبانة (سدمنت) وهناك بعض الآثار القبطية والإسلامية منها دير الشهيد في مدينة "ببا" وجامع البحر ومقام الشيخة حورية.

تجولنا في المدينة نتعرف على أهل الصعيد في ديارهم وأسواقهم وحقولهم،طبائعهم الحياتية وسلوكهم غير أهل الشمال، بشرتهم السمراء وأجسامهم النحيلة، للمناخ الجاف وارتفاع درجات الحرارة تأثير قوي وواضح على البشر وأنواع الزراعات.

محافظة المنيا:

أخذ القطار يطوي الوادي بمحاذاة النهر، ونحن ننتقل بأبصارنا بين الصحاري والجبال والزروع والوديان حتى أصبحنا على مشارف محافظة المنيا (عروس الصعيد) مدينة الفنون والعمارة والنحت والتصوير، القرية العامرة، "البهنسا" في العصر الفرعوني والتي لا يخلو أي مرجع تاريخي من ذكرها، ربوة مريم العذراء وابنها السيد المسيح.

رحلة العائلة المقدسة

أسهب المرشد السياحي في الحديث عن هذه المدينة ونحن واقفون على إحدى الروابي فسألته ماذا تعني بربوة مريم؟.

عندما اشتد ظلم الرومان بالشام وفلسطين، أخذت العذراء مريم ويوسف النجار يبحثان عن ملاذ يفرون إليه ومعهم المسيح عيسى كلمة الله ومشيئته في الأرض، فلم يجدوا غير مصر بيت أمن، وعبر الطريق الحربي القديم قدمت العائلة المقدسة إلى مدينة الفرما وعن طريق القنطرة أيام ولاية (جانيس ترافيوس) الحاكم الروماني لمصر توجهت العائلة إلى الدلتا فوصلت إلى قرب مدينة الإسماعيلية

وعن طريق وادي "طمبلات" وصلت إلى مدينة (هيرون بولس) قرب "أبو صير" حاليا ثم استأنفوا الرحلة إلى "تل المسخوطة" (القصاصين) ثم توجهوا إلى "صفط الحنا" ثم غربا إلى "تل بسطا" (جنوب الزقازيق) وهناك دعاهم فلاح مصري فقير للمبيت لقسوة الجو البارد القارص، في هذا المكان بنيت كنيسة في القرن الرابع الميلادي ثم تم تجديدها وأطلق عليها كنيسة (سان جورج) ثم اتجهوا جنوبا إلى مدينة "بلبيس" وعبروا النيل شمالا عند مدينة سمنود حيث استراحوا في ظل شجرة بني مكانها كنيسة العذراء مريم، يحج إليها المسيحيون احتفالا بالقديسة دميان، ثم استمرت العائلة متجهة نحو الغرب وعبروا النيل عند (دسوق) حاليا، وبعد ذلك جنوبا بمحازاة الجانب الغربي للنيل حتى وصلوا (طرانة) قرب الخطاطبة حاليا وعند القناطر الخيرية عبروا النيل متجهين إلى (هليوبوليس) المطرية حاليا، وأصبحت شجرة مريم بهذه المنطقة من المزارات المسيحية بمصر، ومن المطرية جنوبا إلى أبواب بابليون ثم إلى المعادي حيث بنيت كنيسة القديسة ماري، ومع خيوط الفجر أقلع أحد المراكب تحمل العائلة المقدسة إلى أعالي النيل، إلى الجنوب وكانت هذه الرابية التي نقف عليها إحدى المحطات التي توقفت فيها العائلة المقدسة في طريقها إلى القوصية.

وبعد غياب عامين وستة أشهر وعشرة أيام عادت العائلة المقدسة إلى المعادي وعن طريق النيل إلى الفرما ثم إلى فلسطين مرة أخرى، وهذا فضل من الله ونعمة وشهادة منه وتأكيد بأن مصر أرض الأمان والسلام، فكما احتضنت يوسف طفلا ونشأ فيها نبيا وعاش فيها عزيزا، أنجبت فيها أم موسى ولدها الذي تربى فيها وبعث على أرضها. مصر يا أبنائي استقبلت أهل بيت النبوة للديانات السماوية الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلامية.

سمعت هذا الكلام من قبل، سمعته على جبل موسى بسيناء، وسمعته في مسجد الحسين بن علي سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجد السيدة "زينب" ومسجد السيدة "عائشة بنت جعفر" ومسجد السيدة "نفيسة العلم" في قاهرة المعز، وها أنا أسمعه في جنوب مصر وصعيدها. ما أكرمك من شعب وما أطهرك من أرض، وانتبهت على صوت المرشد السياحي أنتم في مقاطعة تعتبر من

المقاطعات الهامة في مصر من العصر الفرعوني وإلى الآن ومن أهم المناطق الأثرية في هذه المنطقة مقابر "تونا الجبل" تل "العمارنة" ومدينة "إخناتون،" ومثل أكثر المدن في مصر من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، تذخر المنيا بالآثار المتنوعة من العصر الفرعوني والعصر البيزنطي والروماني والكثير من الآثار القبطية والإسلامية، وزيارة هذه الأماكن يحتاج إلى أسابيع أو شهور ولكننا سنزور أهم الأماكن مثل آثار "شارونة" وهي على حافة تل (الكوم الأحمر) على الشاطئ الشرقي للنيل وهي مقبرة منحوتة في الصخر وبهذه المقابر صور ونحوت ونقوش تبين أساليب انتقال الحكم من أسرة إلى أخرى، وطرق الصيد في البر والبحر وصناعة الحلي، واهتمام الحاكم بالرعية ومن المؤسف أن هذه المقابر قد نهبت في العصور الوسطى واستعمل بعضها كمساكن في العصر اليوناني مما يدل على فخامتها، وبعضها استعمل كمأوى للمسيحيين الهاربين في أول عهد المسيحية واستعمل بعضها كمحاجر في العصور المتأخرة مما أصابها بالتلف وأزيلت بعض الصور والنقوش.

فى تل العمارنة العاصمة القديمة لمصر والتي انتقل إليها من طيبة في مصر العليا الملك إخناتون (أمينوفيس الرابع) في أيام الأسرة الثامنة عشر (١٣٧٢ - ١٣٥٤) ق.م، ذلك الملك الذي فر من ظلام الوثنية الملحدة ينشد التوحيد وتصحيح العقيدة بأن الله واحد وهو المهيمن والمسيطر على هذا الكون وأنه وحده الإله المستحق للعبادة والشكر والسجود.ولكن عبر عنه بقرص الشمس!

وانعكس ذلك في أسلوب حياته البسيطة وحبه للحقيقة والجمال وأصبحت المعابد مفتوحة تغمرها الشمس واختفت الطلاسم والأعمال السحرية والأساطير من نقوش المقابر في مدينة إخناتون وحلت محلها الطقوس الدينية التي تدعوا إلى التوحيد والنقوش التي تدعوا إلى الحب والعطف.

وهناك آراء نحو إقامة مشروع سياحي كبير في هذه المنطقة لتكون متحفا يجمع كل آثارها المتناثرة في المتاحف لتكون مزارا للسائحين ومرجعا للدارسين وموردا للاقتصاديين.

أما بالنسبة للآثار اليونانية والرومانية فهي كثيرة بين معابد ومقابر، ففي "بني حسن" أحد المعابد الذي مزج فيه البطالمة والرومان آلهتهم مع المعبود المصري "باخت" وسمي هذا المعبد (سبيوس آرتميرس) أي كهف آرتميس ومعبد الإسكندر الثاني ومقابر الكوم الأحمر وكثير من المعابد والمقابر، منها المنحوت في الصخر وفوق التلال مثل المعبد الروماني وآثار (هرم بوليس) ومقبرة (بتوزيريس) تونا الجبل.

ومن الآثار القبطية كنيسة العذراء بجبل الطير (بسملوط) وهي منحوتة في الصخر على الضفة الشرقية للنيل ويرجع تاريخها إلى القرن السادس الميلادي و (دير البكرة) دير العذراء، وكنيسة (بوحنس) من القرن الخامس الميلادي.

ومن الآثار الإسلامية مسجد سملوط بمئذنته الشامخة العالية ومسجد المللطى من العصر الأيوبي والمبني سنه ٧٨هـ والمسجد اليوسفي بملوي بأروقته الأربعة، ومسجد الأمير زيادة بمغاغة.

دونت ما سمعته ولم أره، وسجلت انطباعي عما شاهدت من روائع الفن المعماري عبر العصور والقرون والممالك.

وانتهت زيارة المنيا عروس النيل بكلمات إخناتون.

"يا أيها الإله الأحد، الذي لا يوجد بجانبه شأن لأحد، لقد خلقت الأرض حسب رغبتك، أنت خلقت السماء العلا لتشرق فيها. وحينما كنت وحيدا لا شيء غيرك، خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان وجميع ما على الأرض مما يمشي على رجليه وما في عليين مما يطير بأجنحته، ما أكرم مقاصدك يا رب الأبدية"

دون شائبة شرك وبثبات ويقين في وحدانية الله سبحانه وتعالى عز من قائل: "قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد" صدق الله العظيم. تركنا قرص الشمس الذي جعلها الله سراجا وهاجا تسبح لله في كبد السماء.

محافظة أسيوط:

إلى شجرة البطم العليا إلى (ساوت) في العصر الفرعوني "وسيوت" بالقبطية إلى أسيوط الحالية.. انطلق القطار إلى مصر العليا.

وتعتبر أسيوط من أقدم مدن العمران في العالم، حيث تجري المياه وتنبت الزروع ويتوفر الصيد، هبط الإنسان من المرتفعات والجبال المحيطة بأسيوط، ينشد الغذاء والمأوى، فاستقر وبنى وعمَّر.

فتحت الكتيب الذي لا يفارقني لأعرف الملامح التاريخية لهذه المحافظة التي تعتبر من أهم المناطق التي انطلقت منها الحضارة الإنسانية، من تاسا والبداري في عصور ما قبل التاريخ (خمس آلاف عام قبل الميلاد)، حيث اشتغل الإنسان الأول بالزراعة وصنع أدواته البسيطة ونسج الثياب من الكتان والأسرة من الخشب والأوانة الفخارية من الطين، ونحت التماثيل من الصخور، وعرف الكحل وأدوات الزينة.

وتعني كلمة أسيوط (الحارس) وكانت لهذه المنطقة أهمية عسكرية وسياسية كبيرة منذ أقدم العصور عندما تمكن ملوكها من وقف زحف الهكسوس ووقف أهلها سدا منيعا أمامهم .

كذلك في عصر الوحدة الثانية في عهد (أمنوحتب الثاني) حوالي عام ٢٠٧٠ق.م وفي عصر الوحدة الثالثة عام ١٥٨٠ق.م عندما تم طرد الهكسوس من مصر.

وامتدت أهمية هذه البلاد في العصر اليوناني والروماني، وقريبا من أسيوط كانت المحطة الأخيرة لرحلة العائلة المقدسة، وفي العصر الإسلامي اتخذ "خمارويه بن أحمد بن طولون"، من أسيوط متنزها له، مما يدل على جمالها وبديع بساتينها، وقد خصصت بعض ضياعها وقفا على المسجد الحرام والمسجد الأقصى تبلغ غلتها مائة ألف دينار، وفي العصر المملوكي كان لها شأن عظيم في التجارة.

ويذكر أن بعض القبائل العربية من قريش نزحت إلى هذه المنطقة منهم طائفة أولاد "إسماعيل بن جعفر الصادق" ومن أبنائها "جلال الدين السيوطي" وهو من

أشهر العلماء المسلمين الذي ترك تراثا علميا في الفقه والحديث والأدب، ومازالت مؤلفاته مرجعا حتى الآن، ومنها أسرة "مماتي" وهي أسرة من أقباط مصر الذين تولوا مناصب كبيرة وحساسة وفي دواوين الحكومة من العصر الفاطمي إلى العصر الأيوبي، فيها ولد "عمر مكرم" الذي تعلم في الأزهر وتولى نقابة الأشراف وتزعم الحركة الوطنية في مصر أما أشهر أبناء محافظة أسيوط الزعيم "جمال عبد الناصر" الذي تولى قيادة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.ثم رئاسة الجمهورية.

وقف القطار بمحطة أسيوط والتي تشتهر بالمقابر المنحوتة في الجبال لعظماء وأمراء مقاطعة أسيوط، منها مقبرة "حبجاقي" وفي بلدة القوصية توجد مقابر أمراء "مير" وبالقرب من "منفلوط" توجد مقابر عديدة بمنطقة دير الجبراوي، هذه المقابر تذخر بالنقوش والصور والنحوت والنصوص التي تعطي تصورا للحياة الاجتماعية والسياسية لهذه المنطقة. وهناك بعض الآثار البطلمية والرومانية في كفر منفلوط.

ومن أهم المزارات المسيحية في أسيوط ومصر كلها (دير المحرق) الذي يبلغ مساحته اثني عشر فدانا وأنشئ في زمن الأنبا (باخو ميوسي) في أوائل القرن الرابع الميلادي وأقامت بهذه المنطقة العائلة المقدسة عندما وفدت إلى مصر واستقرت فيها فترة من الزمن وكذلك يوجد بمركز المحرس دير أبو فانا وعلى الضفة الشرقية للنيل بقرية (أبو حنس) يوجد دير وكنيسة أبو حنس.

ويوجد بأسيوط آثار إسلامية منها مسجد المجاهدين ووكالة بيت شلبي وقنطرة المجدوب وترجع إلى عصر السلطان الأشرف (برسباي) ومسجد علي الكاشف بمنفلوط.

فى بيت الشباب بأسيوط كان المبيت والراحة والعشاء، وقضينا بعض الوقت، منا من ذهب إلى صالة "البولنج" وآخرون إلى "طاولة" "البينج بونج" ومنا من آثر الراحة أمام شاشة التليفزيون، وفي الميعاد المحدد دخلنا جميعا إلى أماكن المبيت.

صديقنا جورج مازال يشعر ببعض آثار العملية ولكنه تحامل على نفسه وكان سعيدا جدا عندما زرنا دير المحرق وأخبرنا بأنه زاره من قبل، سأله أيمن عن

سبب تسميته بهذا الاسم فقال لقد رأيتم أن هذا الدير يقع في سفح (قسقام) وهي كلمة قبطية مركبة من (قوس) وتعني كفن و(كام) ومعناها الحلفا أي كفن الحلفا وتلك عادة فقراء أهل هذه المنطقة عندما يموت أحدهم منذ ما قبل التاريخ فكانوا يلفون موتاهم بالحلفا، وعرف هذا الدير بالمحرق لقربه من حوض المحرق الذي كان يتم فيه حرق نبات الحلفا عند انحصار مياه الفيضان بالحوض.لارتفاع درجة حرارة الجو، والدير مكون من البيعة والبرج والحصن، ويزوره كل عام آلاف المسيحيين من كل أنحاء مصر ويفد إليه الكثير من السائحين، حيث يعتبر من الأماكن المقدسة لكثير من الطوائف المسيحية وها نحن مسلمون ومسيحيون نقوم بزيارته.

قال أيمن ألم تلاحظ يا أحمد كثرة المقابر بأسيوط والحرص على بنائها في باطن الجبال وعلى أعماق بعيدة ولاحظت أيضا من خلال حديث المرشد السياحي بأن أهل أسيوط ، أهل قوة وسطوة وأرضهم مصدر خير ونماء، قلت سبحان القوي العزيز، فاطر السماوات والأرض، فالق الحب والنوى، مرسل الرياح ومنزل المطر وجاعل من الشجر الأخضر نارا، خلقنا من تراب ثم نطفة في قرار مكين. ويحي العظام وهي رميم.

هذه المقابر ذكرتني بقول الله تعالى: "فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآيتنا يجحدون " فصلت ١٥".

وقد كان في مصر مثل عاد وثمود، قوم فرعون الطاغية الذين أغرقهم الله ودمر مبانيهم ، ولكن ما نراه آية من آيات الله في الأرض لنتذكر وتزداد لدينا القناعة بأن الإنسان مهما بلغ من قوة فإنه إلى رماد لا محالة، وإذا بُعثر تذروه الرياح في فيافي واسعة أو صار علَقة في جوف سمكة تسكن قاع بحر فوقه سبعة أبحر أو أصبح مضغة في باطن طير يسبح في سماء الله الرحبة، أو صار رمة دفنت بصخرة في كهف داخل جبل صلد، فهو مبعوث يوم القيامة لينال حظه من ثواب أو جزاء من عقاب، لا ينفعه جاه ولا يمنعه سلطان ولا يشفع له إلا إيمانه وعمله الصالح ورحمة الله التي وسعت كل شيء.

صليت الوتر وآويت إلى فراشي مطمئن الفؤاد بعد أن قرأت قول الله تعالى في سورة الزمر "أمن هو قانت أناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب".

محافظة سوهاج:

مع إشراقة فجر يوم جديد يتحرك القطار في اتجاه الجنوب إلى مصر العليا، إلى (أبيدوس) ومعابد أخميم وستي ودير السبع جبال والجامع الصيني، بلد "أبو الفيض" ذو النون المصري.

القطار يسرع والنيل يظهر تارة ويتوارى تارة أخرى خلف الجبال، ولكن نسيمه عالق بأنوفنا- رغم التكييف- كنت أنوي أن أخرج الكتيب لأقرأ عن مقاطعة سوهاج، ولكني لاحظت أن الكرسي بجوار المرشد السياحي خال فذهبت إليه، (أسأله عن بعض المعلومات.) وعندما بدأت أسأله وجدت عددا كبير من الزملاء والأساتذة اجتمعوا علينا.

وبدأ حديثة: مثلما استقر الإنسان الأول في مصر قبل التاريخ بأسيوط في مصر الوسطى كان لهذه المنطقة بمصر العليا نصيب من هذا الاستقرار، حيث نزح الإنسان من الصحراء الغربية في اتجاه الشرق يبحث عن الماء والكلأ وهربا من صراعه مع الحيوانات المتوحشة.

استقر على ضفاف النيل، فزرع الأرض وصنع أدواتها والأواني الفخارية وبنى المقابر والجبانات، ثم بنى المعابد والقصور. قال حسين: ما تقوله الآن يقترب مما قلته من قبل في أسيوط وبالتالي فإن المناخ متشابه والبداية متقاربة (أقصد بداية الإعمار)، وعليه فإن الآثار متشابهة وستكون عبارة عن جبانات ومقابر.

من الثابت علميا أن بصمات الإنسان تختلف من شخص لآخر، وعقائده مختلفة والتفكير يختلف والأذواق مختلفة والطباع تختلف وإن تشابهت الوجوه والأبدان، وعلى هذه الأرض فإن لكل بلد طبائعه وعقائده ولكل عصر طرازه ومبانيه، وإن تشابهت في بعض الأحيان.

النقوش المسجلة على كل جبانات أسيوط تختلف عن النقوش بجبانات

سوهاج والأقصر والنوبة، طرق الحفر والدفن والتكفين تختلف في كل منطقة، وإن كان معظمها في الجانب الغربي من النيل، جهة غروب الشمس...

وتتميز سوهاج بتنوع آثارها والتي ترجع إلى أوائل الملوك الذين حكموا مصر وبها معبد "أبيدوس" دار الحجيج في العصور القديمة وبها آثار (قاو) والتي أسماها اليونانيون (أنتيريوليس) غير العديد من المقابر التي جرفها النيل وكشفت عنها بعثة إنجليزية عام ١٩٢٣م وفي منطقة "أخميم" على الجانب الشرقي للنيل سنزور معبد "رمسيس الثاني" والتماثيل المنتشرة في منطقة ومقابر "الحواويشي" ومقابر "السلاموني" ووادي "بئر العين" وحفائر مجمع الدير.

وفي مدينة "البلينا" وعلى بعد حوالي ثمانية كيلو مترات زرنا مدينة أبيدوس والتي تعتبر من أهم المواقع الأثرية بمصر العليا لما بها من أطلال ومعابد، وتمثل حقبة من أهم أحقاب التاريخ المصري القديم، فيها معبد"رمسيس الثاني" ومعبد "سيتي الأول" ومعبد "الأوزوريون"، وتتميز هذه المقابر بروعة نقوشها ودقة طرازها وقوة بنائها، والبراعة في النحت والتصوير جعل مدينة "أبيدوس" قبلة الحجيج في العصور القديمة، فازدهرت وعمها الرخاء والثراء، ولأنها تقع في بداية الطريق إلى الواحات، فهذا الموقع وذاك الثراء جعلها عرضة للغزو والنهب ولذا قد كان بناء الحصون والتي تدل أطلالها عن مهارة المصريين القدماء في بناء التحصينات الحربية.

وللآثار اليونانية والرومانية نصيب في هذه المنطقة، لأن كلمة (أبيدوس) هي تسمية للبلدة المصرية القديمة (أويجو) ومن معابدهم معبد (أتريبيس) بنجع الشيخ حمد وغيرها.

زرنا كنيسة الدير الأبيض غرب سوهاج والتي أنشئت عام ٤٤٠ ميلادية وكنيسة الأنبا بشوى أو الدير الأحمر وكنيسة "أبو سفين" بمدينة أخميم ودير "السبع جبال"، وتناولت الغذاء في نادي شباب البلينة.

وكانت صلاة المغرب بالجامع العتيق ثم زرنا مسجد الشيخ العارف والجامع الصيني وترجع هذه التسمية لأن حدوده الداخلية مكسوة بالقيشاني من العصر

المملوكي. ويوجد بمدينة سوهاج الكثير من المساجد منها مسجد سيدي جلال وجامع المتولي وجامع الأمير حسن بمدينة أخميم ومسجد السوق.

وكما يحدث في كل محافظة فإن وجود أتوبيسات للانتقالات داخل المحافظة وبين الأماكن الأثرية يوفر الجهد والوقت ويساعد على إمكانية زيارة أماكن عديدة، ورغم ذلك كان لدينا شعور بإرهاق كبير نظرا لتعدد الأماكن وبعد المسافات.

تناولنا العشاء ببيت شباب سوهاج وأسرعنا إلى النوم استعدادا ليوم جديد.

أفقت من نومي على صوت المؤذن لصلاة الفجر، نبهت أيمن الذي لازمني في أماكن المبيت طوال الرحلة. حسب ترتيب الأسماء. وانضم إلينا جورج نظرا لحالته الصحية وارتباط أيمن الشديد به، ذهبت أنا وأيمن إلى المسجد فوجدنا الأستاذ محمد والأستاذ عبد الله وغيرهم وعدد من الطلبة في جو من الخشوع والسكينة، جلس الجميع في انتظار الإقامة، والسماع لصوت المقرئ وبعد أن انتهى من قراءة بعض آيات الذكر الحكيم أخذ يدعو، كانت أدعية لفرط جمالها وجلالها لم أتمكن من حفظها غير أنني سمعته يقول: "اللهم اجعلني للمتقين إماما" وهذه العبارة سمعتها كثيراً.

بعد انتهاء الصلاة وكان الوقت مبكرا على موعد الإفطار والتحرك اقتربت من الأستاذ محمد وبجواره الأستاذ عبد الله لأسأله عن معنى العبارة التي سمعتها.

هل يمكن أن يكون لإنسان عادي أن يكون إماما للمتقين، أم لابد أن يكون ذا مواصفات وإمكانيات خاصة ؟؟.

سمعت الأستاذ عبد الله يقول: ما يميزك يا أحمد أنك لا تترك فرصة إلا وتحاول الاستفادة وتحصيل العلم .

قال الأستاذ محمد : بعد أن اتسعت الحلقة بباقي الزملاء والأساتذة .

في حديث قدسى عن رب العزة أنه من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، شاب نشأ في طاعة الله ، وأتمنى أن تكون وأخوانك، و(اثنين تحابا في الله) وأراكم منهم، فأنتم اجتمعتم على الهجرة في سبيل العلم والمعرفة، والهجرة

لما يهاجر الإنسان إليه وهي طاعة لله ورسوله، ومن السبعة الذين ذكرناهم (الإمام العادل)، والإمامة سهلة هينة على المؤمن الكيس الفطن وهي شاقة صعبة على صاحب الهوى،وكل منا يمكن أن يكون إماما وفي كل وقت.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته.." إلى آخر الحديث.

الأب راع والأم راعية والمدرس راع والصانع راع والحاكم راع والشيخ راع، الإمامة رعاية وتوجيه، فقه ومحبة وثقة، ومن تولى أمر رهط من الناس سئل عنهم يوم القيامة، ولا يمكن أن تكون إماما للمتقين إلا إذا كنت قادرا على العطاء والبذل والتضحية والإيثار ورجاحة العقل وحسن تقدير الأمور وعدم المحاباة وتكون عادلا رحيما.

الشمس غمرت صحن المسجد، فوجدت الأستاذ محمد ينهي حديثه عند هذا الحد، غادرنا المسجد بعد أن صليت ركعتين لله وختمتهم بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم " اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا تسمع.

محافظة قنا:

إلى حضارة "نقادة" ينطلق القطار (أمبوس وقوص وقفط والكرنك وأسنا، إلى طيبة (الأقصر) مدينة الألف باب والتي انطلق منها أحمس لطرد جحافل الهكسوس.

تعتبر محافظة قنا والتي يتبعها مجلس مدينة الأقصر من أهم المناطق السياحية في مصر لما تحويه من آثار فرعونية، بها معبد الكرنك الذي يعتبر أكبر معبد أقيم على وجه الأرض ويحتوي على عدة معابد، ومعبد الأقصر الذي يعتبر من أضخم المعابد وكذلك معابد إسنا وأرمنت، أرض التاريخ المكتوب والحضارة القائمة والباقية الشاهدة على عظمة مصر.

عند مدينة نجع حمادي عبر بنا القطار نهر النيل إلى جهة الشرق، في هذه المدينة أقيم أكبر مجمع لصناعة الألمونيوم في الشرق الأوسط معتمدا على توفر

الطاقة الكهربائية اللازمة من محطات توليد الكهرباء من السد العالي.

شاهدنا من القطار قناطر نجع حمادي التي أقيمت على النيل لتنظيم الري والحماية من خطر الفيضانات، وقف القطار بمحطة قنا أطول محافظات مصر على النيل "المدينة في زهو وفرح - الزينات في كل مكان، هل من المعقول أن تكون هذه الزينة لاستقبالنا؟ قد يكون العيد القومي للمحافظة، وعندما سألنا عرفنا أنه مولد "عبد الرحيم القيناثي"، السرادقات في كل مكان والفرحة بادية على وجه من يقابلنا.

وصلنا ساعة الظهيرة وتوجهنا مباشرة إلى بيت الشباب بمحافظة قنا لوضع أغراضنا وتناول الغذاء استعدادا لزيارة معبد دندرة القريب من المدينة.

بدأ المرشد حديثه في الطريق:

المستعمر الغازي يبحث عن المدن العامرة، لينهب ويسلب ويسرق، والإغريق والرومان من الإمبراطوريات الغازية المستعمرة - قدموا من أوروبا - اجتاحوا بجيوشهم وأعملوا سيوفهم وفرضوا عقائدهم على الكثير من شعوب العالم المأهول.

ولكنها مصر الضعيفة الهينة اللينة المعتدى عليها، تمكنت من أن تسوس الفرس الجامح وتحتوي القوة الغاشمة، وتطوي العقائد الوافدة، وبدلا من أن ينهب المستعمر بهر ودهش، وبدلا من السلب تاه عقله وسجن، شلت قواه وأصبح أسير حضارتنا، وفي محاولة مميتة سعى لأن يجد له مكانة بجانب الحضارة المصرية القديمة، جاءوا من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ليتعلموا كيف شيد المصري وكيف بنى وعمر وكيف وصل إلى هذا المجفى معبد دندرة حاول البطالمة (بطليموس السابع) واتبعه الرومان (أوغسطس) إضافة جزء إلى ذلك المعبد مثلما فعلوا في بعض المعابد في مدن مختلفة.

براعة المصري القديم في البناء والعمارة جعلت العالم يلهث خلفه، يترجى الحجر ويستعطف الحروف ويتوسل للأعمدة لتخبره كيف بني الهرم؟ ومن نسق القاعات؟ ومن حفر السراديب والأقبية؟ ولم يجدوا إلا إجابة قديمة قدم الإنسان

"إنكم في قدس الأقداس".

السيارات تشق طريقها عائدة إلى قنا بعد أن زرنا معبد دندرة، نقيق الضفادع يزداد مع زوال الشمس وزراعات القصب منتشرة، أضواء المدينة تظهر من بعيد تجعلها نجمة وسط ظلام حالك، بدأ الطريق يزدحم بسيارات مختلفة الماركات والأحجام وتحمل لوحات للعديد من المحافظات القريبة والبعيدة، كلها تتصارع للوصول إلى داخل المدينة، السرداقات منتشرة، فيها كل صنوف البشر، عالم شديد الغرابة لم أره من قبل على حقيقته.

السيرك وحلقات الذكر، الحاوي والأراجوز، المراجيح والزقازيق، النيشان وعربة المدفع حمل الأثقال، العاب كثيرة متنوعة، المزمار والناي والدف، الات موسيقية تشيع البهجة بين الحضور وتصاحب المنشد وبطانته، الشريف والمحتال، البائع والمشتري، الأطفال منهم من يحبو باكيا ومنهم من يجري ضاحكا، الفتيات في ثياب زاهية منهن من تحمل عروسا من حلوى أو دمية من قطن، والشابات يختلن باسمات، والشباب بالعصا والجلباب، النساء يتلحفن السواد، من تحمل على صدرها رضيع وأخرى تسحب قطيع، الرجل مرفوعو الهامة تاجهم العمامة، العزة عصا ورداء والنخوة سمة ورجاء، الشيوخ والعجائز يمشون الهوينى في وقار وإجلال.

لم أر مثل هذا المزيج من قبل، سمرة الوجوه ونحولة الأبدان مع قوة البنيان صفات أهل هذه المدينة، غلبت عليهم طبيعة المناخ في جنوب مصر وصبغتهم بطبيعة تميزهم، ظاهرهم خلاف الباطن فيهم، غلاظة القول الظاهرة تغلب دماثة الخلق الباطنة، حدة قسمات الوجه تواري النبل والشهامة، صلابة الرأي تغلف السماحة ورجاحة العقل، إيمانهم العميق وراءه طيبة القلب وصفاء النفس وتمسكهم بالأرض تعني تحمل المسئولية والقدرة على مواجهة الصعاب.

وكأننا في إحدى دور العرض وفيلم سينمائي يصور المولد، الشخوص حقيقية والأحداث طبيعية، والأماكن ليست ديكورات وكانت ليلة لا تنسى، وأضيفت إلى معارفي بيئة جديدة غنية بالعادات والتقاليد التي مازالت راسخة كالجبال، شاهقة كالمسلات، غائرة مثل قبور الملوك والملكات، لم تصل إليهم بعد يد المدينة الزائفة.

انسحبنا من المولد، وعرفنا أنه يمتد لعدة أيام. حملتنا الذكريات عائدة إلى بيت الشباب وفي الطريق استأذنت لإجراء إتصال تليفوني مع الأهل.

لم يغمض جفني قبل مراجعة أحداث اليوم، أرتبها وأنسقها، أكتب ما أخشى أن أنساه من معلومات وأدون الملاحظات وأعقب في بعض الأحيان، والحمد لله فإن قلمي يستجيب لمشاعري لإخراج عبرة أو فكرة أو ملاحظة. واليوم كان كثير العبر ومشحون بالملاحظات وعمق التفكر، إلى النوم يسبق جسدي عقلي.

فى المكالمة التليفونية مع الأهل وبعد أن اطمأننت عليهم وهم كذلك، حذرتني والدتي من الحشرات الزاحفة والطائرة والثعابين والعقارب والوحوش الضارية التي تسكن الجبال وزراعات القصب. فمن أين جاءت زقزقة العصافير التي أسمعها وأيقظتني من نومي العميق.

فتحت النافذة التي تطل على حديقة أشجارها عالية، العصافير تسبح ربها بعد أن أطعمها وسقاها من فيض كرمه وجوده.

زاد الطرق على الباب وصوت مشرف المجموعة ينبه بسرعة تناول الإفطار والاستعداد للسفر إلى مدينة الأقصر.

بجوار نافذة القطار جلست أعد الأعمدة الملازمة لقضبان السكك الحديدية، لا أدري لماذا خطر لي ذلك، القطار تزداد سرعته، توقفت عن الحصر وفتحت الكتيب لأحصر المدن بدلا من الأعمدة.

يقترب القطار من مدينة (قوص) تلك المدينة التي كان لها شأن عظيم في العصر الفرعوني وحتى العصر الفاطمي، بلاد التمر والفحم والكروم والذهب والمعادن النفيسة.

تعني كلمة (قوص) في اللغة القبطية (الدفن) واشتهرت بقدرة أهلها على صيد الثعابين والعقارب ومنها خرج علماء في الفقه الإسلامي رجالا ونساء، وتلك هي مدينة (قفط) التي تقع على الشاطئ الشرقي للنيل وكانت مركزا تجاريا هاما ومصدرا لجلب الأحجار لصنع التماثيل والأعمدة، من هذه المدينة كانت تبدأ القوافل في التحرك لبلاد (بونت) الصومال عن طريق البحر الأحمر

وقبل أن يتحول هذا الطريق ليبدأ من قوص أو قنا.

مدينة الأقصر:

وها نحن نجتاز مدينة (نقادة) إحدى مدن ما قبل التاريخ وبها مقبرة ترجع لعهد الملك (مينا) موحد القطرين وصاحب التاجين، القطار يبطئ من سرعته.

دخلنا طيبة مدينة الألف باب، مثوى حتشبسوت ومبعث توت عنخ آمون، مدينة القصور والمعابد والأطلال، تاج الملوك وبحيرة التاريخ وأكبر متاحف الدنيا. مدينة الثراء والقوة والسلطان. السائحون ينتشرون بطول رصيف المحطة منهم المسافر والقادم، كدنا نتوه وسطهم.

أبحرناهم غزاة، ودحرناهم طغاة، واليوم نستقبلهم بالود ونودعهم بالابتسامة، نعاملهم برفيع الخلق فيسعون لنا بتقدير واحترام ويغادرون بذكريات جميلة وثقافة عميقة.

السيارات في انتظارنا خارج المحطة لتوصيلنا إلى بيت الشباب بمدينة الأقصر، إحدى الشركات السياحية متكلفة بتوفير وسائل المواصلات ونفقات الإعاشة وبرنامج الزيارة، وكان مدير الشركة في استقبالنا واهتم بتوفير كل وسائل الراحة.

تناولنا طعام الغذاء لتبدأ السياحة في أراضي طيبة وبالسيارات الفاخرة وصلنا إلى معبد الأقصر القريب من بيت الشباب ويقع على البر الشرقي من النيل في جنوب الأقصر على مساحة أربعة أفدنة أقيم أضخم معبد في مصر، استقبلنا رمسيس الثاني، على بوابة المعبد بتمثالين عملاقين جالسين وأربعة واقفين ومسلة في الجهة الشرقية بعد أن فصلت توأمتها لتشهد على عظمة مصر وتعلو في سماء ميدان "الكونكورد" بباريس.

يصعب علي إعادة ما قاله المرشد السياحي عن هذا المعبد الذي أقيم على عدة مراحل، بني الجزء الأكبر منه في عهد (أمنحوتب الثالث) من ملوك الأسرة الثامنة عشر ثم أتبع ذلك بناء جزء آخر في عصر الدولة الوسطى وبنيت داخله كنيسة، ومسجد (أبو الحجاج)

فناء واسع على جوانبه أروقة مقامة على صفين من الأعمدة ثم قاعة بها اثنان

وثلاثون عموداً وقد قام الإسكندر بإضافة مقصورة إلى (قدس الأقداس) تتثاقل الخطى أمام كل عمود تشدنا قواعده وتبهرنا تيجانه، وأمام لوحة الحروب التي خاضها (رمسيس الثاني) والتي يطلق عليها "معركة قادش"، وقفنا نستمع من المرشد أسطورة الحرب والسلام، وانتقلنا إلى لوحة أخرى تصور الاحتفالات بهذا النصر العظيم والمظاهر الدينية المصاحبة لهذه الاحتفالات وكأننا في "بانوراما حرب أكتوبر العظيم"، وخرجنا من الجهة الأخرى من المعبد حيث يوجد بقايا طريق كان في الماضي يربط معبد الأقصر بمعابد الكرنك.

عندما سئل نوح عليه السلام، كيف وجدت الدنيا وقد عمرت فيها ألف عام إلا خمسين. قال: وجدتها وكأنني دخلت من باب وخرجت من الآخر.

وها نحن بخطوات قليلة وفي ساعات بسيطة، وبين بوابتين مررنا بعصور ودهور وأزمان وأحقاب تاريخية، قامت خلالها حضارات وسقطت ممالك، وراحت الأجيال تتوارث غنائم الانتصار وعار الهزيمة، تناحرت الجيوش وأبيدت أمم، وتلاقت الحمائم وتشابكت أغصان الزيتون، معبد قائم وتمثال خالد ونقش باق وصور سرمدية وجسد بال لملك أو أمير لا ندري هل هو من أصحاب الجنة أم يتجمر في السعير؟!

يا حي يا قيوم، يا سميع يا بصير يا باقي يا وراث يا مالك الملك يا ذا الجلال والإكرام، تقدست أسماؤك، أنت الخالق لكل صانع وأنت المقدر لكل صنيع، نسألك الثبات على الحق والقدرة على التمييز.

توجهنا إلى بيت الشباب لننال بعض الراحة فقد كان السفر وزيارة المعبد ممتعا وشاقا أيضا، على ميعاد بسهرة جميلة في أحد أفخم الفنادق بمدينة الأقصر بدعوى من الشركة السياحية.

النوم يداعب جفوني ولكني لا أملكه، جسدي في حالة استرخاء، ولكن ذهني في حالة نشاط غير عادي، وبدأت أسماء الله الحسنى تراودني، تقترب مني وتبتعد، أتذكر بعضها فتظهر جلية كالشمس ويبتعد بعضها فتبدو كالنجوم في الأفق، أقرؤها رغم عدم وضوح حروفها، أشعر بها تحوطني من كل جانب، تسير مع الدم

في العروق بل أقرب إلى من حبل الوريد، إنه الله بقدرته وعزته وجلاله خالق كل شيء وفاطر كل شيء والغني عن أي شيء، يستبدل قوما بقوم ويدفع نفس بنفس حتى لا تفسد الأرض، لتستقيم الحياة، سبحانك تجلت قدرتك في كل شيء وحسب مشيئتك بنى الإنسان وشيد وبأمرك تنكسه مهما عمَّر في الأرض.

غلبتني سنة من النوم فإذا بنجوم خمس تبرق في السما، كتب عليها الملك القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن. صوت الأستاذ عبد الله يوقظنا وكنت أتمنى أن يكون الأستاذ محمداً لاخبره بما رأيت.

ليلة لطيفة على ضفاف النيل بإحدى أجمل الفنادق التي رأيتها، يظهر من الخارج على أنه بناء عتيق ولكنه من الداخل كان رائعا في تأسيساته، يمتزج فيه التراث القديم من الأثاث مع أحدث النظم في الإدارة، وفي حديقة

على الشاطئ شاهدنا استعراضاً جميلاً، بملابس أهل الجنوب والنوبة في "تابلوه" فني رائع، الغناء الصعيدي في حفل عرس بالمظاهر النوبية، الوشم بالحنة والبخور.

جماعات من السائحين ضمن الجمهور وقام بعض الأفراد منهم يشاركون في الرقصات، يتمايلون مع الموسيقى ويتمتمون بكلمات لا أعرف معنىً لها السعادة فوق الشفاه بادية والحبور ملازم الجميع.

عدنا إلى بيت الشباب وقد أضيفت إلى ذاكرتنا عادات لم نكن نعرفها عن الزواج وحفلات العرس بالجنوب وانفراجة عن النفس كنا في حاجة لها.

إلى معبد الكرنك تتحرك السيارات كل أفراد القافلة يتكلمون عن مدينة المعابد بالكرنك إذ يعتبر هذا المكان أكبر مساحة تضم أضخم مجموعة معابد في العالم، وكنا نظن أن معبد الأقصر أضخمهم ولكن في معبد الكرنك ثلاث مجموعات من المعابد ومجموعة معابد ومقاصير (منتو - آمون - موت) عند بداية طريق الكباش بدأ المرشد السياحي كلامه الذي لم ينقطع بعد ذلك.

هذه أولى وأكبر مجموعات المعابد (معبد آمون) وتشغل أكبر مساحة وبها عدد كبير من الأقداس والمقاصير والقاعات والأفنية، أقدمها من قبل الدولة الوسطى

وأحدثها من العصور الرومانية، وتبدأ من هذا الطريق الذي نقف عليه في الغرب، وها أنتم ترون على الجانبين تماثيل لكباش رابضة، وهذا الطريق يؤدي إلى الصرح الأول وهو من العصر البطلمي، ثم هذا الفناء المكشوف وعن اليمين والشمال ترون رواقان كل منهما فوق صف من الأعمدة وتعود إلى العصور المتأخرة. وهذه ثلاث مقصورات للسفن المقدسة (لآمون وموت وخنسو) من عصر سيتي الثاني من ملوك الأسرة التاسعة عشر، وإذا اتجهنا يميناً نرى معبد (رمسيس الثالث) وبدأت أسرح بخيالي وأعود إلى تلك العصور، كيف تم بناء هاذين التمثالين (لرمسيس الثاني) داخل هذا الصرح، وكيف تمت هندسة هذه الغابة من الأعمدة التي ترجع إلى المصري (سيتي الأول ورمسيس الثاني) وذلك الصرح المتهدم الذي أقامه (أمنوحتب الثالث) كم صمد من قرون وكيف هدم، كيف أقيمت مسلة حتشبسوت؟ وها نحن نجتاز الصرح الرابع لنصل إلى الصرح الخامس ثم السادس، المقاصير وقدس الأقداس وتناغم الحضارات، بين الفرعونية والبطلمية والرومانية، نقف على البحيرة المقدسة، المتصله بنهر النيل وعبر البوابة الجنوبية من الداخل نصل إلى معبد (آمون) الذي بناه لزوجته (موت) وبقايا طريق آخر للكباش وها نحن في معبد (رمسيس الثالث) ونرى معبد (خنسو) وعدداً آخر من المعابد، وفيما يشبه المتحف شاهدنا أمثلة بارعة من النقش المصري القديم وزرنا مجموعة (منتو) الأثرية.

ومن غابات الأعمدة إلى حديقة الأحجار، نلمس بأصابعنا الحروف الغائرة المحتفظة بألوانها تقص وتحكي زمن الأساطير الحقيقية، بالروعة هذا المكان.

أذان الظهر يرتفع (الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله)

تركنا السائحين تبهرهم حضارتنا وذهبنا نلبي نداء الحق ونؤدي فريضة الصلاة تقربا إلى الله وشكراً على نعمائه.

خرجنا من المسجد لنركب السيارات في طريقنا إلى البر الغربي بالأقصر، إلى وادي الملوك والملكات.

فى مركب الشمس عبرنا النيل إلى البر الغربي، في واد منعزل عمد ملوك

الدولة الحديثة إلى نقر جباناتهم، في صخور الجبال خوفا من سطو اللصوص الذين نهبوا مقابر الأهرامات ولم يدر بخلدهم أن نباشي القبور سيصلون إليهم وإن دفنوا في أعماق البحار كما حدث أخيرا في الإسكندرية والاكتشافات الأثرية تحت سطح البحر، (يتم الحفر في كل مكان وبكل وسيلة وتحت مسميات عديدة، ونوايا مختلفة)!!.

ومن مقبرة إلى أخرى ننتقل، نصعد درجات في باطن الجبل وندخل كهوفا ونمشي في سراديب، يقرأ لنا المرشد النقوش المزينة لجدران المقابر، زرنا مقبرة توت عنخ آمون تلك المقبرة التي كان اكتشافها حدثا عظيما للعالم أجمع لما وجد بها من كنوز بهرت كل من رآها أو سمع عنها وبوادي الملكات وقفنا كثيراً أمام النقوش والرسوم بديعة الألوان بمقبرة نفرتاري ومنها إلى مقبرة "راع موسى" التي تعتبر من أجمل مقابر (طيبة).

الدير البحري:

معبد حتشبسوت ذلك البناء الرائع والذي يدل على مدى تطور فن البناء عند المصري القديم والذي بدا وكأنه يحتضن الجبل الذي يحيطه ويعلوه ارتفاعا.

يتكون المعبد من ثلاث مستويات، مشينا المستوى الأول على السطح وصعدنا إلى المستوى الثاني ثم صعدنا إلى المقصورة المنحوتة في الصخر بالمستوى الثالث. وأشفقت على المرشد السياحي الذي يشرح كل صورة ويقرأ كل نقش، تفاصيل (إيوان بُنت) وتلك النقوش التي تصف البعثة التي أرسلتها الملكة حتشبسوت إلى بلاد (بنت) الصومال حاليا، وصفا دقيقا في ثلاث لوحات رائعة.

أما في منطقة "هابو" كانت لنا عدة زيارات، البوابة الكبرى للملك رمسيس ومعبد رمسيس الثالث ومعبد الرميسيوم الذي تعرض للدمار والتخريب وأطلق عليه اليونانيون اسم (ممنونيوم) اعتقادا منهم أن صاحب هذا المعبد والذي نُصب له تمثالان كبيران هو "ممنون" وهما في الأصل تمثالان للملك "أمنحوتب الثالث".

مازال المرشد يشرح ومازلنا نسمع ونرى ونتعجب، والسائحون يقتربون تارة ويبتعدون أخرى، والممرات تتسع وتضيق، من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى

الغرب بين العمائر والأطلال، منا من أعياه التفكير ومنا من كلت قدماه.

بدأت الشمس في المغيب والسيارات تأخذ طريقها عائدة إلى الأقصر، بعد يوم حافل، لا أدري هل يمكن لذاكرة إنسان أن تستوعب كل هذه المشاهد وللعقل أن يتدبر ما يراه وللأذن أن تستوعب ما سمعت، بعد تناول العشاء لم يكن أمامنا غير النوم العميق.

كنت أظن أنني لن أفيق من النوم إلا بعد يومين من شدة الإرهاق والتعب، ولكن مع أول ضوء للشمس أجدني أستحم وأتوضأ وأستعد لأي رحلة جديدة.

فى حديقة بيت الشباب وقفت مع زميلي حسين ننظر إلى النيل، قلت له الماء هو الماء في الشمال أو الجنوب مصدر الخير، عند المصب في رأس البر كان يعزف لحن الوداع وعند المفرق في القناطر الخيرية كان يعزف لحن العطاء يداعب سنابل القمح وأعواد القطن، وعند قناطر نجع حمادي عزف لحن الصبا والجمال يروي القصب ونبات العدس والفول.

وفي الأقصر مازال يملأ البحيرات المقدسة في المعابد دون أن يعبأ أو يهتم إن كان بين أطلال أو يفيض بخيره على العمران.

كلامك جميل يا أحمد وأشعر به غير أنني غير قادر على أن أعبر بمثل ما عبرت عن حبنا لهذا النهر العظيم، الهادر عند الجنادل، الطيع عند السدود، الهادئ عند المصب والذي لا يرهقه طول السفر حتى وصل إلى عمق سيناء.

بدأت الحديقة تمتلأ بالطلبة والمدرسين والمشرفين وكانت المفاجئة التي لم تنتظرها حين أعلن الأستاذ محمد أن الرحلة من الأقصر إلى أسوان ستكون على متن أحد المراكب النيلية بدعوى من وزارة السياحة والتي ستتحرك في فجر غد.

سعادة بالغة وفرحة عارمة بدت على الجميع إلا سامي الذي صاح، لا أريد ركوب المركب أخاف البحر ولا أعرف السباحة، وتذكرت أنه لم يركب معنا المركب من بورسعيد إلى دمياط وفضل السفر مع السيارات.

ذهب إليه الأستاذ محمد وانفرد به قليلا، ثم عادا إلينا، لم نعرف ما دار بينهم من حديث إلا أن ساميا توقف عن الصراخ وقال الأستاذ محمد، أمامكم وحتى

هذا الموعد راحة ومن يريد أن يتجول بالمدينة، ودون ترتيب تكونت مجموعات، ثنائية وثلاثية وأكثر من ذلك، تتدبر أمر هذه المرحلة الجديدة من الرحلة، نحلم ونتخيل وخرجت هذه المجموعات تتجول في المدينة على أن تعود لتناول الغداء في الثالثة وكل مجموعة معها أحد المشرفين.

فى أسواق المدينة أماكن كثيرة تشبه خان الخليلي، تعرض التماثيل التذكارية والقلائد والجعارين الأصلي منها والمقلد، والصحاف المنقوشة

والعلب المطعمة بالصدف والمشغولات الذهبية وملابس أهل الصعيد والطواقي المصنوعة من الخيوط الملونة والعصا الخيرزان، والزقلة الثقيلة والبلح والكركديه والعجوة صنوف كثيرة وأنواع عديدة "والفلوس" قليلة لا تمكني إلا من شراء بعض الهدايا الرمزية للأسرة.

مرافق مجموعتنا الأستاذ موريس وكنا خمسة زملاء، في ظل شجرة وارفة بإحدى الحدائق جلسنا نتفيأ الظلال وتتنسم الهواء..

قال الأستاذ موريس ما رأيكم في هذه الرحلة؟

ليس هناك أجمل من ذلك ولا أروع حتى الآن، لقد رأينا ما لم يمكن أن نرى وعرفنا ما كان مجهولاً بالنسبة لنا وكل ذلك في فترة قصيرة، وهل كثرة المدن التي رأيتموها والمعارف التي علمتموها لم تحدث عندكم خلطاً؟.. المدن كثيرة والآثار عديدة والأسماء غريبة والخطى مديدة وأنتم في هذه السن، من أين لكم القدرة على الاستيعاب؟

قلت: يا أستاذ الأيام الماضية وما حدث فيها منذ بداية الرحلة حفرت في الذاكرة وكأنها شريط سينما لفيلم شيق وممتع ومفيد، اقترينا من بعض كزملاء وتعلمنا كيف يكون العطاء.

تكلم سعيد قائلاً: في هذه الرحلة عرفنا جزءاً من الماضي الذي نفخر به والذي جعل المجتمع المصري نسيجا واحداً، وكيف كانت الروابط الأخوية صمام أمان وحصن نحتمي به عند الفتن.

نظرة الأستاذ الباسمة تنم عن المحبة والتفاؤل والرضا.

اقترب موعد الإبحار، على المرفأ تراصت السفن النيلية، منها الكبير والصغير ولكنها متقاربة في فخامتها ونظافتها وشكلها الخارجي، منها المصمم على شكل فرعوني ومنها على الطراز الحديث.

الفخامة والأبهة على الباخرة (حورمحب) واضحة من الخارج ويزداد كل شيء جمالا كلما دخلنا وصعدنا طوابقها الثلاثة، صالات لجميع الألعاب الترفيهية وقاعة سينما، تليفزيون وصالة للجمينيزيوم والألعاب الرياضية.

بدأت الباخرة في التحرك إلى الجنوب، صعدنا إلى سطح المركب، تعليمات شديدة بالحرص عند الاقتراب من السياج المحيط بالسطح وعدم المزاح أو العبث بأي شيء في المركب، وأرى الجميع ملتزمين بما سمعوا مع وجود مشرف دائما على سطح المركب.

التففنا حول الأستاذ عبد الله.

إنها مفاجأة جميلة جدا أن تكون الرحلة من الأقصر إلى أسوان على ظهر مركب، لنستمتع بالشمس الدافئة ونطوف مصر العليا فوق صفحات النهر الخالد.

..... ترى كم من الوقت تستغرقه هذه الرحلة كم يوم وكم ليلة وما هي البلاد التي سنتوقف بها؟ سألنا هذه الأسئلة إلى الأستاذ الذي أحالها بدوره إلى ذوي الخبرة المرشد السياحي الذي قال: سنصل إن شاء الله إلى هويس "إسنا" بعد خمس ساعات وبعد عبور الهويس سنزور معبد إسنا وبعد ذلك نتحرك إلى إدفو نقطع المسافة من إسنا إلى إدفو في ستة ساعات ونبيت بها وفي الصباح سنزور معابد إدفو وبعد ذلك في ستة ساعات أخرى نصل إلى كوم إمبو ونبيت هناك ثم بعد ذلك نتوجه إلى أسوان.

فصاح سامي مرة أخرى وكان يقف وسط الدائرة، كل هذا الوقت وسأل المرشد هل يوجد في النيل سمك مثل سمك القرش وهل النيل غريق ؟؟! أنا خائف.

ضحك الجميع، وانهالت التعليقات الطريفة المهذبة على سامي، وحتى الآن لا نعرف ماذا قال له الأستاذ محمد ليقنعه باستكمال الرحلة بالمركب وهو الذي

يرتعد من الماء.

المركب يتهادى في عرض النهر، الحقول الخضراء تقترب وتبتعد، أعواد القصب تتهامس في ود، البلح ثمار النخيل يصعد ليعانق السماء ويهبط ليلثم الرمال البيضاء سبحان الله على هذه النخلة، تزرع في الصحراء تسقط رطبا وتزرع في الحقول والبساتين تثمر بلحا شهيا، ثمارها زاد المسافر وفاكهة المقيم، اقتربنا من قناطر "إسنا"، وعند الهويس وقفت الباخرة في انتظار الإذن بالعبور، وذكرني تقاطر البواخر بما يحدث في قناة السويس.

إسنا:

من المدن العتيقة ذات المكانة بصعيد مصر، اشتهرت بصناعة المنسوجات الصوفية الثقيلة (الكليم) وإنتاج التمر والزبيب والصناعات التي تقوم على سعف النخيل.

السيارات في انتظار الفوج لزيارة معبد إسنا.

واجهة المعبد التي تعود إلى العصرين البطلمي والروماني، مكونة من ستة أعمدة وأكمل المرشد السياحي حديثه، هذا المعبد أقيم على أنقاض معبد مصري قديم من الأسرة الثامنة عشر.

بالداخل أربعة وعشرون عمودا تحمل سقفا، وترجع أهمية هذا المعبد لما بالأعمدة من نقوش ولوحات، أشار المرشد إلى أنه كان يوجد بإسنا عدة معابد هدمت أو انهارت واستخدمت أحجارها في كثير من المباني على مر العصور.

لم تستغرق الزيارة وقتا طويلا وعدنا إلى المركب لننال قسطا من الراحة، وأثناء سير المركب كان السمر والأحاجي والألغاز والألعاب الجماعية وفي صالة العرض فيلم عن الآثار الفرعونية والإسلامية والقبطية الموجودة بمحافظة "قنا" وجلسنا نشاهده لعرضه بعض الأماكن التي لم نتمكن من زيارتها مثل المعابد الموجودة بمدينة "أرمنت" ومصنع السكر بها وجبانات مدينة "الزريقات" ومعبد (موت) بالطرد وبقايا معبد (حتحور) بالجبلين وأنقاض بلدة (أسيوس) بطوخ والجبانات التي تعود إلى عصور ما قبل التاريخ ومعبد (ببي الأول) بدندرة وكذلك واحات

الوادي الجديد.

فيلم وثائقي جميل يحوي كذلك معابد الأقصر، وعندما شاهدنا الأماكن التي زرناها بالفعل أحسسنا بالفرق بين أن تشاهد فيلما أو تشاهد الشيء رؤيا العين والفرق بينهما كبير.

كنا عندما نشاهد مكانا زرناه تكثر التعليقات. هنا كنا، هنا وقفنا، هنا مشينا، شيء جميل أن تعيش الحدث وتشاهد المكان. وأجمل ما شاهدناه في هذا الفيلم آثار "توت عنخ أمون" وكنوزه التي لا تقدر بثمن، (الأقنعة الذهبية ومقتنيات ذلك الأمير الشاب)

وعرض الفيلم الآثار القبطية منها دير الشهداء، ودير الأنبا ماتيوس ودير الفاخوري وما بهما من كنائس وقباب وتاريخ كل دير.

وكذلك عرض الفيلم الآثار الإسلامية المنتشرة في مدن "محافظة قنا" مثل مسجد عبد الرحيم القنائي ونبذة عن تاريخ هذا القطب المغربي ومسجد "أبو الحجاج الأقصري" والجامع العتيق بإسنا والخانات والمنازل القديمة والجامع العمري بأصفون والجامع العتيق ببوهي.

ويوضح الفيلم أيضا الجهود التي تبذلها الدولة للمحافظة على هذه الآثار بالترميم اللازم والدائم والاهتمام بالتسويق السياحي على مستوى العالم لتأخذ هذه الآثار موقعها الحقيقي في دنيا السياحة، إلى النوم تأمرنا جفوننا المتعبة والجسد المرهق والرغبة في أحلام سعيدة.

هل لك أن تتخيل إحساسك وأنت تتناول الإفطار سابحا في نهر هو أطول أنهار العالم، بين المروج الخضراء والسماء الزرقاء وتسابيح الطير العائدة برزقها والهواء الذي يجلو الصدور ويطهر الروح ويسمو بالنفس ويجعلها خالصة لمناجاة خالقها العظيم.

محافظة أسوان:

المركب تقترب من مدينة (زبو) الفرعونية (نبو) القبطية (إدفو) العربية التي تسبق أسوان على الخريطة بحوالى ١٢٣كم.

المرسى واسع وعدد من المراكب غير قليل، الأفواج السياحية تتبادل المواقع بين غاد ورائح وصاعد إلى إحدى المراكب ونازل، ونحن مع النازلين.

تنظيم دقيق ومواعيد ثابتة إلى حد كبير والخدمة ممتازة ورائعة، الأتوبيسات التي ستقلنا إلى معبد إدفو جاهزة ومن الواضح أن لهذا المعبد مكانة أثرية هامة تماثل أهمية آثار الأقصر، وذلك للنشاط السياحي الملموس واهتمام المرشد السياحي الذي بدأ كلامه قبل مغادرتنا المركب

معبد إدفو وضع أساسه "بطليموس الثالث" عام ٢٣٧ق.م واشترك في بنائه (بطليموس الرابع) واستكماله السابع، ووضع الروماني "أغسطس" بعض اللمسات واستغرق بناؤه مائة وثمانين عاما!.

على أبواب المعبد وقفنا نتأمل بناءه الرائع ،استقبلنا تمثال "بطليموس" ليرحب بنا في بلدنا وهو الغريب عنها، مدخل بديع بين صرحين عظيمين يمثلان البوابة الكبيرة، وفي فناء واسع يبلغ طوله ٤٦مترا وعرضه ٤٢مترا وقف المرشد السياحي يلفت النظر إلى تيجان الأعمدة وروعتها واختلاف أنماطها ويقرأ لنا النقوش الملونة والمزينة لجدران المعابد والتي توضح بعض أوجه الحياة في تلك الفترة ثم تجول بنا من قاعة إلى أخرى وفي استراحة الآلهة المزعومة عندهم التقط أنفاسه قبل أن يدخل قدس الأقداس، وتركنا في بيت الولادة بعد أن أعياه التعب والإرهاق.

تحت تمثال حورس الذي يبدو تحفة معمارية أخذ المرشد السياحي مكانه ليكمل لنا شرح أحد عشر لوحة تصور أسطورة الحرب التي دارت بين (حور وست) وقد قسمها علماء التاريخ إلى مقدمة وفصول ثلاثة وخاتمة.

وكأننا أمام خشبة مسرح نشاهد عرضا تمثيليا، المقدمة تحمل أسماء الممثلين، الفصل الأول "شعيرة الحرية" الفصل الثاني "فرحة النصر" ، "الفصل الثالث "احتفالات النصر" وفي الخاتمة الإعلان عن نصر "حور" على عدوه على الملأ.

مازلت لا أفهم لماذا يهتم "بطليموس" الإغريقي بهذه الأسطورة المصرية الصميمة؟ وما سر سيطرة "حورس" على تفكيره ليقيم له هذه النماذج

والتماثيل.

لقد ذاب الإغريق ومن بعدهم الرومان في الحضارة الفرعونية، جاءوا ليستعمرونا فسخرناهم لخدمتنا وأسهموا طوعا في ترميم واستكمال وبناء المعابد وأصبحوا جزءًا من النسيج الاجتماعي المصري.

تلقفتنا السيارات بسرعة لنتمكن من زيارة معبد (الرديسية) الذي أقيم في منطقة نائية بالصحراء الشرقية، اكتشفه (فريدريك كابو) عام ١٨١٦م، وهو أقل أهمية من معبد إدفو وإن كان له دلالة اجتماعية ويبين أهمية العمل عند المصري القديم وعناية الحكام بالعمال، وهذا واضح من النقوش الموجودة على الجدران بإحدى القاعات المنحوتة بالصخر؛ تلك النقوش التي يمدح فيها الجنودُ الملكَ، وكيف تُعبَّد الطرق وتُحَفَر الآبار وتوفر سبل الراحة للعاملين في المناجم والأماكن النائية وتوفير الحراسات اللازمة لتأمينهم.

أخذت السيارات طريق العودة إلى مدينة إدفو بعد انتهاء الزيارة، الشمس آثرت السكينة وانسحبت تاركة لنا بعض الظلال المتناثر هنا وهناك، وشفقا صبغ زرقة السماء باللون الذهبي المشوب بالحمرة، طيف من السحب يبدو وكأنه شهاب يريد أن يفلت من عقاله.

الجوع والعطش فعلا أفاعيلهما معنا رغم تناولنا وجبة خفيفة أثناء الزيارة، الجهد الذي بذلناه جعلنا نشعر بوطأة الجوع، والحر عجل بنفاذ الماء.

جلست بجوار الأستاذ محمد الذي لاحظ ما بدا علينا من خمول وتعب وبفطنة أعهدها فيه بدأ حديثه ليسري عنا بعد أن اجتمع عليه بعض من الزملاء.

لكل شيء ضرورة في حياتنا، الكيِّس من يعرف أهميتها قبل أن تفلت من بين يديه، أهمية الماء نشعر بها عند الظمأ ولذة الطعام تأتي بعد الجوع، والاطمئنان بعد الخوف سكينة، والراحة بعد الشقاء نعيم، والصبر على الخطوب قوة، والرضا بالقليل قناعة، والعصيان نقمة والطاعة نعمة، والدنيا وإن زينت إلى زوال والموت آت، والقبر شق والبعث حق والحساب يقين.

هذا هو حصاد اليوم بعد أن وطئت أقدامنا اللحود والمقابر وجالت أبصارنا

بين جدران المعابد وسمعنا كتب الموتى وشاهدنا رموزا لعهود سحيقة، فراعنة وبطالمة ورومان صاروا بعد الجاه رفاتا وبعد السلطان رمادا ولا يسعني هنا إلا أن أذكركم بقول الله تعالى في أول سورة آل عمران: "ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد" صدق الله العظيم.

نعم يا أبنائي علينا أن نسير في الأرض نرى قدرة الله في خلقه وآياته، نفخر بالبنيان ونتعظ بالقرآن، تبهرنا الأعمدة والتيجان ونعود إلى حظيرة الإيمان، ونسأل الله ألا يفتننا الشيطان عندما يحين الأجل.

قال أيمن حقا بذكر الله تطمئن القلوب.

بعد تناول الطعام والحمام الدافئ، عادت لنا الطاقة ونزح عن كاهلنا التعب، وفي أثناء تحرك المركب من إدفو إلى كوم إمبو، أعد القائمون على المركب حفلا بديعا، الفقرات جميلة وتعبر عن عادات أهل المنطقة -والتي لا تختلف كثيرا عن عادات وأفراح الأقصر، ولكن الجديد في الحفل الرقصات الفرعونية التي كانت تؤدى في الاحتفالات والأعياد في الأزمان البعيدة.

تلك هي طبيعة الحياة بين ذكر وطاعة، وتسرية وراحة، نسمع من الأستاذ محمد ما يثبت الإيمان ويطهر الروح ويسمو بالوجدان، وتهفوا النفوس إلى ما يزيل عنها المشاق والتعب والإرهاق ولكننا لا ننسى ذكر الله في جميع الأوقات.

توضأت وصليت وحاولت أن أنال قسطا من النوم إلا أن أسرتي قفزت إلى ذهني، وحشني أبي وأشتاق إلى أمي وأتوق لجدي وأفتقد مداعبة أختي. دخل جورج إلى "الكبينة"، (هكذا يطلق على مكان النوم بالمركب) وعندما أخبرته بما يجول بخاطري أعلمني بأنني يمكن الاتصال بهم من كبينة القيادة بمعرفة الأستاذ عبد الله، بعد استئذانه تفضل بالذهاب معي ومكنني من الاتصال والحديث معهم فترة غير قليلة، اطمأننت عليهم وأبلغتهم مدى سعادتي بالرحلة، وتحدث الأستاذ عبد الله مع والدي وطلب منه أن يتصل بكل من يعرفه من أسر الزملاء ليطمأنهم عن الجميع.

النهر هو النهر، الماء رقراق صاف والخير على الشاطئ واف ولوحات طبيعية تتغير في "بانوراما" جميلة، الشاطئ اقترب فأصبحت الرؤيا أوضح، الناس في الحقول بين زارع وحاصد، الساقية تدور والشادوف يتأرجح، ماكينة الحرث تشق وتبذر، وماكينة تروي وتسقي، قطرات العرق تزيد من خصوبة الأرض، وصوت الفأس أقوى من الحراث.

كوم إمبو :(بنيت)

مدينة الذهب شمال أسوان بها عدد من المقابر التي تعود إلى الدولة القديمة بجانب معبد كوم إمبو الشهير.

أسفل ربوة عالية وقفت السيارات التي أقلتنا من المرفأ، وصعدنا الربوة خلف المرشد السياحي، يبدو المعبد أصغر من معبد إدفو ولكن موقعه فوق الربوة أضاف إليه لمسة جمال انتظر المرشد حتى وصل الجميع.

المعبد تم بناؤه في القرن الثامن قبل الميلاد بدأه البطلمي (قبلومثيرن) وأسهم فيه (أيوار حيتيس) وأتمه (نيوس ديرنيسوس)

وبما أن النيل قد جرف البوابة ولم يتبق منها إلا جزء بسيط فلم نجد من يستقبلنا، المعبد مقسم إلى جزأين ويحيط به سور من الطوب اللبن، وعندما وجدنا اسم "حتشبسوت" الملكة و"رمسيس" الملك تعجبنا فأوضح لنا المرشد أن هذا المعبد لابد وأن يكون أقيم على أنقاض معبد مصري قديم، قبل البطالمة، في الفناء الأمامي للمعبد يوجد ستة عشر عمودا، وها هو الإمبراطور البطلمي يتقرب إلى آلهة المصريين القدماء، ومن الفناء إلى القاعات التي تتزين بصور بطليموس وغيرها من الصور والنقوش، ويزخر المعبد بالأعمدة والتيجان والحجرات والمقصورات، ومثل كل معبد مهما اختلف حجمه أو ذاع صيته واشتهرت عمارته، يوجد في المعبد قدس الأقداس بما يحويه من مقصورات وحجرات وزخارف وكذلك بيت الولادة الذي يقع في الزاوية الجنوبية من المعبد، وهناك هبطنا سلما يوصل للنيل لنرى أطلال مقياس للنيل.

زيارة سريعة لبقعة تجمع بين الحضارة والمناظر الخلابة وحلقة في مسلسل

تاريخي، نطوي صفحاته برفق ونسمع همس السنين.

مدينة أسوان

شريان الحياة لمصر يضيق، والماء يمرق بين الصخور الجرانيتية الحمراء منها والسوداء، وخلفها التلال الجيرية المغطاة بالرمل الأصفر، هل لك أن تتصور هذه اللوحة، الزاهية الألوان، وماء النيل الذي تحول إلى الزرقة، السمك يصاحبنا إلى المياة الدافئة، والطيور تراقبنا؛ وعين الله ترعانا.

أسوان الحصن الجنوبي (سونو) العتيقة "سوونة" في العبرية والآرامية "سوانا" في اللاتينية والقبطية، (أسوان) بالعربية، ومركز الاتصال بين مصر والنوبة وأواسط أفريقية.

المركب يتهادى بين الصخور وأبراج الكهرباء التي تحمل إلى مصر أحد أهم عناصر التقدم لتنشرها في ربوع مصر كلها، بدأت أعدادها تتكثف تشرئب الأعناق وكأننا سنرى السد العالي.

المرشد السياحي يحاول أن يسترعي انتباهنا ليقص علينا أمجاد هذه المدينة الذائعة الصيت في جميع أنحاء العالم، لما حباها الله من شمس ساطعة وخضرة يانعة وجو بديع ونيل وديع، لقد اهتم ملوك مصر وحكامها بهذا الإقليم اهتماما شديدا فحصنوها عسكريا ونظموها إداريا وعمروها تجاريا، فهي المنفذ والسوق والحصن ومن أهم المزارات السياحية بمصر، فهي تجمع بين عراقة الماضي ونهضة الحاضر. المرفأ واسع والحركة دائبة والفنادق منها العائم والثابت والقديم والحديث والمراكب الشراعية تحمل أعدادا غفيرة من السائحين تتمايل بين الصخور وتنتقل من جزيرة إلى أخرى.

ها نحن في أقصى الجنوب في رحلة تزيد عن الألف كيلو متر من القاهرة نرى بقعة تدب فيها الحياة بشدة، يؤمها صنوف عديدة من البشر ومن كل بقاع الدنيا، لا تعوقهم بحار ولا تمنعهم جبال.

هذا فندق "كتاركت" أعرق الفنادق بالمدينة يشير إليه المرشد، وعلى بعد ٣٠٠م معبد (إيزيس) وتلك هي جزيرة (الفنتين) وجزيرة (النباتات) سنزورها إن شاء

الله.

استعجبنا من عدم وجود سيارات لتنقلنا إلى بيت الشباب، ولكن المرشد أوضح أن بيت الشباب قريب، لا يحتاج إلى وسائل انتقال وستجدونها في انتظاركم، المهم بعد تناول الغداء يجب أن تسرعوا لنتمكن من زيارة معبد فيلة والمسلة الناقصة اليوم.

الغداء معد بصورة لائقة مذاقه طيب من أسماك بحيرة السد العالي.

بعد الغداء تسابقنا لركوب السيارات، لقد سمعنا الكثير عن معبد فيلة وكيف تم نقله من مكانه الأصلي... لماذا؟! توجهت بهذا السؤال إلى المرشد السياحي أثناء سير السيارات.

تم بناء معبد فيلة على جزيرة تحمل اسمه، وعندما بني خزان أسوان عام ١٩٠٢م ثم تم تعليته عام ١٩١٢ بارتفاع ٤٥ مترا وفي عام ١٩٣٤ زاد ارتفاعه ليصل إلى ١٥٥ قدما، أدى ذلك إلى ارتفاع منسوب المياه التي أغرقت بعض المناطق الأثرية وخاصة الموجودة بجزيرة فيلة، فكانت هذه الآثار لا تظهر إلا خلال شهري أغسطس وسبتمبر، ويغمر الماء معظمها طوال العام ولا يظهر منها إلا الأجزاء العليا وظلت هذه الآثار القيمة معرضة للخطر بعد بناء السد العالي، وعن طريق المنظمات الدولية والجهود المصرية تم نقل المعبد بأكمله إلى جزيرة مقابلة هي جزيرة (أجيلكا) في إحدى أهم عمليات الإنقاذ للآثار في العالم مما يثبت أهمية هذه الآثار بالنسبة للتراث الإنساني.

فوق ربوة وبإحدى الجزر النيلية تظهر تحفة معمارية جميلة قصر (أنس الوجود) هكذا يعرف معبد فيلة، وترجع هذه التسمية لإحدى الأساطير الشعبية القديمة.

أمام صرح ارتفاعه ٥٠ قدما وبين تمثالين لأسدين وقفنا نتأمل المعبد من الخارج، تظلنا أعمدة ذات تيجان من الزهور.

اتكأ المرشد إلى قاعدة تمثال الأسد الذي صنع من الجرانيت ليكمل حديثه عن القصر. يرجع إنشاء هذا المعبد إلى العصر البطلمي وأدخل عليه الرومان بعض

الإضافات، وبني لعبادة (إيزيس) وابنها "هربوقراط" وتفيد النقوش أن عبادة (إيزيس) انتشرت في الغرب وكان يحج إلى معابدها في مصر الكثير من اليونانيين والرومان.

عبرنا البوابة الرئيسية إلى بهو ثم صرح أقل ارتفاعا من الصرح الأول، وفي الغرب بوابة هدريات (١٣٨) بعد الميلاد وانتقلنا بعد ذلك إلى صالة كبيرة ثم قدس القداس، وفي جهة الشرق من مبعد (إيزيس) معبد (حتحور) المقام على أعمدة منقوشة بمناظر جميلة تحكي أسطورة عن الإله (رع) .

وانتهت زيارة مبعد فيلة أو أنس الوجود، بمشاهدة أثر في غاية الروعة في الجنوب الشرقي من المعبد وهو كشك (تراجان) ويرجع بناؤه إلى العصر الروماني.

دخلنا المعبد متسابقين، وها نحن نخرج منه متقاعسين تستوقفنا النقوش والصور وتبهرنا المناظر الطبيعية الخلابة حول الجزيرة، ولم يدفعنا للخروج وركوب المراكب إلا وصول فوج كبير يفوقنا عددا إلى الجزيرة.

في طريق العودة لم نعرف هل السيارات تتجه يمينا أم يسارا، الطرق ملتوية والممرات طويلة والأحجار الجيرية متناثرة، عبرنا دير القديس سمعان (الوقت لا يسمح بزيارته) السيارات تستأنف سيرها.

من فوق تبة عالية حيث وقفت السيارات ترقد تحتنا في باطن الجبل مسلة ضخمة عرفت أن طولها يبلغ ٤٢ مترا وعرضها ٤ أمتار ووزنها خالصا حوالى ١١٦٢ طن، هل لك أن تتخيل حجم هذا الأثر الراقد في مكانه منذ آلالف السنين، وعرفنا أيضا أن سبب عدم استكمالها ظهور بعض الشروخ بها أثناء نحتها في الصخر، عمل عظيم توقف لبعض الشروخ.

رأيت من قبل صوراً لمسلات عملاقة وشاهدت في معبد الأقصر إحدى هذه المسلات ولكن عندما تقف أنت عليها وتسير من قاعدتها إلى قمتها تشعر أنك تسبح في فضاء واسع، ونتنقل من كوكب إلى آخر في المجموعة الشمسية، ها أنا أستخدم إحدى خارقات الزمن (سفينة فضاء) أسبح بها في فضاء الله الواسع أنظر

إلى الخلق، وكيف سخر كل ما على الأرض وما حولها لخدمة بني الإنسان.

عند قاعدة المسلة أدور في فلك الكوكب (بلوتو) أبعد الكواكب عن الشمس، وأتخيل أرضنا التي نعيش عليها وقد تحولت من كتلة ملتهبة، وبعد العصر المطير والجليدي تحولت إلى أرض خضراء، سبحانه خلق من الماء كل شيء حي، وبسفينتي أنطلق إلى الكوكب (نبتون) وها هي الحياة تدب على الأرض، الحيوان يكر والإنسان يفر والطير يحلق والسمك يسبح، والحشرات والهوام تنقر وتنخر وأمدّ الله كل كائن بأسباب الحياة.

مازلت أسبح في ملكوت الله، وعند الكوكب (أورانوس) وجدت وجه الحياة قد تغير، قد تحول الإنسان من العصر الحجري والذي كان يعيش في كهوف الجبال ومجاهل الغابات والصراع الدموي لتوفير الغذاء وعرف الصيد، أراه قد نزل إلى ضفاف الأنهار وعرف الزراعة واستقر وكون أسرة، وعندما اقتربت من كوكب (زحل) بهرتني الهالات التي تحيطه وها هو الإنسان قد طرق المعادن ورفع البنيان، وعرفت الحضارات والحضارة المصرية تاج تلك الممالك وسيدة كل الحضارات، وفوق كوكب (المشترى) أكبر كواكب المجموعة الشمسية، سمعت صليل السيوف وحوافر الخيل وأنين الجرحى وصراخ الأرامل وبكاء اليتامى، الصوت قادم من الأرض، صوت القهر والظلم والطغيان!! صراع حضارات (البابلية - الفنيقية - الآشورية - الهيلينية - الرومانية - الهندية - الصينية)؛ الأرض عاصفة والحروب يعلو وطيسها والمجازر البشرية في كل مكان بطول الأرض وعرضها، وأرى نجمة داود تبرق من بعيد هاربة من شريعة موسى عليه السلام.

وأنا أيضا ألملم شتات نفسي وأهرب في اتجاه كوكب (المريخ) أنين مريم البتول تحت الشجرة يلفت انتباهي، وصوت الإله وهو يأمرها بأن تهز الشجرة لتقتات ويقتات رسول المحبة (عيسى) عليه السلام وليقوم بنشر السلام والمحبة وليعيد سيف الظلم إلى غمده ولو إلى حين، وحتى حلت مشيئة الإله على عيسى ولاقى ما لاقى من أفاعي بني إسرائيل؛ وصال يهوى اله بنى صهيون رب الجنود يفسد في الأرض وجال ينشر الفساد.

ومرة أخرى أجاهد هاربا لأصل إلى كوكب (الأرض) وتقف سفينتي في بـاطن مكة أم القرى أرقب بزوغ فجر جديد، يمحو ظلام الليل وشمساً تفلـق الصـباح ودينا يهدم الوثنية ويقيم بالعدل شـرع الله في الأرض، ويعلـو صـوت الحـق مـع الأذان وتسبق حمامة السلام نصـل السـهام، وتـدور الـدوائر علـى الظـالم بشـق الحسام، وتزول ممالك كانت تجور وتغرق أمم في بحر مسجور، ما أعظمك يا ابـن عبد الله يا محمد يا رسول الحـق للإنسـان والرحمـة للطـير والحيـوان.وصـدق الله العظيم "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"

يرفرف قلبي وأنا أتجه إلى كوكب (الزهرة) وإذا بسحابة قاتمة تمطر بالفتن، ومن صلابة وقوة وصدق "أبي بكر" إلى تمزق الأمويين، ومـن عـدل "الفـاروق" ورفـع راية الإسلام في ربـوع الأرض إلى تنـاحر العباسـيين، ومـن تواضـع "عثمـان ذي النورين" إلى تسلط الإخشـيديين ومـن ورع "علـي بـن أبـي طالـب" إلى تشـيع الفاطميين وانقسم العالم الإسلامي إلى دويلات وممالك، وابتعـدوا عـن مـنهج الله، وتناحروا على ماسة في تاج ودينار من ذهب وعباءة من حرير.

وها هو الهلال يرافقني في السفر إلى كوكب (عطارد) نقترب من لهب الشمس، نتلظى بنار الإباحية والانحلال، نسينا القيم وتعلقنا بالمقامات، غفلنـا عـن شيم الكرام، وسحلتنا الملذات. لهيـب الشـمس يلفـح وجهـي ونارهـا تـذيب عظـامي وأصابتني حالة من الهلع والرغب والخوف وإذا بالهلال يضمني ويغلق على هالته، يطمئنني وتغشاني غاشية أفيق منها علـى صـوت المقـرئ يتلـو في إذاعـة القـرآن الكريم "براديو" السيارة أثناء طريق العـودة إلى أسـوان قـول الله تعـالى في سـورة النور" وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لسـيتخلفهم في الأرض كمـا استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهـم وليبـدلنهم مـن بعد خوفهم أمنا يعبدونني ولا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون".

صدقت يا صاحب الوعد الحق وأسألك أن أكون مـن المـؤمنين، أعـرف أنـك معنا في صحونا وغفوتنا، ويقيني أنك تريد بعبادك الخير ورحمتـك وسـعت كـل شيء، وهبتنا نعمة العقل وهديتنا النجـدين وأرسـلت لنـا الرسـل، فـأنعم علينـا

بالعودة إلى صحيح الدين وأجمع شمل الأمة الإسلامية وأبدل خوفهم أمنا وضعفهم قوة، وأعزهم بعزتك وأمدهم بسلطانك إنك نعم المعين.

وعدت أسأل نفسي هل كنت في أحد أحلام اليقظة، وما هي علاقة المسلة الناقصة بكل هذا؟ وكيف جرى كل هذا الكلام على لسان فتى في أول مراحل الإعدادية، هل هي ثقافة الرحلة ومحصلة الخبرات؟! هل هو مزج بين ثقافة الأستاذ عبد الله التاريخية وإيمان الأستاذ محمد القوي ورؤية الأستاذ إبراهيم لا أدري، كل ما أعرفه أنني أصبحت في نعمة كبيرة وهي تدبر ما أرى وفهم ما أسمع ووعي ما أقرأ.

إنها اللية الأخيرة في أسوان احتفال كبير بقصر الثقافة يحضره لفيف من رجال الحكم المحلي ورجال الأعمال والصحافة وبعض رجال السياحة وكثير من طلاب المدارس الثانوية والجامعات من أنحاء الجمهورية جاءوا إلى أسوان اليوم في قطار الشباب ذلك المشروع المفيد الذي تشرف عليه وزارة الشباب ليعرفهم آثار بلادهم في رحلات داخلية.

المسرح الكبير مبني على شكل معبد كبير، عرفت من المرشد أنه يماثل معبد "أبي سنبل" الذي يعتبر من أهم آثار النوبة، هو ومعبد "كلابشة" والذي تم نقله بعد بناء السد العالي.

بدأ الحفل برقصات ساحلية ورقصات بدوية ورقصات ريفية ثم أتبع ذلك رقصات شعبية من القاهرة ورقصات صعيدية في "تبلوهات" جميلة معبرة، وأخيراً اختتم الحفل برقصات فرعونية ثم النشيد الوطني لمصرنا الحبيبة.

شيء جميل أن تفرح دون ابتذال وأن تغني دون مجون وأن تطرب دون هوس وأن تنتشي دون خلاعة والحمد لله لم أتكاسل عن صلاة العشاء .

اليوم الأخير في أسوان وقد تكون الساعات الأخيرة في الرحلة، تناولنا الإفطار على عجل وأسرعنا لركوب السيارات، الطريق إلى معبد كلابشة وأبي سنبل طويل.

بدأ حديث المرشد السياحي مع تحرك السيارات. تعتبر منطقة النوبة أقصى

الحدود لمصر وكان يوجد بها الكثير من المعابد والمقصورات، ومع الضرورة الملحة لبناء السد العالي والذي يتبعه تكون بحيرة صناعية كبيرة أمام السد فقد تم التعاون مع منظمة اليونسكو لإنقاذ الآثار، وبالفعل تم نقلها إلى أماكن متفرقة لإنقاذها من الغرق، ومن أهم تلك الآثار (معبد كلابشة) ومعبد (أبي سمبل) واللذان تم نقلهما إلى أماكن مرتفعة عن سطح البحيرة.

اقتربنا من معبد كلابشة، ويرجح أن الذي بدأ بناءه (أمزفيس الثاني) ثم أعيد بناؤه في عهد البطالمة ثم استكمله الإمبراطور الروماني (أوكتافيوس أغسطس).

ودخلنا من الصرح الأمامي الكبير ذى البرجين العظيمين، ومن البوابة التي ترتفع حوالي عشرة أمتار عليها نقوش لقرص الشمس المجنح، في الفناء الأمامي وقفنا، ثم من بهو الأعمدة دلفنا إلى سقف البهو المستند إلى اثني عشر عمودا وعلى الجدران نقوش بلغات متعددة، وعبر البهو إلى قدس الأقداس وهو أكبر أجزاء المعبد، وفي فناء آخر ذي أعمدة توجد غرفة الولادة ومنها إلى المقصورة البطلمية الموجودة في شمال المعبد، المعبد يمثل جزءاً من حضارة أهل النوبة الملتصقة بالحضارة المصرية القديمة والتي تعتبر جزءا منها.

وفي طريق العودة كان معبد أبي سمبل وهو من أكمل المعابد التي بناها (رمسيس الثاني) في بلاد النوبة، وأمام صرح عظيم يدل على القدرة العالية لفن النحت عند المصري القديم، إذ يبلغ ارتفاع الصرح اثنين وثلاثين مترا وعرضه ثمانية وثلاثين مترا ويبرز من الجبلين المحيطين بالصرح أربعة تماثيل للملك جالسا، وتعتبر هذه التماثيل أكبر ما نحت في عهد رمسيس الثاني، وفوق الصرح حوالي عشرون تمثالا لقرود وتمثال آخر لرجل له رأس صقر.

زينت الجدران بنقوش وصور وحكايات، ومن باب المعبد إلى ردهة كبيرة على جانبها ثمانية أعمدة على هيئة تماثيل للملك، وخلف الأعمدة مناظر تمثل انتصارات الملك في حروبه ضد الأعداء، ومن الردهة الكبيرة الأولى إلى الردهة الثانية وبها أربعة أعمدة، وعلى الجدران صور للملك تتبعه زوجته (نفرتاري) ومن الردهة إلى حجرة توصلنا إلى ثلاثة حجرات أخرى. وفي إحدى هذه

الحجرات يوجد ثلاثة تماثيل تصل إليها أشعة الشمس رغم أنها داخل الصخر ستون مترا. (هندسة وفلك وفن) ومن خلال مقصورتين نمضي إلى المعبد الصغير، وقبل أن نصل إلى المعبد ألقينا نظرة على بعض النقوش المحفورة في الصخور في عصور مختلفة.

في الجزء الشمالي من المعبد حفر في الصخر معبد (نفرتاري)، عند المدخل نجد ستة تماثيل بارتفاع أحد عشر مترا للملكة والملك تستقبلنا بترحاب. وخلف هذا الصرح فناء به ستة أعمدة عليها رسوم للملكة والملك، ومن الردهة إلى حجرة بها رسم بديع للملكة بين (إيزيس وحتحور) ونفتح أبوابا ثلاثة لنصل إلى قدس الأقداس المزين ببعض الرسوم والنقوش.

انتصف النهار والسيارات تسرع في طريقها إلى السد العالي، أحدث الأهرامات وأعلى المسلات وأضخم المعابد في العصر الحديث. أكبر بنوك الماء في العالم وأهمها لمصر، يحفظنا في زمن الجفاف ويمدنا بالخير على مدار العام، بفضل الله حول الزراعة من ري الحياض إلى الري الدائم وساهم في استصلاح أراض زراعية وهو الذي سيمد مفيض توشكى بالماء لإيجاد دلتا جديدة في الصحراء الغربية.. ومشروع توشكى ودرب الأربعين له حديث آخر حيث أنهما في المراحل الأولى.

من فوق السد نرى غابة من الأعمدة الحديدية التي تفيض خيراً، في أكبر محطة محولات كهربائية بالشرق الأوسط، وعند النصب التذكاري رمز الصداقة وقفنا نلتقط الصور وخلفنا السد العالي أحد أهم رموز الحضارات المصرية الجديدة.

عادت بنا السيارات إلى بيت الشباب لتناول طعام الغداء، ودون أن نأخذ قسطا من الراحة، تجمعنا على ضفاف النيل لتحملنا المراكب الشراعية إلى جزيرة النباتات. ووسط الزهور النادرة والنباتات المزهرة والأشجار الباسقة نلتقط الصور وتكثر المداعبات والألعاب، وزيارة سريعة لضريح (أغاخان) الذي يرقد في سلام في أجمل مشتى في العالم ووسط حديقة نادرة التكوين والوصف.

وفي المساء جولة في أسواق المدينة التي تغيرت أوجه الحياة فيها بعد بناء خزان أسوان ثم السد العالي ومصنع "كيما" واستغلال مناجم الحديد القريبة وزيادة

حركة السياحة الخارجية والداخلية وتنشيط السياحة العلاجية في بقعة من أجمل بقاع الجنوب.

اشترينا البلح والكركديه والأعشاب الطبية والطواقي الأسواني ذات الألوان الزاهية، واشترى الأساتذة "السمك المملح" الذي تشتهر به أسوان. وعدنا إلى بيت الشباب نحزم الحقائب ونودع المدينة.

القطار يغادر محطة "أسوان" في اتجاه الشمال، ننساب مع النهر العظيم إلى قاهرة المعز، لا أصدق أن الرحلة قد انتهت، عرفنا ماضينا لندعم حاضرنا ونضع مستقبلنا بأيدينا وعقولنا وعلمنا وإيماننا بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا وهو نعم المعين.

لقد أنعم الله علينا بنعمة البصر فرأينا آياته التي خلقها لعباده وكيف سخر لنا الكون لتسمو البشرية، وشاهدنا عجائب صنع الإنسان، باختلاف النوايا والغايات والمقاصد، وبنعمة من الله أعملنا العقول لنفرق بين الحق والباطل فزاد اليقين بوحدانية الله سبحانه وتعالى، وتعاملنا مع كل ما رأينا من آثار على عظمتها وشموخها على أنها فن وإبداع وكتاب مفتوح لأمم سابقة، وقيمة حضارية وتراث إنساني يدل على قدرة الإنسان عندما يستخدم ما وهبه الله في البناء والنحت والتصوير والهندسة والطب والعمارة.

طلعت علينا الشمس وغربت، طالت بنا الليالي وقصرت قرأنا في صفحات التاريخ القيم الحقيقية للحضارة المصرية القديمة وكيف كان لشعبها النبيل دور في تطور حياة الإنسان، وأدركنا معنى أن يكون هناك تاريخ (يرى) كأثر شامخ يقاوم كل عوامل الزمن، (ويقرأ) على النقوش التي حفرت في الصخر بعمق التاريخ (ويقص) على الأجيال المتعاقبة للعبرة واستخلاص المعاني النبيلة، وتاريخ آخر (يفهم) فنتعلم منه (ويؤثر) فهو كالفنارة هداية لكل شارد (ويحس) فيكون الدفء حين الصقيع والنسمة في الربيع.

عرفنا من خلال تلك الرحلة كيف سادت أمم وبادت، سلكنا طريق الحرب وعدنا من طريق التجارة، طرقنا سبل السلام ووجدنا أن الدين الحق تاج والعلم

سفينة النبهاء والسماحة شيمة النبلاء. وتأكدنا أن مصر بخير طالما النيل يجري والدماء تغذي والسواعد فتية والقلوب وفية والضمائر نقية، لقد تعلمنا معنى الانتماء وكيف يكون العطاء، وبالإيثار تعم المحبة وبالعدل يدوم السلام.

عرفنا المسئولية وتحملنا تبعاتها، طرقنا أبواب المجهول دون خوف أو وجل فأصبحت لدينا القدرة على مواجهة الشدائد بالتدبر والشجاعة، تنازعنا الخيال ولم نبتعد عن الواقع، وبعقول اكتسبت الوعي حلمنا برحلة إلى عالم القيم المفتقدة والأخلاق النبيلة التي نمسك أطرافها، رحلة إلى عقديتنا السليمة دون جدل عقيم أو تسفيه لرأي، نحترم كل فكر بناء وأن اختلفت السبل، ننهل جميعا أبناء وطن واحد من ينابيع الخير على اختلاف المذاهب والعقائد ونترك الماء الآسن يسبح فيه كل متشدد ومتصلب ومغرض.

لقد خلقنا الله شعوبا وقبائل لنتعارف، التقوى لنا ميزان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طاعة للرحمن. اللهم اجلعنا ممن يسمعون القول فيتبعون أحسنه.

يوم الجائزة

المدرسة تلبس ثوبا جديدا، اهتمام ملحوظ بكل شيء، الزهور تزين كل ركن بالمدرسة فتزيدها بهاءً، طلاب المراحل الثلاثة بذلوا جهودا عظيماً لتبدو المدرسة في أفضل صورة.

دخل الأستاذ إبراهيم الفصل ومعه الأستاذ محمد والأستاذ عبد الله وعلى وجوههم بشر يريح القلوب ويطمئن النفوس.

يا أبنائي إنكم فخر لمدرستكم بما وصلتم في بحثكم الجميل من مستوىً أدبي وثقافي وتاريخي، وقد امتد أثر ما قمتم به إلى مجتمعنا المدرسي والأسري وأيضا على مستوى الوزارة.

لقد تم تقييم البحث والنشاط المصاحب له، وسيحضر إلى المدرسة مجموعة من رجال التعليم والموجهين، وستقيم المدرسة بهذه المناسبة حفلاً كبيراً، أما عن مقال زميلكم أحمد بخصوص إعداد كتيب يجمع القيم الأدبية والاجتماعية والثقافية للمراحل الثلاثة محل دراسة ولكم عندنا مفاجأة لن أفصح عنها الآن.

لكم مني الشكر ومن معلميكم التحية لأنكم كنتم على مستوى المسئولية وحسن الظن بكم وأتمنى لكم التوفيق والنجاح.

تحولت صالة الألعاب الرياضية إلى صالة احتفالات، باقات الورود تعبق المكان، أعلام المحافظات ارتفعت يتوسطها علم بلدنا الحبيب، تسلل إلينا الشعور بالفخر ونحن نجلس بين زملائنا وحولنا جمع غفير من المدرسين والعاملين وأولياء الأمور حضروا وكأنهم في حفل تخرج.

رهط من السادة الضيوف والمسئولين، الأستاذ إبراهيم والأستاذ محمد هم من نعرفهم على المنصة، نائب محافظ العاصمة وممثلين لوزارات التربية والتعليم والثقافة والسياحة والشباب وجمعية الرعاية المتكاملة المهتمة بالطفل في جميع

مراحله، ورجال الإعلام والصحافة. جمع هائل تحول معه الزهو والفخر إلى الشعور بأننا أمام لجنة امتحان.

نوَّه الأستاذ محمد إلى الأستاذ عبد الله الذي كان يجلس بيننا وشكره لما بذله من جهد لإخراج هذه التجربة إلى حيز التنفيذ والتي أثبتت نجاحا في تغيير النمط السلوكي للطالب وجعلت منه باحثا ومنقبا وناقدا وعالما صغيرا، ثم توجه إلينا بالحديث.

لقد قرأت جميع الأبحاث وكم كنت سعيدا وأنا أقرأها بلغة عربية سليمة وشعرت أنها كتبت بتفكير إيماني قوي جعل المعابد والتماثيل والحفائر والقبور مجرد رموز ثقافية وفنون إبداعية وتراث حضاري له دور اجتماعي وبعد تاريخي وصدىً إنساني، ثم طلب من الأستاذ عبد الله أن يتقدم للمنصة.

قام الأستاذ عبد الله باستعراض موضوع البحث وأشار إلينا وكأنه يقدمنا فردا فردا، وتقدم بالشكر إلى الأستاذ إبراهيم لجهده ورعايته لهذه الفكرة وعلى ما وفره من إمكانات لتكون الأبحاث موثقة ومؤرخة، توجه بالشكر أيضا إلى جميع المدرسين الذين ساهموا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في مد الطلاب بالمعلومات، وشكر أولياء الأمور الذين اقتنعوا بجدية التجربة وشاركوا في نجاحها.

كنت قد أعددت كلمة لإلقائها بهذه المناسبة كما طلب مني الأستاذ عبد الله والذي دعاني لإلقائها، تقدمت إلى المنصة وأشعر أن الأرض تميد بي.

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات السادة الأجلاء .. زملائي الكرام.

ووجدت الكلمات تنساب مني دون احتياجي للورقة.

الحمد لله الذي شرفنا بهذا المقام وجعلنا بين أيديكم أعزاء، نفخر بمدرستنا ونجل معلمينا ونقدر أهالينا، لما بذلتموه من جهد وما طقتم من صبر، لقد بذلنا جهدا شاقا وعانينا الكثير، ولكن كل ذلك يتضاءل أمام هذا الموقف الكريم، "إننا سعداء ولكن سعادتنا الأكبر أننا كنا عند حسن ظن معلمينا، الأستاذ عبد الله الذي سعى بجمع شتات أفكارنا والأستاذ يحيى الذي ضحّى بكل غال ونفيس

ليكون معنا بروحه وجهده والأستاذ محمد البشير عند الطاعة والسلوك الطيب، النذير عند التقاعس والتكاسل، كان لنا نبراسا هاديا ودواءً شافيا، أما والدنا جميعا الأستاذ إبراهيم هو لنا قدوة نسير على نهجه، علمنا كيف نسلم لله كل أمورنا بعد أداء ما علينا من واجبات وكانت لكلماته عن التأمل والتفكير والتدبير عظيم الأثر في نفوسنا.

... لقد من الله علينا بأن جعلنا من طلاب هذه المدرسة، شعرنا فيها بالأمان والإيمان والتقوى فسمعنا وأطعنا، وخلصت النوايا فتعلمنا وتثقفنا وتجمعنا في محبة ووئام، وباسمي أنا وزملائي نشكر جميع القائمين على العمل التربوي والاجتماعي بهذا الصرح العظيم، فقد كانوا لنا قدوةً نقتدي بها، ومنهلاً نرتوي منه، حتى زملاؤنا الذين سبقونا تعلمنا منهم السلوك الطيب والاجتهاد ونقدر لهم سعيهم للنجاح والتفوق.

لكم منا الشكر والاحترام،،،

والسلام عليكم ورحمة الله

تقدم السيد ميشيل والد زميلنا جورج يتحدث باسم أولياء الأمور

بسم الله الذي جمعنا على المحبة والإخلاص.

السادة الأفاضل وأبناءنا الأحباء.

يصعب على الإنسان أحيانا أن يعبر عما يشعر به ويقف جلال الموقف حائلا أمام الكلمات، ورغم ذلك فها أنا أحاول أن أعبر عما يجيش بصدري وما يجول بخاطري وإخواني أعضاء مجلس الآباء.

كنا في بادئ الأمر نشفق على أبنائنا من هذه التجربة الجديدة علينا وعليهم، ولكن أمام الرغبة الملحة لهم وثقتنا بإدارة المدرسة، وجدنا أنفسنا أحد أضلاع المثلث (المدرسة - الطالب - الأسرة) اقتنعنا بالفكرة وشعرنا ببوادر الفائدة التي ستعود على الجميع، سافرنا شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، والتقينا مسيحيون ومسلمون نجوب معا الأديرة والمساجد، المعابد والكنائس تواصلنا وعدنا إلى جذورنا وأهلينا، كل منا يؤمن بعقيدته ولكننا جميعا تحت عباءة واحدة، نشكل

نسيجا واحداً لمجتمع، صلب فاشتد عودة، جلد فزاد إيمانه وعندما تعرض للفتن تماسك ولم ولن ينفرط عقده.

بمحبة المسيح عشنا وبسماحة الإسلام كان لنا الأمان، كم كنت سعيدا عندما زارنا الأستاذ محمد ومعه أصحابه وزملاء ابني جورج وغيرهم من جيراننا، لقد كانت زيارتهم سببا في سرعة شفائه وهو غاية مرادنا.

تاريخنا واحد عشناه بأفراحه وأتراحه في أروع صور التضامن، حاضرنا نعيشه متماسكين يداً بيد وكتفا بكتف، نزرع ونحصد، نصنع وننتج، نبني ونعلو بالبنيان في بلد هي الوحيدة التي ذكرت في الكتب السماوية الثلاثة بأنها بلد الخير والنماء والأمن والأمان، لا إكراه في دين ولا مذلة لمذهب ولا تحقير لإنسان.

دعونا ندعوا جميعا أن يديم علينا هذا الود وتلك المحبة، وأن نفشي على الأرض المحبة والسلام

تقدم السيد ممثل وزارة التربية والتعليم وألقى كلمة عبر فيها عن إعجابة بالمدرسة والأنشطة المقامة بها ثم تطرق لموضوع البحث وأشاد بالفكر التربوي المستنير والتوجيه السليم للاستفادة من طاقات الشباب فيما يعود عليهم وعلى المجتمع بالخير والنماء مما يساعد على إبعادهم عن التوجهات السلبية والأفكار الهدامة، ثم توجه إلينا بالحديث وأنتم يا أبنائي نموذج لما يجب أن يكون عليه شباب هذا الجيل من فكر وجهد يتواكب مع نهضة شاملة تعم البلاد، إننى حقا فخور بكم ووجودي بينكم اليوم لهو خير دليل على أن الجهود المخلصة تجد من يقدرها ويشيد بها وأتمنى لكم كل التوفيق وأن تكونوا مثالا يحتذى به، و ألا يفتر حماسكم وتهون عزائمكم إذا صادفتكم عوائق وتواصلوا سعيكم للوصول إلى أعلى المناصب .وأحسب أن هذه الفكرة سيكون لها صدى واسع في كل المدارس بنين وبنات.

تفضل السيد ممثل وزارة الثقافة بالحديث، وبعد أن حيا الجميع .نظرإلينا وكأنه يتأملنا يا أبنائي إن المجتمع الذي يسعى إلى التقدم يجب ألا يقلل من فكرة بناءة ولا يستعظم محنة هدامة، فإن الفكرة مهما كانت صغيرة .طالما أنها جيدة وتهدف إلى إضافة ولو كانت غير منظورة إلا أن مجموع الأفكار إذا وجدت من يتبناها

ويجمعها في منظومة كما حدث معكم، فإنها تصبح قوة مؤثرة في الدفع لمستقبل أفضل، وإذا استعظمنا المحنة أصابنا الجمود والتبلد والاستلام والتراخي والانكسار الذي يؤدي إلى مذلة الديون وخنوع التبعية. فهنيئا لكم بما أنجزتم، ومرحبا بكم في عصر أنتم أهلا للدخول فيه بعزم الرجال وإيمان التقاة وعلم العلماء..

تقدم مندوب وزارة السياحة وقدم التحية..

لقد قامت المدرسة بالتعاون المثمر مع الأسرة بتجربة خلاقة، وجديرة بالاحترام والدراسة والانتشار، لقد استمدت هذه التجربة عظمتها من حداثة سنكم وكان علينا جميعا تقدير هذا الجهد وأن نضيف لمسة لهذه الصورة الجميلة وأن نخرج بهذه التجربة إلى حيز التنفيذ الفعلي.

لقد أجمعت كل جهات الاختصاص وكل الأجهزة المعنية على مكافأتكم، وستكون المكافأة هي أن تقوم وزارة السياحة بإعداد وتجهيز سيارات وقطار خاص يطوف بكم محافظات مصر أثناء العطلة، نحيي به نظام الكشافة ويتحول حلمكم إلى حقيقة، وقد أعدت بيوت الشباب في جميع المحافظات لاستقبالكم وتقديم يد العون وقد كان للأستاذ/ إبراهيم الفضل في هذا الاقتراح، وتلك هي المفاجأة التي حدثكم عنها.

كانت الكلمة الأخيرة للأستاذ/ إبراهيم

السادة الكرام ، أبنائي الأعزاء:

التاريخ جذر كل أمة ودليل قوتها وعزها وعظمتها، خلاصة فكر وجهد وعرق السنين، وهو قصة الخلق وعمارة الكون من خلال مسيرة حياة الإنسان ومراحل تطوره، والحضارة تراث متراكم من الشرائع والقيم والمثل والأخلاق النبيلة، عادات وتقاليد راسخة تؤدي إلى سمو المجتمع، ليس مجرد أثر نفخر بتفرده، وطلاسم ونقوش يصعب معرفتها أو معابد وأهرامات نتوه في دهاليزها.

لقد مر الإنسان خلال تاريخه بكثير من مراحل التطور وظهرت عدة حضارات ساهمت في ذلك بنسب مختلفة، وتخلل هذه الحضارات أزمان ظهرت فيها قوى باطشة عاثت في الأرض ظلما وفسادا، وأدت إلى اندثار أمم وزوال ممالك وجاءت

رسالات سماوية هادية إلى سبيل الله بالتقوى والعدل والعمل الصالح، وأبعدت من أنعم الله عليهم عن رجس الشرك وطهرتهم من الوثنيـة والإلحـاد وأمـدت بعـض الحضارات بشرائع وقيم أخلاقية بعثت فيها الحياة بعد أن كادت تضمر وتنزوي.

عندما عمد الغرب إلى فصل العلم عن الـدين ونبـذ الفطـرة الإلهيـة السـليمة وتصلب الفكر الكهنوتي انقسم المجتمع علـى نفسـه وسـادت الفوضـى وظهـرت المادية والإلحاد وتوقف الاجتهاد وتغلبت المادة على الروح، بعكس ما كان يـدعو إليه المسيح (عليه السلام)، انهارت الحياة العائلية وطمست القيم وأصبح الإنسان أشبه بالآلة وسخر موارده وفكره لإشباع ملذاتـه الحسـية. وهـا هـو الآن بعـد أن وصل إلى قمة العلم والتكنولوجيا وركب خارقات الزمان يطـرق أبـواب المجهـول ويكتشف المجرات ويبدع في توفير وسائل الترف، قدس المـال وارتكـب في سـبيل جمعه وإنفاقه كل المعاصي. نراه الآن وقد نخره سـوس الإباحيـة وتعفنـت قيمـه الانتهازية وقسى قلبه ومات ضميره، فتجبر وظلم نفسه وشاع الانحلال والفسوق والأمراض النفسية.

أبنائي:

إن الفطرة الإلهية المتمثلة في شريعة موسى والرحمة في رسالة عيسى والحكمـة في ديننا الحنيف وسنة نبينا المطهرة تدعو إلى الإيمان الـذي يتبعـه العمـل الصـالح والتكافل الاجتماعي والعدالة والعلم والاجتهاد وعـدم التواكـل وصـلة الأرحـام والتعاون على البر والتقوى، عندما عرف المسلمون الأوائل الذين اتبعـوا الرسـول عليه الصلاة والسلام حقيقة الإسلام وأنه دين علم ومعرفة سـادوا العـالم علميـا وثقافيا وعندما تحلوا بالسماحة والكرم سادوا الدنيا اجتماعيا واقتصاديا، وعنـدما رفعوا راية العدل والرحمة تخطـوا الحـدود ورفعـوا المظـالم وحـافظوا علـى كرامـة الإنسان، بالعلم والإيمان والقدوة الحسنة، وصل شعاع الحضارة الإسلامية إلى نهاية العالم المأهول إلى أن تصلب الفكر وتوقف الاجتهاد فابتعد العالم الإسـلامي عـن الصدارة.

ولما كان العلم والإيمان سلاح كل العصور، فإن للمدرسـة دورا هامـا في بنـاء الفرد، خلقيا وثقافيا وأدبيا، وارتفعت مكانة المعلم الفاضل والمربي [illegible]

دينه ووطنه، وتأكد دور الأسرة المترابطة وبرز دور الأم الواعية المثقفة والأب القدوة والمثل وتعاظم دور المسجد والكنيسة. والجميع في إطار فكر تربوي يعملون على إعداد وتنشئة الطالب المتمسك بعقيدته،الورع في دينه، الكريم في خلقه، الصحيح في بدنه، العزيز بعلمه، الشامخ بعمله والذي هو عماد المستقبل لأمة واعية لمتطلبات العصر وفي ظل قيادة رشيدة وأسوة حسنة وإيمان مطلق بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

أبنائي:

المحافظة على القيم والعودة للتاريخ ليس معناه الجمود والتخلف، وكما قلت لكم لن نقف على أسوار التاريخ نتباكى على أمجادنا، قيمنا أصيلة لن تموت، إنها بداخلنا تفور كالبركان، فقط علينا أن نسوسها ونمهد لها الطريق ونحرث الأرض الطيبة ونهتم بالنبتة الصالحة. وها أنتم عندما توفرت لكم الفرصة قدمتم عملا طيبا، وكفى أن تكونوا كمن قال فيهم الله سبحانه وتعالى : "إن الذين أمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا" (سورة مريم)

تآلفت قلوبكم في تراحم ومحبة وتعاون، وتواصلت الأرحام، فارتقيتم بالمستوى الخلقي والعلمي، تخلصتم من الأنانية والفكر الهدام فأصبحتم نواة طيبة تسهم في رقي المجتمع وتحويله إلى مجتمع منتج لا يعتمد على الآخرين.

أبنائي:


هذه هي عقيدتكم.. وهذا هو تاريخكم.. وتلك هي بلدكم، فهلا تمسكتم بدينكم واتبعتم رسولكم، وفطنتم لما يحيط بكم ويدبر لكم واعتبرتم من تاريخكم، وعملتم واجتهدتم لرفعة وطنكم وصلاح أمتكم.. فتكونوا بحق خير أمة أخرجت للناس.

والله الموفق وعليه قصد السبيل،،،

حسن عبد الغفارحسن

مايو ٢٠٠٦

الفهرس





I.S.B.N. 977-436-012-5
9 789774 360121

مكتبة النافذة

